جامعة المدينة العالمية
Al-Madinah International University

دعوة التوحيد

GDWH5063

كتاب المادة
Master Textbook

جميع الحقوق محفوظة لجامعة المدينة العالمية 2009

المحتويات

الـــــدرس الأول :	مقدمات في العقيدة	٧-٢٣
الـــــدرس الثـــاني :	مفاهيم يجب الوقوف عندها	٢٥-٤١
الـــــدرس الثالــث :	تابع مفاهيم يجب الوقوف عندها	٤٣-٦١
الـــــدرس الرابــع :	كلمة التوحيد: فضلها، وشروطها، ومعناها – نواقض التوحيد (١)	٦٣-٨١
الـــــدرس الخــامس :	نواقض التوحيد (٢)	٨٣-١٠٠
الـــــدرس الســـادس :	نواقض التوحيد (٣)	١٠١-١١٧
الـــــدرس الســـابع :	كلمة التوحيد تشتمل على الكفر بالطاغوت قبل الإيمان بالله	١١٨-١٣٧
الـــــدرس الثــامن :	مقتضيات الإيمان بالله تعالى	١٣٩-١٥٨
الـــــدرس التاســع :	أدلة وجود الله –تبارك وتعالى–	١٥٩-١٧٦
الـــــدرس العاشــر :	تابع أدلة وجود الله تعالى	١٧٧-١٩٥
الـدرس الحـادي عـشر :	أقسام التوحيد	١٩٧-٢١٢
الـدرس الثـاني عـشر :	معنى العبادة وما يتعلق بها	٢١٣-٢٢٩
الـدرس الثـالـث عـشر :	النهي عن مظاهر الغلو، وبيان معنى التوسل والوسيلة	٢٣١-٢٤٨
الـدرس الرابـع عـشر :	الرد على شبهات المتوسلة	٢٤٩-٢٦٥
الـدرس الخـامس عـشر :	الاستشفاع والشفاعة	٢٦٧-٢٨٣
الـدرس الســادس عـشر :	التبرك والولاية	٢٨٥-٣٠٠

الـدرس الـسابع عـشر :	الكرامة	٣٠١-٣١٧
الـدرس الثـامن عـشر :	توحيد الأسماء والصفات	٣١٩-٣٣٨
الـدرس التاسـع عـشر :	العلو، والاستواء، والمعية	٣٣٩-٣٥٥
الـدرس العـشرون :	الرد على من أنكر الأسماء والصفات	٣٥٧-٣٧٦
الدرس الحادي والعشرون :	أسماء الله كلها حسنى وصفاته كاملة عليا	٣٧٧-٣٩٦
قائمة المراجع العامة :		٣٩٧-٤٠٠

مقدمات في العقيدة

عناصر الدرس

العنصر الأول :	معنى العقيدة في اللغة والاصطلاح	٩
العنصر الثاني :	محتوى العقيدة وحاجة الإنسان إليها	١١
العنصر الثالث :	معنى الإسلام	٢١

معنى العقيدة في اللغة والاصطلاح

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين، وبعد:

كلمة العقيدة تتردَّد على ألسنة الناس، وفي محاوراتهم ومحادثاتهم كثيرًا، فهي كلمة مسموعة، ولذلك كثيرًا ما نسمع أو نرى الناس يقولون: أنا أعتقد كذا، وفلان عقيدته حسنة، والعقيدة الإسلامية هي السبب الأقوى الذي أدَّى إلى الانتصارات الإسلامية العظيمة في كل زمان ومكان.

ومن المعلوم أنّ الحرب بيننا وبين غيرنا من أعداء ملَّتنا حرب عقائدية في حقيقتها، ولذلك فكلمة العقيدة كلمة في الحقيقة عظيمة، ولها شأن كبير، ومن هنا كان لا بد من بيان معناها في اللغة والاصطلاح.

فأقول في ذلك وبالله التوفيق: مادة "عَقَدَ" في اللغة: مَدَارُها على اللزوم والتأكد والاستيثاق؛ ففي القرآن الكريم قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ﴾ [المائدة: ٨٩]. وتعقيد الأيمان إنما يكون بقصد القلب وعزمه، بخلاف لغو اليمين التي تجري على اللسان بدون قصد. أما العقود الواردة في الآية السابقة، ﴿ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ﴾ معنى العقود أوثق العهود، ومنه قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ [المائدة: ١].

والعقيدة في الإسلام تقابل الشريعة؛ لأن الإسلام عقيدةٌ وشريعة، ونعني بالشريعة التكاليف العملية التي جاء بها الإسلام في العبادات والمعاملات، أما العقيدة؛ فهي ليست أمورًا عملية، وإنّما هي أمور علمية، يجبُ على المسلم أن

يعتقدها في قلبه ؛ لأن الله -تبارك وتعالى- أخبره بها بطريق كتابه ، أو بطريق وحيه إلى رسوله ﷺ.

وأصول العقائد التي أمرنا الله باعتقادها هي التي حددها الرسول ﷺ كما في حديث جبريل المشهور ، ومن ذلك ما جاء فيه عن تعريف الإيمان بقوله ﷺ : ((الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره من الله تعالى)). إذًا العقيدة في الإسلام هي التي تدور حول قضايا معينة ، وهذه القضايا أخبرنا الله -تبارك وتعالى- بها ، أو أخبرنا بها رسوله ﷺ.

وحتى تصبح هذه العقيدة لا بد أن نُصدِّق بها تصديقًا جازمًا لا ريب فيه ، فإن كان : في العقيدة ريب أو شك كانت ظنًّا لا عقيدة ، والدليل على ذلك ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ ﴾ [الحجرات: ١٥]، وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [آل عمران: ٩].

وقد ذَمّ الله -تبارك وتعالى- الُمشركين الُمرتابين فقال : ﴿ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة: ٤٥]. ومن الُملاحظ أن المسائل التي يجب اعتقادها في علم الاعتقاد هي أمور غيبية ، وليست مشاهدة أو منظورة ، وهي التي عناها رب العالمين ﷻ بقوله عندما مدح أهل الإيمان في افتتاح سورة البقرة ؛ فقال جل في علاه : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [البقرة: ٣].

ومن هنا أقول : إنّ مسائل العقيدة كلها غيب ، فالله -تبارك وتعالى- غيبٌ والملائكة واليوم الآخر ، أمّا الكتب والرسل ؛ فقد يتبادر أنها تُشاهد وتُنظر ، ولكن الُمراد هو الإيمان بنسبتها إلى الله -تبارك وتعالى- أي : كون الرسل مبعوثين من عند الله ﷻ وأن الكتب منزلة من عنده سبحانه ، وهذا أمر غيبي.

وعليه أقول: إنّ مَسَائِلِ الإِيمَانِ أو أركان الإيمان كلها من الغيب، وبعد هذا استطيعُ أن أقول في تعريف العقيدة اصطلاحًا: بأنها هي مجموعة من قضايا الحق، البديهية المسلمة بالعقل والسمع والفطرة، يَعْقِدُ عليها الإنسان قلبه، ويُثني عليها صدره؛ جازمًا بصحتها، قاطعًا بوجوبها وثبوتها، لا يرى خلافها أنه يصح أو يكون أبدًا.

محتوى العقيدة وحاجة الإنسان إليها

أ- محتويات العقيدة:

محتويات العقيدة كثيرة، وذلك كاعتقاد الإنسان بوجود خالقه، وعلمه به، وقُدرته عليه، أو لقائه بعد موته، ونهاية حياته، ومجازاته إيَّاه على كسبه وفعله وعلمه، كاعتقاده بوجوب طاعته فيما بلغه من أوامره ونواهيه عن طريق كُتبه ورسله؛ طاعة تزكو بها نفسه، وتتهذب بها مشاعره، وتكمل بها أخلاقه، وتُنظَّم بها علاقته بين الخلق والحياة.

ومن محتويات العقيدة أيضًا: اعتقاد العبد أن ربه ﷻ غني عن جميع خلقه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، وأن يعتقد العبدُ أيضًا افتقار كل شيء إلى رب العالمين ﷻ جل في علاه- فما من مخلوق إلا وهو بحاجة ومفتقر إلى خالقه ومولاه، فبالله تعالى حياته، وعليه وحده توكله واعتماده؛ إذ هو محط رجائه إذا طمع، ومأمن خوفه إذا خاف، بحبه يُحب، وببغضه يُبغض، هذا هو مولاه الذي لا مولى للعبد غيره سبحانه، وهذا هو المعبود الذي لا معبود بحق سواه.

ولا يحل لرجل أو لمخلوق بحال من الأحوال، أو غير ذلك من المخلوقات المكلفة أن ترى أن غير الله -تبارك وتعالى- ربها، أو أن يعتقد الإنسان أن له إلهًا سوى الخالق المتفرِّد بالوحدانية والكمال.

إن العقيدة الإسلامية تشتمل في محتوياتها بإيجاز، على الإيمان بالله وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر خيره وشره. وهذه المسائل المجملة تحتها فروع وتفصيلات كثيرة للغاية.

إن العقيدة الإسلامية تتلخص في كلمة التوحيد، وهي: "أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسولُ الله ﷺ" قولًا وفقهًا واعتقادًا وعملًا بأركانها وشروطها، وواجباتها ومعناها، وإذا اعتقد العبدُ ذلك آمن بجميع ما جاءه عن ربه من أركان الإسلام؛ كما صَدّق أيضًا بِجَميعِ التّشريعاتِ الرّبانية التي جائت إليه من ربِّ البرية ﷻ جلَّ في علاه.

ب- حاجة الإنسان إلى العقيدة:

الإنسانُ بِحَاجة مَاسّة إلى العَقيدة الصّحيحة، ودعوى استغناء الإنسان عن العقيدة دعوى باطلة؛ يُكَذّبها الواقع، ويُبطلها تاريخ البشرية الطويل، إذ واقع البشرية شاهدٌ على أن الإنسان حيثما كان، وفي أي ظرف وُجد، وعلى اختلاف أحواله وتباين ظروفه لا يخلو من عقيدة أبدًا.

وسواء كانت تلك العقيدة حقًّا أو باطلًا، صحيحة أو فاسدة، حَتّى أولئك الذين يدّعون اليوم أن العلم قد أغنى عن العقيدة وعن التديُّن، وأن الإنسان في عصر الذرة وغزو الفضاء، لم يصبح في حاجة إلى الإيمان بالله تعالى، وهؤلاء بالغوا في الكفر والإنكار؛ حتى قالوا: إن الإله لم يخلق الإنسان، وإنما الإنسان هو الذي

خلق الإله، وهي عبارة كفرية ولكنها موجودة في قاموس الشيوعية الماركسية، التي هي عدوة لجميع الأديان، وهؤلاء يريدون بذلك أن الإنسان في الظروف الصعبة التي كان يعيشها، والمخاوفُ تنتابه من كل ما حوله من مظاهر الكون، إذ الإنسان يخاف المرض، ويخاف الفقر، ويخاف الرعد والبرق، والفيضان والسيول، والعواصف والزلازل، وحتى الحيوانات تخاف.

ومن هنا؛ اضطُّر الإنسان -كما يزعمون- إلى أن يُؤمِن بِقُوّة غَيْبِيّة ذاتِ قُدرة لا تعجز، وسُلطان لا يُغلب ولا يُقهر؛ سماها إلهًا يفزع إليه عند الشدائد، ويتقرب إليه بالعبادات؛ ليدفع عنه الشرور، ويَقيه من المهالك، ومن هنا قالوا: إنّ الإنسانَ هو الذي خلق الإله، وليس الإله هو الذي خلق الإنسان. وهذا قول مضحك وجهل فاضح، وكفر صريح وكذب ممقوت، ومغالطة مكشوفة، وسخف عقول لا حدَّ له.

وتحرير هذه القضية الفاسدة: هو أنهم إن كانوا يعنون بالإله الذي خلقه هو إله الوثنيين الذين اتخذوا أصنامًا آلهة؛ نحتوها بأيديهم، وعَبدوها بأهوائهم؛ فنعم، هذه الآلهة خلقها الإنسان، وليست هي التي خلقت الإنسانَ. وأما إن كانوا يعنون بالإله الذي خلق الإنسان، هو الله الذي خلق السماوات والأرض وما فيها وما بثَّ بينهما، وخلق الإنسان وكرمه، وأنزل عليه كتبه وبعث إليه رسله، وعرفه بنفسه وبشرائعه، التي يتم كماله وتتحقق سعادته بها؛ فإن كانوا يعنون ذلك، فقولهم مغالطة وجهل وسخف وكذب؛ إذ الإنسان لم يخلق حتى نفسه فضلًا عن أن يخلق غيره، فكيف بالله خالق كل شيء وربه ومليكه، سبحان الله -تبارك وتعالى- عما يقولون وعما يصفه به الظالمون.

إنّ ادِّعاء بعض البشرية استغناء الإنسان اليوم عن الإيمان بالله تعالى؛ لأنه عرف الطبيعة، واكتشف أسرار الكون؛ فما أصبح يخاف المرض ولا الفقر، ولا

الفيضانات ول: الزلازل والجوائح، ولا العاهات ادِّعاء باطل لا وزن له ولا قيمة أبدًا؛ إذ الإنسان ما زال يخافُ من كل هذه، وجميعُ وَسائله التي يملكها لِيَدفَعَ بها عن نفسه، لم تؤمِّنه بعدُ، ولن تؤمنه أبدًا، وكيف والآلام التي يعانيها الإنسان: اليوم جسمانيًا تزداد يومًا بعد يوم، وفي كل أنحاء الوجود البشري.

وأصبحنا في الآونة الأخيرة نسمع عن أمراض مخيفة؛ كأمراض السرطان والبرص والصرع وغير ذلك، وما زالت هذه الأمراض تفتك بالآلاف من الناس، وفي كل سنة؛ بل في كل يوم نسمع شيئًا من ذلك. كذلك المجاعات تُهدِّد مناطق شاسعة من العالم، والفيضانات تجري بين الحين والآخر، وأحيانًا تحصد قرًى بأكملها، وتُشَرِّد الآلاف من البَشر، ولم يستطع الإنسان الكافر بالله تعالى والذي يدَّعي أنه خلق الإله أن ينجو من هذه الويلات؛ فضلًا عن أن يضع لها حدًّا، أو أن يُوقف وجودها، بل ازدادت مصائبُ الإنسانِ ومِحنُه، وعَظُم الخطبُ واشتد عليه لما كفر بربه وكفر بدينه المُنزَّل عليه.

فأصبح هذا الإنسان في تمزُّق شخصي، وهبوط نفسي، وسقوط خلقي، كاد يفقد طعم حياته ولذة وجوده، لقد غاض ماء الحياة من وجه كثير من الكفرة، الذين فعلوا ذلك، وأصبح الواحد منهم صفيقًا عربيدًا فاحشًا متفحشًا، وغار معين الكرامة الآدمية فيه، فصار لا غيرة له، ولا شهامة، ولا كرامة، ولا مروءة؛ ألف الكذب والغدر والخيانة، وتعوّد الجَريمة، و دخل في النفاق والتضليل والخداع.

ومن هُنا؛ ساءت المجتمعات البشرية، وهبطت الحياة عند هؤلاء الكفرة إلى أبعد حدود الهبوط والسقوط، حتى صاح العقلاء منهم منددين بهذا الكفر الذي هم عليه، والإلحاد الذي سلكوه، مُطالبين بالرجعة إلى الدين والإيمان، بل حتى كبار

الملاحدة قد نكسوا على رءوسهم، وقالوا في وضوح: لا غِنى عن الدين، وطالبوا عُلماء النّفس والاجتماع أن يضعوا لهم دينًا، ولكن بدون الإيمان بالله، وذلك لأن الله يأمرُ بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، وهم لا يُريدون عدلًا ولا معروفًا ولا إحسانًا، كما لا يريدون أن يتخلوا عن الظلم، ولا عن الفحش والمنكر.

ولذا فهم يريدون دينًا صناعيًّا؛ يُهذب نفس الإنسان، ويكمل أخلاقه، وبدون ذكر الله فيه ولا ذكر أمره تعالى أو نهيه. وهيهات هيهات أن ينفع دين صناعي في تقويم الأخلاق وإصلاح النفوس، وتهذيب المشاعر وتطهير الأرواح، إنّ هؤلاء القوم من الغرور بمكان، وهم في الحقيقة مغرورون مخدوعون جُهَّال ضالون مضللون، لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم.

والقصد من ذكر الذي ذكرته الآن هو: أنْ أُقرر حقيقة علمية ثابتة بكل القوانين العقلية والشرعية، وهي: أن الإنسان دائمًا في حاجة إلى الإيمان والتدين والعقيدة، وأن الدّين ضرورة من ضرورات حياة الإنسان، وأن حاجة الإنسان إلى الدين أقرب وأولى عنده من حاجته إلى غيره، فلا غنى للإنسان عن الإيمان بربه، وعن عبادته بحال من الأحوال، ومن هُنا لم تخلُ أمّة وُجدت على وجه الأرض، ومنذ عهد الإنسان بالحياة من عقيدة ودين.

ومصداق ذلك ما جاء في قول الحق الكبير المتعال جل في علاه: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤]، والمراد من النذير نبي أو رسول، أو عالم وارث لعلم النبوة، يُنذر تلك الأمة عَاقِبة الكفر بالله -تبارك وتعالى- وبكتبه، ورسله، وشرائعه، ويُحذرها من نتائج الشرك بربها، والمَعصية له ولرسله، وما يتبع ذلك من انحراف السلوك بالظلم، والشر، والفساد.

إنّ الإنسان قد يَستغني عن أشياء كثيرة، وقد تكون من الأمور الضرورية عنده في حياته؛ إلا أنه لا يستغني عن عقيدة أو دين أبدًا، وهؤلاء الذين انحرفوا عن الحق هم في حقيقة أمرهم قد اعتقدوا عقيدة، ودانوا بدين، وإن كان: هذا الدين الذي هم عليه دين باطل، لا يُقوِّم نفسًا، ولا يُهذِّب سلوكًا، ولذلك فإننا نُعلن للبشرية كلها أن ادخلوا في الدين كافة، وارجعوا إلى ما بُعث به النبي الكريم ﷺ.

إن الاعتقاد الصحيح في رب العالمين وما جاء من عنده سبحانه، هو الذي به: تستريح النفس، ويسكن الضمير، وتسلم المجتمعات. ثم بعد ذلك المؤمن الذي دان بهذا الدين، يلقى ربه ﷻ وهو مُستبشر بالخير الذي أعدَّه رب العالمين سبحانه لمن آمن به واتقاه.

ج- وجه ضرورة الدين للإنسان:

الإنسان منذ أن وُجد على هذه الأرض، بهبوط أبيه الأول آدم، وأمه حواء - عليهما السلام- من الجنة دار السلام، وهو في حاجة مَاسّة، ومُلِحّة أيضًا إلى قوانين ضابطة تُعدِّل من غرائزه، وتُنظم سلوكه، وتحدِّد اتجاهاته، وتهيئه للكمال الذي خُلق مستعدًّا له في كلتا حياتيه؛ الأولى هذه التي يقضيها قصيرًا على ظهر هذه الأرض، والثانية التي تتم له في عالم غير هذا العالم الأرضي الهابط، وإنما في عالم الطُّهر والصفاء، في الملكوت الأعلى كما أخبر بذلك ربه بواسطة كتبه التي أنزلها، وأنبيائه الذين أرسلهم.

غير أن تلك القوانين المطلوبة، لتعديل غرائز الإنسان وتنظيم سلوكه، وتحديد اتجاهاته في الحياة لا توجد، وهيهات هيهات أن توجد في تشريع غير رباني أو سماوي، لا دخل لأهل الأرض في وضعه وشرعه، إذ لا يعرف الإنسان بعواطفه وأشواقه، ولواعج نفسه وبأفكاره وآماله ومتطلعاته، ولا يَقوى على

توفيته مطلوبه من ذلك كله، إلا ربه ﷻ خالقه؛ فهو وحده الذي يحقّ له أن يضع له من القوانين، وأن يُشرِّع له من الشرائع.

ومن المعلوم: أنّ الأديان التي جاءت من عند رب العباد -سبحانه- هي التي تُكَمّل الإنسان، وتُعده للكمال والسعادة الأبدية الخالدة؛ لأنها من عند رب العالمين -سبحانه، والله ﷻ هو الذي خلق خلقه، وهو أعلم بما يُصلحهم كما قال سبحانه: ﴿ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

ولذا كان الدين ضروريًا للإنسان بوضعه الخاص؛ فالإنسان يأكل ويشرب ويتوقى الحرّ والبرد، وعليه أن يعمل لإعداد ذلك لنفسه؛ فيوجدُ بالسنن التي وضعها ربه له طعامه وشرابه ولباسه، ودواءه وسكنه ومركوبه، وهذه حال تدعو إلى تعاون أفراده؛ لتوفير ما به تقوم حياتهم وتستمر إلى نهاية أجلها المسمى، والإنسان بفطرته يشعر بضعفه وحاجته إلى ربه في إعانته وتوفيقه، ورعايته وحفظه؛ ولذا فهو يطلب التعرف إلى ربه، والتعرف إلى الله -تبارك وتعالى- يجبُ أن يكونَ بما يُحِبُّ الله ﷻ من أنواع القُرَب وضروب الطاعات والعبادات.

والإنسان بمواهبه وأفكاره ومشاعره وأحاسيسه هذا الإنسان يطلب دائمًا المزيد من السمو والرفعة في ذلك؛ حتى لا يقف عند حدٍّ أبدًا، فهو إذًا في أحواله كلها مفتقر إلى تشريع ديني إلهي، يُلائم فطرته وينظم له علاقته فيما بينه وبين المجتمع الذي يعيش فيه وبين أفراده.

والإنسان من المعلوم أنه لا يستغني عن التعاون مع أفراد مجتمعه، وذلك لتوفير أسباب حياته، وبقاء المجتمعات صالحة في هذا الوجود، وتوفير ما يحتاج الناس إليه من مطعم ومشرب وغير ذلك، إلى جانب أن بعضنا يمدُّ بعضًا بعلوم

ومعارف، والله ﷻ قد أرسل الأنبياء والمرسلين؛ ليُعلِّموا الناس ذلك، ويُبيِّنوا لهم الحقائق التي يحتاجون إليها، ولذلك نحنُ نجد بأن الأنبياء والمرسلين تحدثوا عن رب العالمين -سبحانه- وعن كيفية عبادته ودعائه، وذكره والتقرب إليه بفعل طاعته وإتيان محابِّه وترك مكارهه، واجتناب مساخطه، ﷻ جل في علاه.

ومع ذلك كان الله ﷻ يَمُدّ أنبياءه ورُسله بعُلومٍ عِلْمِيّة كاملة عن الحياة والكون؛ يَعرفُ الناس بها حقيقة الوجود، وعِلّة الكون والحياة، وأسباب السمو والكمال، والهُبوط والنقصان التي تطرأ على الإنسان في حياته الأولى والآخرة.

وبناءً على كل ما تقدم فضرورة الإنسان إلى دين إلهي صحيح، أشد من ضرورته إلى العناصر الأولية؛ لحفظ حياته من ماء وغذاء وهواء، ولا يُنكر هذه الحقيقة أو يُجادل فيها إلا معاند مكابر، لا يؤبه لعناده ولا يُلتفت إلى جداله. كما أن دعوى العقل في إمكانه الاستقلال بهداية الإنسان إلى ما يصلحه ويسعده دعوى باطلة ساقطة، لا وزن لها ولا واقع، وذلك لأننا رأينا الكثير من الأمم والشعوب لما فقدت هداية الوحي الإلهي؛ لم تُغنِ عنها هداية العقول شيئًا، فضلت وهلكت.

ومما قاله القرآن الكريم في هذا الموضوع قول الحق -تبارك وتعالى- من سورة الأحقاف: ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وذلك؛ لأن العُقول لا تَهْتدي إلى معرفة كل ما ينفع الإنسان في حياتيه؛ ليأخذ به، ولا إلى معرفة كل ما يضر الإنسان في حياتيه كلتيهما ليتجنبه، وينجو مما يضرُّه إلا في ضوء الشرع الإلهي ونور وحيه؛ لأن العقول لا تعدو كونها آلة إدراك كحاسة العين لا تُبصر إلى في ضوء النور، والإنسان بعقله لا يستطيع أن

يُدرك إلا على ضوء الشرع الإلهي، ونُور وحيه تعالى إلى أنبيائه ورسله. ومن رأى غير هذا؛ فإنه يُغالط نفسه، ويُكابر في شيء من الخطأ، ومن الضلال المكابرةُ فيه لكونه من المحسوس المشاهد.

كما أن دعوى الاكتفاء بالعلم عن الوحي الإلهي، الذي: تمثِّله الشرائع الإلهية الصحيحة السليمة من التحريف والزيادة والنقص والتبديل، كالدين الإسلامي دعوى باطلة قطعًا، ومن وجهين أيضًا:

الأول: أنّ ما عند الناس من بعض العلوم والمعارف في الفنون والأخلاق والآداب، إنما هو -بدون شك- مأخوذ من الوحي الإلهي، إِمّا بالنّص اللفظي، أو بالاستنباط، وإنما نُسب إلى بعض الأشخاص مغالطة وتضليلًا لا غير.

والثاني: أنّ العلم المادي مقصور على نفع الإنسان في الجانب المادي منه، وهو الجسم ومتطلباته، وأما الجانب الروحي، وهو الأهم قطعًا؛ فإن العلم المادي لم يخدمه في شيء، ولم يقدم له أيَّ نفع البتة؛ لأنه لم يكن روحيًّا مجانسًا للروح؛ فيُقدم له ما هو في حاجة إليه، إنّ العلوم الإنسانية الخالية من الوحي الإلهي لم تعدوا الكشف عن بعض الظواهر الكونية المادية فقط، كما قال الله -تبارك وتعالى- عن أربابها: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧]

فكيف إذًا تستطيعُ أن تُقَدّم أي خدمة للروح، وهي لم تكسر حجاب المادة بعدُ، ولم تعرف أي سرٍّ عن حقائق الكون وعلله، وقد اعترف علماؤها بالعجز الكامل عن معرفة العلل والأسرار لأية ظاهرة من ظواهر هذا الكون، فقالوا: اسألونا بكيف لا بماذا، يعنون قولوا لنا: كيف وقع الشيء الفلاني فإننا نجيبكم، أما لماذا وقع؟ فإننا لا نعرف الإجابة عنه ولا نملكها أبدًا، وذلك لحرمانهم من علوم الوحي الإلهي.

وشيء آخر أقوله لهؤلاء: أليست العلوم المادية قد بلغت الذروة في الكمال، بعد أن قطعت شوطًا بعيدًا في التطور والشمول في كل المجالات؟ ومع هذا الكمال فإن البشرية في شقاء دائم، ولم تخطو يومًا خطوة إلا إلى شقاء آخر أكبر، والواقع يشهد بذلك، وكفى بهذا شهيدًا. ولذا فإنه لا مناص من الاعتراف بالحقيقة والتسليم، وهي أن الدين الحق ضروري للإنسان لا غنًى له عنه بحال من الأحوال، وأن كمال الإنسان وسعادته مُتوقّفَان عليه توقف المعلول على علّته، والمُسبَّب على سببه.

وليُعلم أخيرًا: أنّ الدين الذي نعني ضرورته للإنسان؛ لتوقف سعادته وكماله عليه في الدنيا والآخرة، إنّما هو الدين الإسلامي الحق الصحيح، الدِّين الذي شرعه الله ﷻ، وصحَّت نسبته إلى الله -تبارك وتعالى. أما الأديان الباطلة المفتراة؛ كالبوذية والمجوسية والأديان المحرَّفة المُبدَّلة، كاليهودية والنصرانية؛ فإنها وإن سُميت أديانًا، فإنها خالية من الوحي الإلهي الذي يُمثِّل فيها شرعًا إلهيًّا متكاملًا، يُقَدّم للإنسان كل ما يحتاج إليه لإصلاح جسمه وروحه، وإسعادهما في الدنيا والآخرة.

والدليل الواضح في ذلك أن أوروبا المتدينة بالنصرانية لم تتقدَّم حضاريًّا إلا بعد التمرد والكفر بالدين الذي كانت تعيش عليه زمنًا طويلًا، وهو يُكبِّلها ويقيدها، حتى قام رجال منها وحاربوه، وخرجوا عن قيوده وكفروا بشرائعه.

وإن بحثت البشرية الراشدة العاقلة عن دين إلهي صحيح سليم؛ فإنها واجدته قطعًا وبدون شك في الإسلام، الذي هو دين البشرية العام، والذي تضمَّنه كتاب ربنا ﷻ، وهذا الكتاب منذ أن نزل على النبي ﷺ وأهل الإيمان يغترفون من معينه، وهو محفوظ بحفظ الله له؛ فلم ينقص منه حرف، منذ أن نزل، ولم يزد

فيه آخر، ولم تُحرَّف فيه كلمة عن موضعها منه، ولم تخرج عبارة عن مدلولها قط ؛ بالرغم من مرور أكثر من ألف وأربعمائة سنة عليه.

إنّ الدّين الإسلامي هو الدين الكفيل بإنقاذ البشرية اليوم، وهو الدين الكفيل بأن يُخرجها من محنتها، محنة المادية العاتية التي سلبته : -أو كادت- كل معاني الآدمية الكريمة والإنسانية الفاضلة ؛ حتى صَيّرت الإنسان آلة لا فهم، ولا ذوق له، ولا تقدير ولا احترام. فإلى الإسلام يا عُقلاء العالم، فإنه الدواء لدائكم، والهداية لكم من ضلالاتكم، فاقبلوا عليه عقيدة وحكمًا ونظامًا ؛ فإنه بلا شك سينجِّيكم ويُسعدكم.

معنى الإسلام

الإسلام لغة : الاستسلام والانقياد.

والإسلام في الشرع : إظهار الخضوع وإظهار الشريعة. والتزام ما أتى به النبي ﷺ، وبذلك يُحقن الدم، ويُستدفع المكروه.

يُقال : فلانٌ مسلم أي : هو المُستسلم لأمر الله، وهو المخلص لله العبادة، ويُقال أيضًا : سَلّم الشيء لفلان أي : خلصه، وسلم له الشيء أي : خلصه له، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال : ((المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده))، قال الأزهري -رحمه الله- في معنى هذا الحديث : "أنّ المُسلم هو الذي دخل في باب السلامة ؛ حتى يسلم المؤمنون من بوائقه". وقد قال رب العالمين في كتابه : ﴿ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ ﴾ [المائدة: ٤٤] وقد فسر ثعلب هذه الكلمة فقال : "كل نبي بُعث بالإسلام غير أن الشرائع تختلف".

وقد قال رب العالمين ﷻ: ﴿ وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ ﴾ [البقرة: ١٢٨] أراد مخلصين لك؛ فعدَّاه باللام إذ كان في معناه، وقال تعالى: ﴿ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، هذا أمر من الله -تبارك وتعالى- ومعنى القول ﴿ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ ﴾ يعني: في الإسلام وشرائعه كلها.

والإسلام هو دين الله -تبارك وتعالى- كما قال الله ﷻ في كتابه الكريم: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، ومن ثَمّ أرسل به جميع أنبيائه ورسله -عليهم الصلاة والسلام- من آدم # حتى كانت الرسالة الخاتمة على يد النبي الأمي محمد بن عبد الله ﷺ. وقد أكَّد القرآن الكريم هذا المعنى وأشار إليه بذكر نماذج له؛ ولأذكر بعض ذلك كما جاء في كتاب الله -تبارك وتعالى- فنوح # قال: الله -تبارك وتعالى- عنه: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَمَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [يونس: ٧١، ٧٢].

وأبو الأنبياء إبراهيم # قال عنه القرآن أيضًا: ﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٠، ١٣١].

وقال الله -تبارك وتعالى- عن نبيه وكليمه موسى # : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤]، وقال عن عيسى # وبيَّن القرآن أنه كان مسلمًا وداعيًا إلى الإسلام: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٥١﴾ ۞فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران ٥١، ٥٢].

كما قال عنهم أيضًا: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة: ١١١].

وبالتالي أقول: إنّ الرسالات السابقة جاءت بالإسلام، وكلها كانت تمهيدًا للرسالة الخاتمة كما قال رب العالمين: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وإن اختلفت الشرائع والمناهج لاختلاف الأزمنة والأمكنة، والمدارك والعقول؛ إلا أن الدين الإسلامي كان دين الأنبياء جميعًا، وهذا الدين الإسلامي هو دين الفطرة كما قال رب العالمين سُبحانه: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

ونبينا ﷺ أخبر في صحيح سنته ((أن كل مولود يُولد على الفطرة)) وقد روى ذلك الصحابي الجليل أبو هريرة > عن نبينا ﷺ.

إن الإسلام عُرف ببنائه الشامخ، وصرحه العظيم في شمولية تامة وكمال وافٍ جميل، هذا، ونستطيع أن نُشبه الإسلام بالبيت، وكل بيت له أساس وأعمدة وبناء ومؤيدات، فأساس الإسلام وقاعدته تتمثَّل في عقيدته، وتتلخص في كلمة التوحيد "أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ". ثم تأتي أعمدته الأربع وهي: الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، ويُطلق على هذه الخمس أركان الإسلام. وقد بيَّن ﷺ في حديثه الصحيح أنّ الإسلام قد بُني عليها.

أما الأمر الآخر الذي هو المؤيِّد لهذا الدين أيضًا وما جاء به النبي ﷺ، فهو ما جاء عنه ﷺ بعد ذلك من دعوة إلى الأخلاق والآداب والفضائل، وكل ذلك يُعبَّر عنه بالدين الذي بُعث به نبينا ﷺ، إننا ندعو البشرية جمعاء إلى الرجوع إلى هذا الدين، وإلى التمسُّك بدين الإسلام؛ لأنه دين جميع الأنبياء والمرسلين.

مفاهيم يجب الوقوف عندها

عناصر الدرس

العنـــــــــصر الأول : معنى الإيمان عند أهل السنة والجماعة ٢٧
العنـــصر الثـــاني : مفهوم الكفر لغة واصطلاحًا ٣٧

معنى الإيمان عند أهل السنة والجماعة

أ- تعريف الإيمان لغةً:

اشتهر عند أهل اللغة تعريف الإيمان بالتصديق؛ حتى ادَّعى بعضهم الإجماع على ذلك، قال الأزهري -رحمه الله: "واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم؛ أن الإيمان معناه التصديق"، وبيَّن أن الأصل في الإيمان الدخول في صدق الأمانة التي ائتمنه الله عليها؛ فإذا اعتقد التصديق بقلبه، كما صدق بلسانه؛ فقد أدَّى الأمانة وهو مؤمن، ومن لم يعتقد التصديق بقلبه؛ فهو غير مُؤدٍّ للأمانة التي ائتمنه الله عليها، وهو منافق.

ومن أهل اللغة من فسّر الإيمان بما يتضمَّن عمل القلب، ولم يقصره على التصديق فحسب، وفي ذلك يقول ابن منظور -رحمه الله: "وحَدّ الزّجاجُ الإيمانَ فقال: الإيمانُ إظهار الخضوع، والقبول للشريعة، ولما أتى به النبي ﷺ واعتقاده وتصديقه بالقلب". وقال الفيروز آبادي في (القاموس المحيط): "والإيمان الثّقة وإظهار الخضوع وقبول الشريعة".

والقول بأن الإيمان هو التصديق فقط؛ ردّه شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تبارك وتعالى- من وجوه كثيرة حاصلها:

- أنّ لفظ التصديق يتعدى بنفسه دون لفظ الإيمان؛ فإنّه لا يَتعدّى إلا بالباء أو اللام؛ فيُقال للمُخبر إذا صدقته صدقه، ولا يُقال: آمنه وآمن به، بل يُقال: آمن له، كما قال الله -تبارك وتعالى- في كتابه: ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وكما قال أيضًا: ﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ ﴾ [يونس: ٨٣]

فهنا عُدِّي لفظ الإيمان باللام، وقال رب العالمين ﷻ عن فرعون أنه قال لقومه: ﴿ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ﴾ [طه: ٧١]، كما قال قوم نوح لنوح # : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١].

ثانيًا: أنه ليس مرادفًا للفظ التصديق في المعنى؛ فإنّ الإيمان لا يُستعمل إلا في الأمر الذي يؤتمن عليه المخبر، كالآمر الغائب بخلاف التصديق؛ فإنه يُستعمل في كل خبر، وهذا فرق آخر، فإنّ كُلّ مُخبر عن مشاهدة أو غيب، يُقال له في اللغة: صَدَقْتَ كما يُقال: "كذبت"، فمن قال: السماء فوقنا. قيل له: صدق كما يُقال: كذب.

وأما لفظ الإيمان فلا يُستعمل إلا في الخبر عن غائب، لم يوجد في الكلام أنّ من أخبر عن مشاهدة؛ كقوله: طلعت الشمس وغربت. أنه يقال: آمناه، كما يُقال: صدقناه، فإنّ الإيمان مشتق من الأمن، ولذا فهو يُستعمل في خبر يؤتمن عليه المخبر، كالأمر الغائب الذي يؤتمن عليه المخبر؛ فاللفظ متضمن معنى التصديق، ومعنى الائتمان والأمانة، كما يدل عليه الاستعمال والاشتقاق. ولهذا قالوا: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ [يوسف: ١٧] أي: لا تُقر خبرنا ولا تثق به ولا تطمئن إليه، ﴿ وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾ [يوسف: ١٧]؛ لأنهم لم يكونوا عنده ممن يؤتمنون على ذلك فلو صدقوا لم يأمن لهم.

أما الفرق الثالث الذي يُبين أن الإيمان ليس هو التصديق فحسب كما ذهب إلى ذلك البعض: أنّ لفظ الإيمان في اللُّغة لم يُقابل بالتكذيب كلفظ التصديق؛ فإنه من المعلوم في اللغة أن كل مخبر يُقال له: صدقت أو كذبت. ويُقال: صدقناه أو كذبناه، ولا يُقال لكل مخبر: آمنا له أو كذبناه، بل المعروف في مقابلة الإيمان لفظ الكفر، والكُفر لا يختص بالتكذيب، بل لو قال: أنا أعلم أنك صادق؛ لكن لا

أتبعك، بل أعاديك وأبغضك، وأخالفك ولا أوافقك. لكان كفره أعظم. فلما كان الكفر المقابل للإيمان ليس هو التكذيب فقط؛ عُلم أن الإيمان ليس هو التصديق فقط.

رابعًا: أنّ التصديق إنّما يعرض للخبر فقط. فأمّا الأمر فليس فيه تصديق من حيث هو أمر، وكلام الله خبرٌ وأمر، فالخبر يستوجب تصديق المخبر، والأمر يستوجب الانقياد له والاستسلام، وهو عمل في القلب جماعه الخضوع والانقياد للأمر.

وقد يقول قائل: إذا لم تُسلم بأن الإيمان في اللغة هو التصديق، وقد قال بذلك بعض علماء اللغة؛ فما هو الأقرب في تفسير الإيمان؟ أقول: الأقرب أن يُفسَّر الإيمان بالإقرار، وفي ذلك يقول أيضًا ابن تيمية -رحمه الله: "أولى ما يُفسَّر به الإيمان في اللغة أنه: الإقرار الذي يتضمن تصديق القلب وانقياده". ولذلك يُقال: آمن له. كما يُقال: أقررت له، فكان تفسير الإيمان بلفظ الإقرار أقرب من تفسيره بلفظ التصديق، مع أن بينهما فرقًا.

وقال أيضًا -رحمه الله: "ومعلوم أنّ الإيمان هو الإقرار لا مجرد التصديق، والإقرار ضُمِّن قول القلب الذي هو التصديق، وعَمَل القَلْب الذي هو الانقياد، وقال أيضًا: والمقصود هنا أن لفظ الإيمان إنما يُستعمل في بعض الأخبار، وهو مأخوذ من الأمن؛ كما أن الإقرار مأخوذ من قَرّ، فالمؤمن صاحب أمنٍ كما أن المُقر صاحب إقرار، فلا بد في ذلك من عمل القلب بموجب تصديقه، فإذا كان عالمًا بأن محمدًا ﷺ رسول الله، ولم يقترن بذلك حبه وتعظيمه؛ بل كان يبغضه ويحسده ويستكبر عن اتباعه، فإن هذا ليس بمؤمن به، بل كافر به.

وقال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله تبارك وتعالى: "ولهذا لو فُسِّر الإيمان بالإقرار؛ لكان أجود، فنقول: الإيمان الإقرار، ولا إقرار إلا بتصديق، فنقول: أقَرّ به، كما نقول: آمن به، وأقر له كما نقول: آمن له، هذا في اللغة".

ب- تعريف الإيمان شرعًا:

الإيمان في الشرع: حَقيقةٌ مركبة من القول والعمل؛ قول القلب وقول اللسان، وعمل القلب وعمل الجوارح. قال الإمام ابن القيم -رحمه الله تبارك وتعالى: "وههنا أصلٌ آخر، وهو أن حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل، والقول قسمان: قول القلب وهو الاعتقاد، وقول اللسان وهو التكلُّم بكلمة الإسلام. والعمل قسمان: عمل القلب وهو نيته وإخلاصه، وعمل الجوارح".

وقال شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية -رحمه الله تبارك وتعالى: "ومن أصول أهل السنة والجماعة: أن الدين والإيمان قول وعمل؛ قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح". وقد حكى غير واحد إجماع أهل السنة على ذلك، وهذا الإجماع مُستنده عشرات النصوص من كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ.

ومن أقوال أئمتنا في هذا: ما جاء عن الإمام الشافعي -رحمه الله تبارك وتعالى- أنه قال: "وكان الإجماع من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ومن أدركناهم يقولون: الإيمان قول، وعمل، ونية، لا يُجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر".

وقال الإمام البخاري -رحمه الله تبارك وتعالى: "لقيت أكثر من ألف رجل من أهل العلم؛ أهل الحجاز ومكة، والمدينة، والكوفة، والبصرة، وواسط، وبغداد والشام، ومصر، لقيتهم كرات -يعني: مرات- قرنًا بعد قرن -أي: طبقة بعد طبقة- أدركتهم وهم متوافرون منذ أكثر من ست وأربعين سنة، أهل الشام ومصر والجزيرة مرتين، والبصرة أربع مرات في سنين ذوي عدد، وسرد أسماء خمسة وأربعين رجلًا، ثم قال: واكتفينا بتسمية هؤلاء كي يكون مختصرًا وألا يطول ذلك، فما رأيت واحدًا منهم يختلف في هذه الأشياء، أنّ الدّين قولٌ

وعَمل، وذلك لقول الله -تبارك وتعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥]".

وقال الإمام البخاري -رحمه الله تبارك وتعالى- أيضًا: "كتبتُ عن ألف نفر من العلماء وزيادة، ولم أكتب إلا عمن قال: الإيمان قول وعمل، ولم أكتب عمن قال: الإيمان قول". ويُفهم من كلام الإمام البخاري هذا أن مجموعة كبيرة من العلماء يتجاوزون الألف، والإمام البخاري -رحمه الله- كان في خير القرون؛ في القرن الثالث الهجري، وجميع هؤلاء كانوا يقولون بأن الإيمان قول وعمل.

وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام -رحمه الله تبارك وتعالى: "هذه تسمية من كان يقول: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص وسمى ثلاثة وثلاثين ومائة عالمًا"، ثم قال: "هؤلاء كلهم يقولون الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، وهو قول أهل السُنَّة والمعمول به عندنا وبالله التوفيق".

وقال الإمام عالم المغرب -رحمه الله- الإمام ابن عبد البر قال: "أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل، ولا عمل إلا بنية، والإيمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، والطاعات كلها عندهم إيمان؛ إلا ما ذُكر عن أبي حنيفة وأصحابه، فإنّهم ذهبوا إلى أن الطاعات لا تُسمى إيمانًا، فقالوا: إنّ الإيمان التصديق والإقرار، ومنهم من زاد: والمعرفة".

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله: "ولهذا كان القول: إن الإيمان قول وعمل عند أهل السنة من شعائر السنة". وحكى غير واحد الإجماع على ذلك، وقد ذكرنا عن الإمام الشافعي -رحمه الله- ما ذكره من الإجماع على ذلك، ومن هذا ما قاله في كتابه (الأم)، وقد سبق أن ذكرته، ولكن الإمام ابن تيمية أيضًا نقله في (مجموع الفتاوى) ثم قال: "وقد حكى غير واحد إجماع أهل السنة والحديث على أن الإيمان قول وعمل".

وقال: وروى أبو عمر الطلمنكي بإسناده المعروف عن موسى بن هارون الحمَّال قال: "أملى علينا إسحاق بن راهويه: أنّ الإيمانَ قول وعمل"، يزيد وينقص لا شك أن ذلك كما وصفنا، وإنما عقلنا هذا بالروايات الصحيحة والآثار العامة المحكمة، وآحاد أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين، وهلمَّ جرًّا على ذلك. وكذلك بعض التابعين من أهل العلم على شيء واحد لا يختلفون فيه، وكذلك في عهد الأوزاعي بالشام، وسُفيان الثّوري بالعراق، ومالك بن أنس بالحجاز، ومعمر باليمن على ما فسرنا وبيَّنَّا أنّ الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص.

هذا ما أجمع عليه أهل السنة، وهو: "أنّ الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص" إلا أن منهم من أضاف ونية، أو واتباع للسنة، ومنهم من قال: "قول باللسان واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان". وليس في ذلك اختلاف معنوي، وإنما هو زيادة إيضاح وبيان.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تبارك وتعالى: "والمأثور عن الصحابة وأئمة التابعين وجمهور السلف، وهو مذهب أهل الحديث، وهو المنسوب إلى أهل السنة: أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وأنه يجوز الاستثناء فيه كما قال عمير بن حبيب الخطمي وغيره من الصحابة، الإيمان يزيد وينقص، فقيل له: وما زيادته ونقصانه؟ فقال: إذا ذكرنا الله وحمدناه وسبحناه؛ فتلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا، فذلك نقصانه فهذه الألفاظ المأثورة عن جمهورهم".

بهذه النقول يتبيَّن أن مفهوم الإيمان عند أهل السنة والجماعة أنه اعتقاد بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح والأركان، وأن من ذهب من أهل اللغة إلى أن الإيمان هو التصديق فحسب؛ فلم ينظر إلى أن الشارع الكريم قد ضمَّ إلى هذا

التصديق ما جاء به نبينا ﷺ من شرائع.كما أن الإيمان في اللغة لا يُقال له التصديق فحسب.وأن أولى أو أقرب ما يُعرف به الإيمان في اللغة أنه هو الإقرار.

ج- ما بين الإيمان والإسلام من ترادف أو تغاير:

هل يُسمَّى المؤمن بالمسلم؟ وهل يُسمى المسلم بالمؤمن؟ وهل الإيمان والإسلام اسمان لمسمًّى واحد ومعنًى واحد، أو لمسميين ومعنيين مختلفين؟ هذا ما أودُّ أن أبينه، وهو معنى ما قلت: بأن الإيمان والإسلام هل بينهما ترادف أو تغاير أم لا، لبيان هذه الحقيقة وتجليتها أذكر أقوال أهل العلم في ذلك:

قال الإمام أبو محمد بن حزم -رحمه الله تبارك وتعالى: :"ذَهب قوم إلى أن الإسلام والإيمان اسمان واقعان على معنيين، وأنه قد يكون مسلم غير مؤمن"، واحتجوا بقول الله ﷻ: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤]. وبالحديث المأثور عن رسول الله ﷺ إذ قال له سعد: هل لك يا رسول الله ﷺ في فلان فإنه مؤمن. فقال له رسول الله ﷺ: ((أو مسلم)). وبالحديث المأثور عن رسول الله ﷺ إذ أتاه جبريل في صورة فتًى ولم يعرفه أحد من الحاضرين إلا النبي ﷺ، فسأله عن الإسلام، فأجابه بأشياء في جملتها: أنه ((إقام الصلاة وإيتاء الزكاة)):، وأعمالٌ أخرى مذكورة في هذا الحديث الذي قد ثبت عن النبي ﷺ، كما سأله أيضًا عن الإيمان فأجابه بأشياء من جملتها ((أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله)): إلى أخره.

وذهب آخرون: إلى أن الإيمان والإسلام لفظان مترادفان على معنًى واحد، واحتجَّ هؤلاء بقول الله -تبارك وتعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات ٣٥، ٣٦]. وبقوله تعالى: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧].

وبعد هذا العرض، قال الإمام ابن حزم -رحمه الله تعالى: "والذي نقول به وبالله تعالى التوفيق: أن الإيمان أصله في اللغة التصديق على الصفة التي ذكرنا من قبل، ثم أوقعه الله عز وجل في الشريعة على جميع الطاعات واجتناب المعاصي، إذا قصد بكل ذلك من عملٍ أو تركٍ وجهَ رب العالمين تبارك وتعالى جل في علاه، وأنّ الإسلام أصله في اللغة التبرُّؤ، تقول: أسلمت أمر كذا إلى فلانٍ إذا تبرأت إليه؛ فسُمي المسلم مسلمًا؛ لأنه تبرأ من كل شيء إلى الله عز وجل".

ثم نقل الله -تعالى- اسم الإسلام أيضًا إلى جميع الطاعات، وأيضًا؛ فإن التبرؤ إلى الله من كل شيء هو معنى التصديق؛ لأنه لا يبرأ إلى الله تعالى من كل شيء حتى يُصدِّق به، فإذا أُريد بالاسم هذا المعنى الذي هو خلاف الكفر وخلاف الفسق؛ فهو والإيمان شيء واحد، كما قال الله تعالى: ﴿لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ﴾ [الحجرات: ١٧].

وقد يكونُ الإسلامُ أيضًا بمعنى: الاستِسلام، أي: أنه استسلم للملة خوف القتل، وهو غيرُ مُعتَقِد لها؛ فإذا أُريد بالإسلام هذا المعنى؛ فهو غيرُ الإيمان، وهو الذي أراده الله تعالى في قوله: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

وبهذا تتآلف النصوص المذكورة من القرآن والسنة وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا يدخل الجنة إلا نفسٌ مسلمة))، فهذا هو الإسلام الذي هو الإيمان؛ فصَحّ أن الإسلام لفظة مشتركة كما ذكرنا. هذا كلام الإمام ابن حزم -رحمه الله.

أما شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- الذي وضح هذه المسألة العظيمة في كتابه (الإيمان) في كلمات دقيقة، قال فيها: "في حديث جبريل جعل النبي صلى الله عليه وسلم الدين ثلاث

درجات: أعلاها الإحسان، وأوسطها الإيمان، ويليها الإسلام. فكل محسن مؤمن، وكل مؤمن مسلم. وليس كل مؤمن محسنًا، ولا كل مسلم مؤمنًا".

هكذا قال. ثم ذكر حديثًا جاء فيه: ((أيُّ الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان، قال: ما الإيمان؟))، ثم ذكر الحديث بعد ذلك، وما ذكره في الحقيقة أمور فيها شيء من الأعمال. ثم ذكر الإمام -رحمه الله- بعد ذلك مجموعة من الأحاديث ومجموعة من الآيات التي ذُكر فيها اسم الإيمان مفردًا ومقرونًا باسم الإسلام، ومقرونًا بالأعمال الصالحة، ثم قال: فلما ذكر الله الإيمان مع الإسلام، جعل الإسلام هو الأعمال الظاهرة، وهي الشهادتان والصلاة، والزكاة، والصيام، والحَجّ، وجعل الإيمان ما في القلب من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

فإذا ذُكر اسم الإيمان مجردًا دخل فيه الإسلام، كما تدخل فيه الأعمال الصالحة، كقوله ﷺ في حَدِيثِ شُعب الإيمان: ((الإيمانُ بضع وسبعون درجة، أعلاها: قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق))، وهذه الشُّعب شعبٌ متفاوتة، منها: ما يَدخُل في الإيمان المراد به التصديق القلبي، ومنها ما يقوم به الإنسان بعمل قلبي أو بلسانه أو بجوارحه.

وقد قال النبي ﷺ عن كل ذلك بأنه إيمان، فقال في أول الحديث: ((الإيمان بضع وسبعون درجة))، ثم ذكر من الإيمان: إماطة الأذى عن الطريق. وكذلك سائر الأحاديث التي يجعل فيها أعمال البر من الإيمان، وإذا ذُكر اسم الإسلام: مجردًا دخل فيه: الإيمان ضمنًا، فهما اسمان إذا افترقا اجتمعا، وإذا اجتمعا افترقا. فعند اجتماعهما يكون معنى الإيمان هو: التصديق الباطني، ومعنى الإسلام هو: الانقياد الظّاهري. أما عند تفرُّقهما يعني: أن يُذكر كل واحد منهما مفردًا عن الآخر؛ فإنه في الحَقيقة يكون لكل واحد منهما معنى.

ولكن أيهما يسبق الآخر؟ وأيهما أفضل من الآخر؟ إن قلنا: إن الإيمان يسبق الإسلام، فالآية تُخالف ذلك قال الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، وإن قلنا: الإسلام يسبق الإيمان؛ فمعناه الامتثال الظاهري بدون الانقياد القلبي، وهذا هو النفاق؛ لأنه إظهار الإسلام مع عدم التصديق القلبي.

ولذلك فصَّل شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تبارك وتعالى- هذا الأمر فقال: لا تصح الطاعة من أحد إلا مع الإيمان؛ فيمتنعُ أن يكونَ أحدٌ فعل شيئًا من الإسلام إلا وهو مؤمن، ولو كان ذلك أدنى الطاعات، أو فعل واحدة منها، وذلك لا يصح كله إلا مع الإيمان، فلا بد وأن يسبق الإيمان الإسلام في صورته الأولى، المتمثِّلة في التصديق القلبي؛ فيكون بمثابة الدخول على الطاعات والأعمال الصالحة، والتشريعات الإسلامية، فهذا يُسمى مطلق الإيمان، فإذا كان القلب صالحًا بما فيه من الإيمان علمًا وعملًا قلبيًّا، وأُلزم الجسد بالقول الظاهر، والعمل بأحكام الإسلام؛ وصل إلى درجة الإيمان المطلق أو الإيمان الحق، كما قال رب العالمين سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال ٢ : ٤]".

فهذا هو الإيمان المطلق الذي نفاه الله ﷻ عن الأعراب، وإن كانوا مسلمين معهم من الإيمان ما يُثابون عليه -أي: مطلق الإيمان، وهذا حال أكثر الداخلين في الإسلام ابتداءً، بل حال أكثر من لم يعرف حقائق الإيمان، إلى أن يصل إلى حقيقة الإيمان باجتهاده على نفسه في الطاعات، ويقينه الذي لا يعتريه شكٌّ أو ارتياب، مع المُجَاهدة في سبيل الله بالمال والنفس، كما قال الله -تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وهذا الإيمان -أي: الإيمان المطلق- لا شَكّ أنه أفضل من الإسلام، وهو بين الإسلام والإحسان، وهذا هو الذي قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله: "كل مؤمن مسلم، وكل محسن مؤمن، وليس كل مسلم مؤمنًا، ولا كل مؤمن محسنًا". وهذا الإيمان هو الذي نفاه الله ﷻ عن الأعراب، ونفاه النبي ﷺ عن الرجل كما في حديث سعد السابق: "هل لك يا رسول الله ﷺ في فلان فإنه مؤمن فقال رسول الله ﷺ: ((أو مسلم))".

واسم الإسلام يتناولُ أيضًا ما هو أصل الإيمان، وهو التَّصديق ويتناول أصل الطاعات، فإن ذلك كله استسلام.

والحاصل: أنّ الإسلام والإيمان كلمتان إذا افترقا اجتمعا، وإذا اجتمعا افترقا، فإذا قيل: الإسلام؛ فلا بد أن يكون معه إيمان، فلا يوجد عمل يقوم به الإنسان بجوارحه، إلا إذا كان قد آمن وصدَّق بقلبه، كما أنه أيضًا لا يكون إيمان صحيح إلا بأعمال صحيحة، وإذا اجتمعا فُسِّر الإسلام بالأعمال الظاهرة؛ وفُسر الإيمان بالأعمال القلبية، كما وقع ذلك في حديث جبريل # ، وهذا أعتقد في غاية من الوضوح.

مفهوم الكفر لغة واصطلاحًا

أ- تعريف الكفر لغةً: الكفر لغة: الستر والتغطية. قال أبو عبيد -رحمه الله تبارك وتعالى: "وأمّا الكافِرُ فيُقال -والله أعلم: إنما سُمي كافرًا؛ لأنه متكفرٌ به، كالمتكفر بالسلاح، وهو الذي قد أُلبسه السلاح حتى غطَّى كل شيء منه، وكذلك غطى الكفر قلب الكافر، ولهذا قيل لليل كافر لأنه أُلبس كل شيء، ويُقال: الكافر سُمِّي بذلك للجحود، كما يُقال: كافرني فلان حقي: إذا جحده حقه".

وقال الإمام ابن قتيبة -رحمه الله: "أما الكافر فهو من قولك: كفرت الشيء إذا غطيته، ومنه يُقال: تَكَفَّر فُلانٌ في السلاح إذا لبسه"، وقال بعضهم: ومنه كافور النخل، وهو قشر الطلعة، تقديره فاعول، ومنه قيل: ليل كافر؛ لأنه يستر كل شيء. قال لبيد وقد ذكر الشمس:

حتى إذا ألقت يدًا في كافر ❖ وأجنَّ عورات الثغور ظلامها

قوله: "ألقت يدًا في كافري" أي: دخل أولها في الغور، وهو مِثلُ قول الآخر يصف ظليمًا أو نعامة:

فتذكرا ثقلًا رشيدًا بعدما ❖ ألقت ذُكاء يمينها في كافر

وذُكاء هي الشمس، ومنه يُقال للصبح: ابن ذُكاء، لأن ضوءه من الشمس؛ فكأن الأصل في قولهم: كافر، أي: ساترٌ لنعم الله عليه. وكان بعض المحدثين يذهب في قول رسول الله ﷺ: ((لا تَرجعوا بعدي كفَّارًا يضرب بعضكم رقاب بعض)) إلى التكفر في السلاح، يُريد ترجعوا بعد الولاية أعداء يتكفر بعضكم لبعض في الحرب.

وقال الأزهري -رحمه الله: "وقال الليث: يُقال إنما سُمي الكافر كافرًا؛ لأن الكفر غطَّى قلبه كله"، قال الأزهري -رحمه الله- معلقًا على قول الليث هذا: "قيل له كافر: لأن الكفر غطى قلبه، أو أن الكفر في اللغة معناه التغطية، والكافر ذو كفر أي: ذو تغطية لقلبه بكفره، كما يُقال للابس السلاح كافر، وهو الذي غطاه السلاح، ومثله رجل كاسٍ ذو كسوةٍ، وماء دافق ذو دفق".

وفيه قول آخر وهو أحسن مما ذهب إليه الليث: وذلك أن الكافر لما دعاه الله سبحانه وتعالى إلى توحيده، فقد دعاه إلى نعمة يُنعم بها عليه إذا قبلها، فلما ردّ ما دعاه الله -

تبارك وتعالى- إليه من توحيده، كان كافرًا نعمة الله عليه أي: مغطيًا لها بإبائه حاجبًا لها عنه.

قال أيضًا الأزهري -رحمه الله: "وأخْبرني المُنذري عن الحراني، عن ابن السكيت أنه قال: إذا لبس الرجل فوق درعه ثوبًا؛ فهو كافر". وقد كفر فوق درعه قال: وكل ما غطى شيئًا، فقد كفره. ومنه قيل لليل كافر؛ لأنه ستر بظلمته كل شيء وغطاه، قال: ومنه سُمي الكافر كافرًا؛ لأنه ستر نعم الله عليه.

قال الأزهري -رحمه الله- معلقًا على كلام ابن السكيت هذا: "ونعم الله -جل وعز- آياته الدالة على توحيده، والعربُ تقول للزارع: كافر؛ لأنه يكفُر البذر المبذور في الأرض بتراب الأرض التي أثارها، ومنه قول الله -جل ذكره: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الحديد: ٢٠] أي: أعجب الزُّراع نباته، ما علمهم به فهو غاية ما يُستحسن، والغيث ها هنا المطر". إذًا الكفر باختصار يأتي بمعنى الستر والتغطية وكلام أئمة اللغة تؤيد هذا القول.

ب- تعريف الكفر شرعًا:

الكفر شرعًا: ضدُّ الإيمان؛ فيكون أيضًا بناءً على ذلك قولًا وعملًا واعتقادًا وتركًا، كما أنّ الإيمان قول وعمل واعتقاد، كما بينتُ ذلك آنفًا، وهذا أيضًا مما اتفق عليه أهل السنة والجماعة، خلافًا لمن حصر الكفر في التكذيب أو الجحود بالقلب، أو بالقلب واللسان، ونفى أن يكون الكُفر بالعمل أو بالترك.

وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تبارك وتعالى: "الكفر عدم الإيمان بالله ورسوله، سواء كان معه تكذيب أو لم يكن معه تكذيب، بل شكٌّ

وريب، أو إعراض عن هذا حسدًا أو كبرًا، أو اتباعًا لبعض الأهواء الصارفة عن اتباع الرسالة".

وقال الإمام ابن حزم -رحمه الله- أيضًا عن الكفر: "وهو في الدين صفة من جحد شيئًا مما افترض الله تعالى الإيمان به، بعد قيام الحجة عليه ببلوغ الحق إليه، بقلبه دون لسانه، أو بلسانه دون قلبه، أو بهما معًا، أو عَمِل عملًا جاء النص بأنه مخرِج له بذلك: عن اسم الإيمان". وكلام الإمام ابن: حزم -رحمه الله- دقيق للغاية؛ إذ بيَّن أنّ الكفر كما يكون بالقلب يكون باللسان أيضًا، وبترك العمل.

وقال الإمام إسحاق بن راهويه -رحمه الله تبارك وتعالى: "ومما أجمعوا على تكفيره، وحكموا عليه كما حكموا على الجاحد؛ فالمؤمن الذي آمن بالله تعالى، وبما جاء من عنده سبحانه، ثم قتل نبيًّا، أو أعان على قتله، ويقول: قتل الأنبياء محرم فهو كافر. فلو جاء إنسان مثلًا وقال: بأنني أؤمن بالله تعالى، وأؤمن بما جاء النبي ﷺ، ولكني لو رأيت نبيًّا قتله، وأعنت على قتله، هل نعتبر ما قاله بلسانه، أو ما ظن أنه قام في قلبه أنه بهذا من أهل الإيمان؟ لا يُمكن أن يكون هذا أبدًا".

وقال البربهاري -رحمه الله: "ولا يخرجُ أحد من أهل القبلة من الإسلام حتى يردَّ آية من كتاب الله ﷻ، أو يردّ شيئًا من آثار رسول الله ﷺ، أو يذبحَ لغير الله، أو يُصلي لغير الله، وإذا فعل شيئًا من ذلك؛ فقد وجب عليك أن تخرجه من الإسلام".

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله: "فمن قال بلسانه كلمة الكفر من غير حاجة، عامدًا لها، عالمًا بأنها كلمة الكفر؛ فإنه يكفر بذلك ظاهرًا وباطنًا، ولا

يجوز أن يُقال: إنه في الباطن يجوز أن يكون مؤمنًا، ومن قال ذلك فقد مرق من الإسلام. وقال: إن سَبَّ الله أو سب رسوله ﷺ كفر ظاهرًا وباطنًا، سواء كان الساب يعتقد أن ذلك محرم، أو كان مستحلًّا له، أو كان: ذاهلًا عن اعتقاده، وهذا مذهب الفقهاء وسائر أهل السنة القائلين بأن الإيمان قول وعمل".

وقال أيضًا: "فمن صدَّق الرسول ﷺ وأبغضه وعاداه بقلبه وبدنه، فهو كافر قطعًا بالضرورة".

وقال الإمام ابن القيم -رحمه الله: "وكذلك شُعب الكفر القولية والفعلية؛ فكما يكفر بالإتيان بكلمة الكفر اختيارًا، وهي شعبة من شعب الكفر؛ فكذلك يكفر بفعل شعبة من شعبه، كالسجود للصنم والاستهانة بالمصحف؛ فهذا أصلٌ، ومع كل ذلك فأهل السنة والجماعة لا يُكفِّرون المؤمن المرتكب للكبيرة، مع إيمانه الصحيح"، وهذا له تفصيل آخر.

تابع مفاهيم يجب الوقوف عندها

عناصر الدرس

العنـــــــــــــصر الأول : أنواع الكفر وأقسامه ٤٥
العنــــــصر الثـــــاني : خطورة التكفير وبيان أن الرجل قد يجتمع فيه كفر وإيمان ٥٣

أنـــواع الكفـــر وأقـــسامه

قد تكلمت عن بعض المفاهيم التي يجب على طالب العلم أن يعلمها، وهذا الدرس تابع لما سبق ذكره:

أ- أنواع الكفر الأكبر: لا شكّ أن الكفر ينقسم إلى قسمين كما هو معلوم: ينقسم إلى أكبر وإلى أصغر: الكفر الأكبر ينقسم باعتبار بواعثه الدافعة إليه إلى خمسة أقسام؛ وقد بينها الإمام الحافظ ابن القيم -رحمه الله تبارك وتعالى- بقوله: "وأما الكفر الأكبر فخمسة أنواع: كفر تكذيب، وكفر استكبار وإباء مع التصديق، وكفر إعراضٍ وكفر شك، وكفر نفاق".

فأما كُفر التكذيب فهو: اعتقاد كذب الرسل، وهذا القسم قليل في الكفار؛ لأن الله -تبارك وتعالى- أيّد رُسله، وأعطاهم من البراهين والآيات الدالة على صدقهم ما أقام به الحجة، وأزال به المعذرة على أعدائهم، وفي ذلك يقول رب العالمين ﷻ مخبرًا عن فِرْعَونَ وقومه، مُبينًا أنهم أدركوا صدق موسى # ولكنّهم كذبوا برسالته قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤].

وقال الله ﷻ أيضًا في كتابه، موجهًا الخطاب إلى النبي ﷺ: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣]. وإن سُمي هذا كفر تكذيبًا أيضًا فصحيح؛ إذ هو تكذيب باللسان، فهم وان استيقنت قلوبهم بصدق الرسل؛ إلا أنّهم صَرّحوا بألسنتهم بأن هؤلاء الذين أرسلهم رب العالمين كاذبون، وليسوا بصادقين.

أما النوع الثاني من أنواع الكفر الأكبر؛ فهو: كُفر الإباء والاستكبار؛ وذلك ككفر إبليس، فإنه لم يجحد أمر الله -تبارك وتعالى- الموجه إليه، ولا قابل أمر

الله بالإنكار، وإنما تَلقّاه بالإباء والاستكبار، ومن هذا كفر من عرف صدق الرسول ﷺ وأنه جاء بالحق من عند ربه سبحانه، إلا أنه لم ينقد له إباءً واستكبارًا. وهذا في الحقيقة هو الغالب على كفر أعداء الرسل، كما حكى الله تعالى عن فرعون وقومه أنهم قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧].

كما قالت الأمم أيضًا لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، وقال ﷻ عن قوم ثمود مبينًا كفر الإباء والاستكبار عندهم: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾، وهو أيضًا عين كفر اليهود كما قال الله -تبارك وتعالى- عنهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ [البقرة: ٨٩]، فهؤلاء أثبت القرآن الكريم لهم أنهم عرفوا صدق رسالة النبي ﷺ ولكن الاستكبار والإباء كان هو النموذج الذي سلكوه، وقال الله أيضًا عنهم: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦].

فاليهود وأيضًا النصارى كذلك يعرفون النبي ﷺ معرفة سليمة صحيحة، لا توجد عندها شبهة أو شك؛ ومع ذلك فقد كفروا به، ومن هنا كان الكفر الواقع منهم هو كفر الإباء والاستكبار، وهو كفر أبي طالب أيضًا؛ لأن أبا طالب صَدّق النبي ﷺ ولم يكن عنده شكٌّ في صدقه، ولكن أخذته الحمية وتعظيم آبائه أن يرغب عن ملتهم، ويشهد عليهم بالكفر.

أما القسم الثالث من أقسام الكفر الأكبر، فهو: كفر الإعراض، وذلك أن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول ﷺ لا يُصدّقه ولا يُكذبه، ولا يواليه ولا يعاديه، ولا يصغي إلى ما جاء به البتة كما قال أحد بني عبد يا ليل للنبي ﷺ: "والله، أقول لك كلمة: إن كنت صادقًا فأنت أجلُّ في عيني من أردَّ عليك، وإن كنت كاذبًا فأنت أحقر من أن أكلمك". فهؤلاء لم يُكلفوا أنفسهم أن ينظروا فيما جاء به النبي ﷺ ولكنهم أعرضوا بسمعهم وقلبهم عن تأمُّل ما جاء به، ومن هُنا أطلق على كفرهم كفر الإعراض.

أما النوع الرابع من أنواع الكفر: فهو كُفر الشّك، وذلك عندما يكون الإنسان غير جازم بصدقه ولا بكذبه؛ بل يقعُ منه الشك في أمره، وغالب هؤلاء أن الشك لا يستمر عندهم، إلا إذا ألزم الواحد منهم نفسه: الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول ﷺ جملة؛ فلا يَسمعُها ولا يلتفت إليها، وأما مع التفاته إليها، ونظره فيها؛ فإنه لا يبقى معه شكٌّ؛ لأنها مستلزمة للصدق، ولا سيما بمجموعها؛ فإن دلالتها على الصدق كدلالة الشمس على النهار، وأما كفر النِّفاق فهو أن يُظهر بلسانه الإيمان، وينطوي بقلبه على التكذيب؛ فهذا هو النفاق الأكبر. وسيأتي عنه حديث إن شاء الله -تبارك وتعالى.

كما ذكر الإمام ابن القيم أيضًا -رحمه الله تبارك وتعالى- كلامًا حول هذا قال فيه: "وقد بيَّن القرآن الكريم أن الكفر أقسام:

أحدها: كُفرٌ صادر عن جهل وضلال، وتقليد الأسلاف، وهو كفر أكثر الأتباع والعوام.

الثاني: كُفر جحود وعناد، وقصد مُخالفة الحقّ كَكُفر من تقدم ذكره، وغالب ما يقع هذا النوع فيمن له رياسة علمية في قومه من الكفار، أو رياسة سلطانية، أو من له مأكل وأموال في قومه؛ فيخاف هذا على رياسته، وهذا على ماله ومأكله، فيؤثر الكفر عن الإيمان عمدًا، وهذا قد وقع كثيرًا في التاريخ الإنساني، أن خاف بعض الناس على ما يأتي إليهم من أموالٍ، أو خاف الواحد منهم على ما عنده من زعامة ورياسة، ومن هنا جحد وعاند وخالف الحق.

قال في الثالث: كُفر إعراض محض، وهذا هو الذي لا ينظر فيما جاء به الرسول ﷺ ولا يحبه ولا يبغضه، ولا يواليه ولا يعاديه، بل هو معرض عن متابعته ومعاداته، وهذان القسمان أكثر المتكلمين ينكرونهما، ولا يثبتون من الكفر إلا الأول.

ويجعلون الثاني والثالث كفرًا؛ لدلالته على الأول، لا لأنه في ذاته كفر؛ فليس عندهم الكفر إلا مجرد الجهل، ومن تَأمّل القُرآن والسّنة، وسِيرَ الأنبياءِ في أممهم ودعوتهم لهم، وما جَرى لهم معهم؛ جزم بخطأ أهل الكلام فيما قالوه، وعلم أن عامة كفر الأمم عن تيقن وعلم، ومعرفة بصدق أنبيائهم وصحة دعواهم، وما جاءوا به، وهذا القرآن الكريم مملوء من الإخبار عن المشركين عُبَّاد الأصنام، أنهم كانوا يقرون بالله، وأنه هو وحده ربهم وخالقهم، وأن الأرض وما فيها له وحده، وأنه رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، وأنه بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، وأنه هو الذي سخر الشمس والقمر، وأنزل المطر وأخرج النبات.

والقرآن الكريم منادٍ عليهم بذلك؛ محتجٌّ بما أقروا به من ذلك على صحة ما دعتهم إليه رسله؛ فكيف يقال بعد هذا: إنّ القَومَ لم يكونوا مقرين قط بأن لهم ربًّا وخالقًا، وهذا بهتان عظيم؛ فالكفر أمر وراء مُجَرّد الجهل، بل الكفر الأغلظ هو ما أنكره هؤلاء وزعموا أنه ليس بكفر". وهذا الكلام من الإمام رحمه الله - تبارك وتعالى- هو بمثابة التوضيح للأقسام الخمسة التي سبق ذكرها، ولا يتعارض ما ذكرته هنا من كلام أخير له، مع ما سبق من قاله؛ ولكنه توضيح لما سبق أن قرره -رحمه الله تبارك وتعالى-.

ضابطُ الكفر الأصغر:

تعريفُ الكفر الأصغر: هو كل ذنب سَمّاه الشّارعُ كفرًا مع ثبوت إسلام فاعله بالنص أو بالإجماع؛ وذلك كارتكاب الكبائر، التي أطلق الشارع عليها اسم الكفر، غير أنها لا تخرج صاحبها -إن كان من أهل الإسلام، ودخل الإسلام

قلبه بيقين- إلى الكفر، ومن ذلك مثلًا: ما جاء في قول النبي ﷺ: ((أيما امرئ قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما، إن كان كما قال؛ وإلا رجعت عليه)). فنُلاحظ هُنا أن الله -تبارك وتعالى- سَمّاه أخًا للقائل حين القول، وقد أخبر أنّ أحدهما باء بها؛ فلو خرج أحدهما عن الإسلام بالكلية لم يكن أخاه، بل فيه كفرٌ غير أن هذا الكفر لا شك كما سبق أن قلت: من الكفر الأصغر وليس من الكفر الأكبر.

ومن ألفاظ الكفر أيضًا: التي وردتْ على بعض المعاصي والكبائر، التي لا يخرج من فعلها من الإسلام: الطّعنُ في الأنساب، والنّياحة على الميت، وقِتَالُ المُسلم للمسلم، والحلف بغير الله -تبارك وتعالى- فقد ورد مثلًا عن النبي ﷺ أنه قال: ((اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت))، وقال ﷺ: ((سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر))، وقال ﷺ: ((لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض))، وقال أيضًا: ((من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)).

فلفظُ الكفر الوارد في هذه الأحاديث محمولٌ -كما ذهب أهل السنة إلى ذلك- على الكفر الأصغر، ومما يَدُلّ على ذلك في شأن الطعن في الأنساب، والنّياحة على الميت: ما رواه مسلم في صحيحه عن أبي مالك الأشعري > أنّ النّبي ﷺ قال: ((أربعٌ في أُمّتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخرُ في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة))، وقال: ((النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب)) ورواه الترمذي بلفظ ((لن يدعهن الناس)). وعند أحمد: ((ليسوا بتاركيهن)).

فإخباره ﷺ بأنّ هذه الأعمال باقية في أمته لا يتركونها، دليل على أنها من الكفر الذي لا يُخرج عن الملة، ولا يسلبُ فاعلها شرف انتسابه إلى أمة النبي ﷺ لقوله ﷺ: ((أربع في أمتي من أمر الجاهلية)).

وأيضًا فالنبي ﷺ ثبت عنه أنه قال لأبي ذر > ، وهو صحابي جليل من صحابة ﷺ، قال له ﷺ: ((إنك امرؤ فيكَ جَاهِلِيّة)) وكونُه فيه جاهلية لا يَخْرُج بذلك عن الإسلام؛ بل هو من خيارٍ أهل الإيمان > . كما دَلّ الدليل أيضًا من كتاب الله ﷻ على أن قتال المسلم للمسلم لا يُخرج من الملة، رغم أن النبي ﷺ قال: ((سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)). فلفظ الكفر هنا مراد به الكفر الأصغر، الذي لا يخرج الإنسان به من الملة إن: وقع في شيء من ذلك.

وقد دلَّ القرآن الكريم على هذا كما في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات: ٩]، وقال جل في عُلاه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٨]. فأثبت هنا الأخوة الإيمانية للمُتَقاتِلين؛ فَدَلّ على أن القتل والقتال ليسا من الكفر الذي ينقل عن الملة؛ لأن الله -تبارك وتعالى- في الآية الأولى قال: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ فأطلق عليهم أسم الإيمان مع أنهم قد وقعوا في الاقتتال؛ كما أنه ﷻ في الآية الثانية قال: ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ ﴾ فسمى القاتل أخ للمقتول، ولا شك أن المراد بذلك هو أخوة الدين بلا ريب؛ فدل ذلك على أن الاقتتال الواقع بين أهل الإيمان لا يُخرج من الملة، وتُحمل الأحاديث التي ورد فيها إطلاق لفظ الكفر على أنه هو الكفر الأصغر.

أما في شأن الحَلِف بغير الله الذي سبق أن ذكرت حديثه، وهو في الترمذي، والذي قال فيه النبي ﷺ: ((من حلف بغير الله؛ فقد كفر أو أشرك)) هذا الحديث أخرجه الترمذي، وقال رحمه الله -تبارك وتعالى- في سننه بعد ذكره لهذا الحديث: قال أبو عيسى: هذا حديث حسن، وفُسّر هذا الحديث عند بعض أهل العلم أنّ قوله ﷺ: ((فقد كفر، أو أشرك)) على التغليظ، والحُجّة في ذلك: حديثُ ابن عمر أن النبي ﷺ سَمِعَ عُمر بن الخطاب > يقول: وأبي وأمي؛ فقال ﷺ: ((ألا إنّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم)).

وحديث أبي هريرة > عن النبي ﷺ أنه قال: ((من قال في حلفه: واللآت والعزى فليقل: لا إله إلا الله)). قال أبو عيسى -رحمه الله- هذا مثل ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: ((إن الرياء شرك))، ومعلوم أن يسير الرياء الذي هو من الشرك، لا يخرج العبد به من الإسلام؛ فكذلك لا يَخرجُ بالحَلِفِ بغير الله؛ وإن كان كبيرة من الكبائر لا يخرج به عن الإيمان.

وقَد بَيّن هذا المعنى الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام -رحمه الله تبارك وتعالى- فقال: "وأما الآثار المرويات بذكر الكفر والشرك، ووجوبهما بالمعاصي؛ فإن معناها عندنا ليست تُثبت على أهلها كفرًا ولا شركًا، يُزيلان الإيمان عن صاحبه؛ إنما وجوهها أنها من الأخلاق والسنن التي عليها الكفار والمشركون". ثم قال -رحمه الله: "والأصل الذي اعتمده أهلُ السُّنة في هذا الباب: أنّ الرَّجُل قد يَجْتَمِعُ فيه كفر وإيمان، وشركٌ وتوحيد، وتقوى وفجور، ونفاق وإيمان، وهذا من أعظم أصول أهل السنة، وخالفهم فيه غيرهم من أهل البدع كالخوارج والمعتزلة والقدرية".

ومسألة خروج أهل الكبائر من النار، وتخليدهم فيها مبنية على هذا الأصل، وأعتقد أن هذا واضح غاية الوضوح، وفي هذا أيضًا يقول الإمام الشيخ محمد بن

صالح بن عثيمين -رحمه الله تبارك وتعالى- في شرحه لحديث: ((اثنتان في الناس هما بهما كفر)) قال رحمه الله: في قوله: ((كفر)) "أي: هاتان الخصلتان كفر، ولا يلزمُ من وجود خصلتين من الكفر في المؤمن أن يكون كافرًا، كما لا يلزم من وجود خصلتين في الكافر من خصال الإيمان: كالحياء، والشجاعة، والكرم أن يكون مؤمنًا".

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تبارك وتعالى- في تعريفه للشرك الأصغر، ونحن نستفيد منه هنا قال: "كل عمل قولي أو فعلي، أطلق عليه الشرع وصف الشرك، ولكنه لا يُخرج من الملة، وذلك كالحلف بغير الله -تبارك وتعالى".

وليُعلم: أنّ ما سبقت الإشارة إليه من صور، سواء كانت من الشرك الأكبر أو الأصغر، كما جاء في الحديث أنّ الحَلِف بالله من الشرك الأصغر، قد يصير في بعض الحالات إلى لون من ألوان الكفر الأكبر، أو الشرك الأكبر، كما قال ابن عثيمين -رحمه الله-: "والحلِفُ بغير الله شرك أكبر، إذا اعتقد أن المحلوف به مساوٍ لله تعالى في التعظيم والعظمة، وإلا فهو شرك أصغر".

تنبيه: الأصل أن تُحمل ألفاظ الكفر والشرك الواردة في الكتاب والسنة، وخاصة التي عُرّف منها ما عُرّف بحرف الـ على حقيقتها المطلقة، ومُسمَّاها المطلق، وذلك كونها مُخرجة من المِلّة حتى يجيء ما يمنع ذلك، ويقتضي الحمل على الكفر الأصغر أو الشرك الأصغر.

قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن -رحمه الله تبارك وتعالى: "ولفظ الظُّلم، والمعصية، والفسوق، والفجور، والموالاة، والمعاداة، والركون، والشرك، ونحو ذلك من الألفاظ الواردة في الكتاب والسنة، قد يُراد مسماها

المطلق وحقيقتها المطلقة، وقد يُراد بها مطلق الحقيقة، والأول هو الأصل عند الأصوليين، والثاني لا يُحمل الكلام عليه إلا بقرينة لفظية أو معنوية، وإنّما يُعرف ذلك بالبيان النبوي، وتفسير السنة قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾ [إبراهيم: ٤]".

خطورة التكفير وبيان أن الرجل قد يجتمع فيه كفر وإيمان

أ- التكفير وخطورة الإسراع فيه:

إنّ التّكفيرَ أمرٌ خطير: وهو أنْ نُخرِجَ المُسْلِمَ من الإيمَان، ونُطلِقَ عليه كلمة الكفر، ومن هنا وجَبَ التّحذير منه، وبيانُ خطورته، والتحذير من الإسراع فيه، والتكفير هو: الحكم على الإنسان بالكفر، وهذا الحُكم خطير لخطورة آثاره، ولذلك نهى الإسلامُ عن التّعجيل به، وعن تقريره إلا بعد التّأكُدِ من وُجود أسبابه تأكيدًا ليس فيه أدنى شبهة، ولأن يخطئ الإنسان في العفو، خيرٌ من أن يُخطئ في العقوبة.

والكافر إذا أفلت من عقوبة الدنيا؛ فلن يُفلت بفضل الله ﷻ وقدرته وقوته من عقوبة الآخرة؛ فينبغي أن يُعلم أن الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الإسلام، ودُخوله في الكفر، لا يجوزُ لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه إلا ببرهان واضح أوضح من شمس النهار. فقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن النبي ﷺ قال: ((من قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما))، وفي الصحيح: ((من دعا رجلًا بالكفر، أو قال: عدوَّ الله، وليس كذلك إلا حار عليه)). أي: رجع عليه.

ففي هذه الأحاديث وما شَابَهها أعظم زاجرٍ: عن الشروع في التكفير قال الله - تبارك وتعالى: ﴿ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ [النحل: ١٠٦] ومعنى ذلك: أنّه لا بد من شرح الصدر بالكفر، ولا اعتبار بما يقع من طوارق عقائد المشركين، ولا سيما مع الجهل بمخالفتها لطريقة الإسلام، ولا اعتبار بصدور فعل كفري لم يُرد به فاعله قصد الكفر، أو الخروج عن الإسلام إلى ملة الكفر، وذلك أن الإيمان والكفر مَحلُّهما القلب، ولا يَطّلع على ما في القلوب إلا رب العالمين ﷻ، وليست كل القرائن الظاهرة تدل على ما في القلب، فأكثر دلالتها ظنّية.

والإسلام نهى عن اتّباعِ الظنّ في أكثر من نصٍّ في القرآن الكريم، والسنة النبوية المُطهرة، وطلب الحُجة والبرهان على الدعوى وبخاصة في مسائل الاعتقاد وتطبيقًا لذلك: "نعى النّبيُّ ﷺ على أسامة بن زيد قتله الرجل الذي ألقى إليه السلام"، وأمر الله -تبارك وتعالى- بالتبيّن في ذلك فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [النساء: ٩٤]

فقد كرر الله ﷻ في الآية الأمر بالتبيين لأهميته، ولم يقبل الرسول ﷺ اعتذار أسامة، وقال له: ((هلّا شَقَقت عن قلبه))، ولقد تأثر أسامة > من هذا الفعل الذي فعله، وخاصة بعد أن بيّن له النبي ﷺ جُرم ما فعل، كما أنه ﷺ غضِبَ بهذا التصرف ولم يرضَ به.

ولِهذا أقولُ: يَنْبَغِي أنْ يُعلم أنّ الكَافِرَ الحَقِيقيّ هو الذي انعقد قلبه على الكفر واقتنع به، ولا شبهة: له كما قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا ﴾ أي: اقتنع به واستراح له؛ فحتم على كل مسلم ألا يُطلق كلمة الكفر إلا على من شرح به صدره.

وقد قال الإمام القرطبي -رحمه الله- في تفسيره لسورة الحجرات عند قول الحق -تبارك وتعالى- ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢]، قال: "بموجب أن يكفر الإنسان، وهو لا يعلم فكما أن الكافر لا يكون مؤمنًا إلا باختياره الإيمان على الكفر، كذلك لا يكون المؤمن كافرًا من حيث لا يقصد الكفر ولا يختاره بالإجماع".

والذي يَنْبغي أن نُؤصله: هنا: أنّ الحُكم بالكفر على إنسان ما، حكمٌ جدٌّ خطير؛ لما يترتب عليه من آثار هي غاية في الخطر، ومنها: أنه لا يحل لزوجته البقاء معه، أو يجب أن يفرَّق بينها وبينه؛ لأن المسلمة لا يصحُّ أن تكون زوجة لكافر بالإجماع المتيقن.

وأيضًا يترتبُ على ذلك أنّ أولاده لا يجوز: أن يبقوا تحت سلطانه؛ لأنه لا يُؤمَن عليهم، ويُخشى أن يؤثر عليهم بكفره، وبخاصة أن عودهم لين، وهم أمانة في عُنق المجتمع الإسلامي كله، كما أنه فقد حق الولاية والنصرة على المجتمع الإسلامي بعد أن مرق منه، وخرج عليه بالكفر الصريح والرّدة البواح، ولهذا يجب أن يقاطع، ويُفرض عليه حصار أدبي من المجتمع؛ حتى يفيق لنفسه، ويثوب إلى رشده، وأنّه يجب أن يُحاكم أمام القضاء الإسلامي؛ لينفُذ فيه حكم المرتدِّ بعد أن يستتيبه، ويزيل من ذهنه الشبهات، ويقيم عليه الحجة.

وأنه إذا مات لا تجري عليه أحكام المسلمين: فلا يُغسل، ولا يُصلّى عليه، ولا يُدفن في مقابر المسلمين، ولا يُورَث، كما أنه لا يرث إذا مات وارث له، وأنه إذا مات على حاله من الكفر، يستوجبُ لعنة الله وطرد الله ﷻ له من رحمته، كما يستوجبُ الخلود الأبدي في نار جهنم -والعياذ بالله تبارك وتعالى، وهذه الأحكام الخطيرة تُوجب على من يتصدَّى للحكم بالتكفير أن يتريَّث مرات ومرات قبل أن يقول ما يقول.

وإذًا؛ فليحذر الواهمون الذين يوزعون الكفر على المسلمين من غير بينة، ويتهمونهم بالخروج على الإيمان من غير دليل، سِيّما بعد أن شهدوا شهادة الحق، ونطقوا بكلمة التوحيد، كما يَجِبُ التّفْرِقةُ بين كفر النوع والشخص المعين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تبارك وتعالى-: "إنّ القول قد يكون كفرًا، فيطلق القول بتكفير صاحبه، ويُقال: من قال كذا فهو كافر"، لكن الشخص المعين الذي قاله لا يحكم بكفره؛ حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها، وهذا كما في نصوص الوعيد فإن الله -تبارك وتعالى- يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾ [النساء: ١٠]

فهذا ونحوه من نصوص الوعيد حق، لكن الشّخص المُعين لا يُشهد عليه بالوعيد؛ فلا يُشهد لمعينٍ من أهل القبلة بالنار، لجواز ألا يلحقه لفوات شرط أو ثبوت مانع، فقد لا يكون التحريمُ بلغه، وقد يتوب من فعل المُحرم، وقد تكون له حسنات عظيمة، تمحو عقوبة ذلك الأمر المُحرم الذي وقع فيه، وقد يُبتلى بمصائب تُكَفّر عنه ذنوبه وسيئاته، وقد يَشفَعُ فيه شفيع مطاع؛ فيقبل الله -تبارك وتعالى- منه الشفاعة.

وهكذا الأقوال التي يكفر قائلها بها، قد يكون الرجل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق، وقد يكون عنده هذه النصوص، ولكنها لم تثبت عنده، أو لم يتمكّن من فهمها، وقد يكون عرضتْ له شُبهات يعذره الله بها، فمن كان من المؤمنين مجتهدًا في طلب الحق، وأخطأ فيه؛ فإن الله -تبارك وتعالى- يغفر له خطأه كائنًا ما كان، سواء كان هذا في المسائل النظرية أو العملية، وهذا هو الذي عليه أصحاب النبي ﷺ وجماهير أمة الإسلام.

ولهذا، فإنني أؤكد في هذا المقام على التفرقة بين تكفير معين، وإطلاق التكفير على من فعل شيئًا من الذنوب والمعاصي وهكذا. فمن فعل شيئًا من الكبائر، أو حتى من الأمور التي يرى الإنسان أن فاعلها يخرج بفعله إيَّاها من الإيمان إلى الكفر، على الإنسان أن يتريَّث هذا الفاعل، وألا يُطلق عليه لفظ الكفر إلا بعد إقامة الحجة عليه التي يصير بها كافرًا، أو ظالمًا، أو فاسقًا. على حسب ما وصل إليه الأمر من ذلك.

فإطلاق كلمة الكفر عمومًا على هذه المعاصي لا تُلزم أحدًا أن يخرج أحدًا من الملة إذا فعل شيئًا من هذه الموبقات؛ لأننا لا نعلم بتحقق الشروط فيه، أو وجود مانعٍ: يمنع من لحوق الوعيد به، ونحن نقول: بأن هذه من آيات الوعيد بلا شك، إلا أننا لا نُرتب التكفير على فاعلها إلّا بعد أن نتبين في ذلك غاية التبين؛ لأن الأمر كما ذكرتُ قد لا يكون التحريم للفعل الذي فعله الفاعل، قد وصل إليه، أو أنه قد يكون وقع فيه بعد أن وصل إليه؛ ولكنه تاب منه ورجع، وتاب الله -تبارك وتعالى- عليه.

وحاصل القول: أن المسألة خطيرة للغاية؛ فلا ينبغي لمُسلم أن يُقدم على ألفاظ التكفير إلا بعد أن يتبيَّن غاية التبين، وألا يَنطق بكلمة الكفر على أحد، إلا إذا تحققت فيه الشروط، وانتفت عنه الموانع، وليسلم المؤمن من أن يرمي أخاه المؤمن بهذه الألفاظ حتى لا يرجع شيءٌ: منها إليه.

بيان أن الرجل قد يجتمع فيه كفرٌ وإيمان:

لا بد من بيان ذلك، لأن البَعض قد يرى إنسان ما يقع في الكفر فيقول: بأنه ليس عنده شيء من الإيمان، وهذا خطأ بيِّن؛ فالإنسان قد يجتمع فيه كفر وإيمان، وفي هذا يقول الإمام ابن القيم -رحمه الله تبارك وتعالى-: "الرجل قد يجتمع فيه كفر

وإيمان، وشركٌ وتوحيد، وتقوى وفجور، ونفاق وإيمان، وهذا من أعظم أصول أهل السنة، وخالفهم فيه أهل البدع كالخوارج والمعتزلة، والقدرية". ومسألة خروج أهل الكبائر من النار، وعدم تخليدهم فيها مبنية على هذا الأصل، وقد دلَّ عليه القرآن الكريم، والسنة المطهرة، والفِطرةُ السّليمة وإجماع الصحابة، قال الله -تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦].

فأثبت لهم إيمانًا به سبحانه مع الشرك به، يعني: أن الله أثبت لهم الإيمان في قوله: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ ﴾ إلا أنه أخبر أنّه مع هذا الإيمان، وقع منهم لون من ألوان الشرك. وقال تعالى: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات: ١٤]، فأثبت ربُّ العالمين ﷻ لهم في الآية إسلامًا وطاعة لله ولرسوله ﷺ مع نفي الإيمان عنهم، وهو الإيمانُ المطلق الذي يستحقُّ اسمه بإطلاق.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥] وهؤلاء ليسوا منافقين في أصح القولين، بل هم مسلمون بما معهم من طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، وليسُوا مؤمنين، وإن كان معهم جزء من الإيمان أخرجهم من الكفر والكفار، والعياذ بالله تعالى.

قال الإمام الرباني أحمد بن حنبل -رحمه الله تبارك وتعالى: "من أتى هذه الأربعة أو مثلهن، أو فوقهن -يُريد: الزنا، والسرقة، وشرب الخمر، والانتهاب- فهو مسلم ولا أسميه مؤمنًا، ومن أتى دون ذلك -يريد دون هذه الكبائر- سميته مؤمنًا ناقص الإيمان، وقد دَلّ على هذا قوله -صلى الله عليه وآله سلم: ((فمن كانت فيه خصلة منهن؛ كانت فيه خصلة من النفاق)).

هذه الجملة من كلامه ﷺ تدل على أنه يجتمع في الرجل نفاق وإسلام، وكذلك الرياء شرك، فإذا راء الرجل في شيء من عمله؛ اجتمع فيه الشرك والإسلام، وإذا حكم بغير ما أنزل الله -تبارك وتعالى- أو فعل ما سماه الرسول ﷺ كفرًا، وهو مُلتزم للإسلام وشرائعه؛ فقد قام به كفر وإسلام، والمعاصي شعب الكفر، والطاعاتُ شعبُ الإيمان". انتهى كلام الإمام ابن القيم رحمه الله -تبارك وتعالى- وهذا الكلام موجود في كتاب الصلاة له.

كما قال أيضًا -رحمه الله تبارك وتعالى- موضحًا أكثر هذه المسألة الدقيقة التي خفيت على كثيرين قال: "من كان فيه شُعبة من الإيمان لا يصير بها مؤمنًا، ومن كان فيه شعبة من شعب الكفر لا يصير بها كافرً: ، وإن كان ما قام به كفرًا، كما أنه لا يلزم من قيام جزء من أجزاء العلم به أن يُسمى عالمًا، ولا من معرفة بعض المسائل في الفقه والطب أن يُسمَّى فقيهًا ولا طبيبًا، ولا يمنعُ ذلك أن تسمى شعب الإيمان إيمانًا، وشُعب النفاق نفاقًا، وشعب الكفر كفرًا.

وقد يُطلق على الفعل كفر، كقوله ﷺ: ((من تركها فقد كفر)). و((من حلف بغير الله فقد كفر)). فمن صدر منه خلة من خلال الكفر؛ فلا يستحقُّ اسم كافرٍ على الإطلاق، حتى ولو أُطلقت كلمة الكُفر على الفعل الذي فعله. وكذا يُقال لمن ارتكب محرمًا: أنه فعل فسوقًا لا أنه فسقَ بذلك المحرم، ولا يلزمه اسم فاسق إلا بغلبة ذلك عليه، وهكذا اسم الزاني والسارق، والمنهب، لا يسمى مؤمنًا وإن كان معه إيمان، كما لا يُسمى كافرًا، وإن كان ما أتى به من خصال الكفر؛ إذ المعاصي كلها من شُعب الكفر، كما أن الطاعات كلها من شُعب الإيمان".

ولذلك أهل السنة والجماعة -رحمهم الله تبارك وتعالى- يُطلقون على مرتكب الكبائر من الإيمان بأنه مسلم عاصٍ، أو مؤمنًا بإيمانه، مرتكب لكبيرة عظيمة ارتكبها، ولذلك قالوا عنه: بإنه فاسق بكبيرته.

وبناءً على ما تقدم بيانه أذكر هنا قاعدة عظيمة على طالب العِلم أن يفقهها وهي: "أنّ أَهلَ السُّنة والجماعة -رحمهم الله تبارك وتعالى- ذهبوا إلى أن المؤمن قد يقع: مع إيمانه في بعض شعب الجاهلية أو النفاق، ولا يخرجُ بذلك عن الإيمان"، وقد تَرجم الإمام البخاري -رحمه الله تبارك وتعالى- لهذه المسألة في صحيحه، ترجم لها بباب قال فيه: "باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها إلا بارتكابها إلا الشرك". لقول النبي ﷺ: ((إنك امرؤ فيك جاهلية)).

وقد قال الإمام الحافظ ابن حجر -رحمه الله تبارك وتعالى- في شرحه لهذا الحديث، ولهذا الباب كما في (فتح الباري): "إنّ كُلّ معصية تُؤخذ من ترك واجب، أو فعل محرم؛ فهي من أخلاق الجاهلية، والشرك أكبر المعاصي ولهذا استثناه".

وأما قصة أبي ذر > فإنما ذُكرت ليُستدل بها على أن من بقيت فيه خصلة من خصال الجاهلية سوى الشرك لا يَخرجُ عن الإيمان بها، سواء كان من الصغائر أم من الكبائر، ثم قال -رحمه الله: "وهذا واضح".

وقال الإمام ابن تيمية -رحمه الله تبارك وتعالى- في سياق بيانه لهذه المسألة العظيمة: "وتمام هذا أنّ الإنسانَ قد يكون فيه شعبة من شعب الإيمان، وشعبة من شعب النفاق، وقد يكون مسلمًا وفيه كفر دون الكفر الذي ينقل عن الإسلام بالكلية، كما قال الصحابة } كابن عباس وغيره: كفر دون كفر". وهذا قول عامة السلف.

وطوائف أهل الأهواء من الخوارج والمعتزلة والجهمية والمرجئة، يقولون: "إنه لا يجتمع في العبد إيمان ونفاق، بل الخوارج والمعتزلة طردوا هذا الأصل الفاسد، وقالوا: لا يَجْتَمعُ في الشّخص الواحد طاعة يستحق بها الثواب، ومعصية

يستحق بها العقاب، ولا يكون الشّخصُ الواحد محمودًا من وجه، مذمومًا من وجه، ولا محبوبًا مدعوًّ: له من وجه، مسخوطًا ملعونًا من وجه، ولا يتصوَّر أن الشخص الواحد يدخل الجنة والنار جمعيًا عندهم، بل من دخل إحداهما لم يدخل الأخرى عندهم، ولهذا أنكروا خروج أحد من النار، أو الشفاعة في أحد من أهل النار".

وأما أهل السنة والجماعة، والصحابة والتابعون لهم بإحسان، وسائر طوائف المسلمين من أهل الحديث والفقهاء، وأهل الكلام من مرجئة الفقهاء، والكرامية والكُلابية، والأشعرية والشيعة، مرجئهم وغير مرجئهم، فيقولون: "إنّ الشخص الواحد قد يُعذبه الله بالنار، ثم يُدخله الجنة، كما نطقت بذلك الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ"، وعلى هذا الأصل فبعض الناس يكون معه شعبة من شعب الكفر، ومعه إيمان أيضًا، وعلى هذا ورد عن النبي ﷺ في تسمية كثير من الذنوب كفرًا، مع أن صاحبها قد يكون معه أكثر من مثقال ذرة من إيمان، فلا يُخلد في النار.

وخلاصة القول في ذلك: أن التّكفير في غاية من الخطورة، وأن إطلاقه على بعض الناس قد يعود على المطلق بشيء من الإثم -والعياذ بالله تبارك وتعالى، إلى جانب ما قرَّره أهل السنة في ذلك: أن الإنسان لا يَسلمُ من معاصي الجاهلية، وبعض الأمور التي يرتكبها، ويُطلق عليها بأنها من الكبائر، إلا أنه لا يخرج بها عن الإسلام؛ لأن عنده إيمان، وارتكاب الكبائر تكون من الشيطان، كما هو معلوم، فإذا تاب الإنسان ورجع منها غفر الله له، إن قبل توبته، وإلا فأمره بين يدي الله ﷻ، وإن شاء غفر له، وإن شاء عذبه بذنبه.

كلمة التوحيد: فضلها، وشروطها، ومعناها - نواقض التوحيد (١)

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	فضل كلمة التوحيد وذكر شروطها	٦٥
العنصر الثاني	:	توضيح معنى كلمة التوحيد	٧٥
العنصر الثالث	:	ذكر ما يُناقض كلمة التوحيد "الناقض الأول الكفر"	٧٨

فضل كلمة التوحيد وذكر شروطها

أ. فضل كلمة التوحيد:

كلمة التوحيد هي: "لا إله إلا الله"، هذه الكلمة المباركة هذه الكلمة العظيمة، فضلها عميم، فضلها عظيم، فضلها كبير، وبيان ذلك في هذه النقاط.

أولًا: أنه من أجلها خلق الله ﷻ الخلق كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ومن أجلها أرسل الله ﷻ الرسل كما قال في كتابه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، فالله ﷻ كما أخبر أرسل في كل أمة رسولًا؛ من أجل هذه الكلمة العظيمة التي تُبيِّن انفرَاد الله ﷻ بالإلوهية والوحدانية، وأنه لا يُعبد إلا هو ﷻ جلَّ في علاه.

وقد جاءت آية في كتاب الله ﷻ في سورة الأنبياء تنصُّ على هذه الكلمة بعينها، وتُبيِّن أن جميع المُرسلين الذين: أرسلهم رب العالمين ﷻ أرسلهم وأوحى إليهم بوجوب أن يتحدثوا، وأن يُخبروا، وأن يدعوا إلى: هذه الكلمة: "لا إله إلا الله"، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، و"لا إله إلا الله" وكلمة التوحيد هي قضية القضايا، والأساس الأول في الدين، ومن هنا قال رب العالمين: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

قضى رب العالمين ﷻ وبيَّن، وأراد دينًا وشرعًا أن يُعبد وحده دون سواه، ولذلك أمر في آيات كثيرة بتحقيق التوحيد، وذلك يكون بعبادته وحده مُظهرًا

هذا العابد أنه "لا إله إلا الله"، فقال -تبارك وتعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ [النساء: ٣٦]، وكلمة "لا إله إلا الله" هي حق الله على العباد، كما في الحديث الذي جاء عن معاذ بن جبل > قال: "كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال لي: ((يا معاذ، أتدري: ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وحق العِباد على الله ألا يُعذب من لا يُشرك به شيئًا؛ قلت: يا رسول الله ﷺ أفلا أبشر الناس؟ قال: لا تُبشرهم فيتَّكلوا)).

وهذا من فضلها وكفى به فضلًا أن يكون إذا قام العابد لربه ﷻ ومولاه بتحقيق هذه الكلمة العظيمة، أن يَغفِرَ اللهُ له، وأن يُدخله جنَّته، كما قال رَبُّ العالمين سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].

فقد بيَّنت هذه الآية الكريمة فضل هذه الكلمة العظيمة، وأنّ أهلَ التّوحيد يدخلون تحت مشيئة رب العالمين -سبحانه، وذلك لو ارتكبوا ما ارتكبوا من المعاصي والآثام، أما من خرج على هذه الكلمة ولم يحققها، ولم يأت بها؛ فليس له عند ربه عهد ولا غفران لذنب، فالله ﷻ أخبر في كتابه أنه لا يغفر لمشرك أبدًا، لم يُحقق التوحيد لرب العالمين سبحانه. وخالف هذه الكلمة العظيمة لا إله إلا الله.

كما أن الله ﷻ كتب الأمن والسلامة والأمان لمن قال هذه الكلمة العظيمة؛ فقال في كتابه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. المراد بكلمة "بظلم" هنا أي: بشرك، و﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾ في الآخرة، ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ في الدنيا؛ فمن جاء بلا إله إلا الله، ولم يقع في الشرك؛ فهو الآمن في الآخرة الذي قد هُدي في هذه الحياة الدنيا.

كما جاء في فضل هذه الكلمة العظيمة أنها السبيل إلى الجنة، الطريق إلى الجنة، فعن عبادة بن الصامت > قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَنْ شَهِدَ أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأنّ عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنّار حَقّ؛ أدخله الله الجنة، على ما كان من العمل)).

فقد بيَّن هذا الحديث العظيم أيضًا شيئًا من فضائل هذه الكلمة، وأنها هي الطريق إلى الجنة؛ لأن من شهد لله ﷻ بها، وأتى بمقتضاها من الإيمان والشهادة بالنبوة للنبي ﷺ، كما شهد أن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وأيقن بأن الجنة حق، وأن النار حق؛ أدخله الله -تبارك وتعالى- الجنة على ما كان من عمل عنده وقع فيه، أو تقصير قصّرَ فيه.

كما أنه من فضل هذه الكلمة العظيمة: أنّ صاحبها يُحرَّم على النار، كما في حديث عتبان، وهو في البُخَارِيّ ومسلم: "أنّ النبي ﷺ قال: ((إن الله حرَّم على النار، من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله)).

ومِمّا ورد في فضل كلمة التوحيد، ما جاء عن أبي سعيد الخُدري > ، عن رَسول الله ﷺ أنه قال: ((قال موسى # لربه: يا رب، علمني شيئًا أذكرك وأدعوك به، قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله، قال: يا رب، كل عبادك يقولون هذا؛ فقال الله له: يا موسى، لو أن السموات السبع وعامرهنَّ غيري، والأراضين السبع في كفَّة، ولا إله إلا الله في كفَّة، مالت بهنّ لا إله إلا الله)).

وفي الحديث الذي أخرجه الترمذي -رحمه الله تبارك وتعالى، عن أنس > قال: "سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ((قال الله تعالى: يا ابن آدم، لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي؛ لأتيتك بقرابها مغفرة))، وعن

جابر > قال: قال رسول الله ﷺ: ((مَن لقي الله لا يُشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يُشرك به شيئًا دخل النار، وكل ذنب دون الشرك يهون)).

فعن أبي ذر > قال: قال رسول الله ﷺ: ((أتاني جبريل؛ فبشَّرني أنه من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئًا؛ دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق! قال: وإن زنى وإن سرق. قلت: وإن زنى وإن سرق! قال: وإن زنى وإن سرق، قلت: وإن زنى وإن سرق! قال: وإن زنى وإن سرق، وشرب الخمر)) يعني: كررها النبي ﷺ ثلاث، مرات وفي رواية لأبي ذر > : ((وإن زنى وإن سرق رغم أنف أبي ذر)). فكان أبو ذر يقول ذلك بعد تمام الحديث، وهذا الحديث أخرجه البخاري ومسلم.

كمَا قال ﷺ مبينًا فضل هذه الكلمة العظمية، ومكانتها قال: ((أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأني: رسول الله ﷺ لا يلقى الله بهما عبد غير شاكٍّ، فيحجب عن الجنة)). وقال ﷺ: ((من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ﷺ؛ حرمه الله على النار)).

وفي هذا المعنى أحاديث كثيرة يطول ذكرها، وأحاديث هذا الباب نوعان:

أحدهما: ما فيه أنّ من أتى بالشهادتين دخل الجنة، ولم يُحجب عنها، وهذا ظاهر، فإن النار لا يُخلّد فيها أحدٌ من أهل التوحيد الخالص، وقد يدخل الجنة، ولا يُحجب عنها إذا طهر من ذنوبه بالنار. وحديث أبي ذر الغفاري > معناه: أن الزنى والسرقة لا يمنعان دخول الجنة مع التوحيد، وهذا حقٌّ لا مرية فيه، وليس فيه أنه لا يُعذب عليهما مع التوحيد، فهذه معاصٍ وذنوب قد يُعذب فاعلها بارتكابها، إلا أنه إذا عذّبه الله ولم يغفر له ابتداءً، وأدخله: النّار إلا أنه

ينجو، ويخرج منها بما معه من إيمان، وعلى رأس ذلك هذه الكلمة العظيمة لا إله إلا الله.

أما النوع الآخر الذي بينته هذه الأحاديث: ما جاء فيه أنه يُحَرّم على النّار، وقد حمله بعضهم على الخلود فيها، أو على ما يُخَلّد فيها أهلها، وهي ما عدا الدرك الأعلى، فإن الدرك الأعلى يدخله كثير من الموحدين من عُصاتهم بذنوبهم، ثم يخرجون بشفاعة الشافعين، وبرحمة أرحم الراحمين سبحانه.

وفي الصحيحين: أن الله تعالى يقول: ((وعزَّتي وجلالي، وكبريائي وعظمتي، لأُخرجنَّ منها -أي: من النار- من قال: لا إله إلا الله)). وقالت طائفة من العلماء: المراد من هذه الأحاديث: أنّ "لا إله إلا الله" سببٌ لدخول الجنة، والنجاة من النار، ومقتضٍ: لذلك، ولكنّ المُقتضي لا يعمل عمله إلا باستجماع شروطه، وانتفاء موانعه؛ فقد يتخلّفُ عنه مقتضاه لفوات شرط من شروطه، أو لوجود مانع، وهذا قول الحسن، ووهب بن منبه، وهو الأظهر.

وقال الحسن بن أبي الحسن البصري للفرزدق، وهو يدفن امرأته: "ما أعددت لهذا اليوم؟ قال: شهادة لا إله إلا الله منذ سبعين سنة، قال: الحسن نعم العُدة، لكن للإله إلا الله شروطًا؛ فإيَّاك وقذف المحصنات". وقيل للحسن: "إن أناسًا يقولون: من قال: لا إله إلا الله؛ دخل الجنة، فقال الحسن: من قال: لا إله إلا الله، فأدَّى حقها وفرضها؛ دخل الجنة"، وقال وهب بن منبه لمن سأله: أليس مُفتاح الجنة: لا إله إلا الله؟ قال: بلى، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان؛ فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك، وإلا لم يفتح لك".

هذا، ومن فضائل كلمة "لا إله إلا الله"، وفضائلها كثيرة عظيمة لا يُمكن هنا أن نستقصيها أنها هي "كلمة التقوى"، وأنها هي كلمة الإخلاص، وهي شهادة

الحق، وهي دعوة الحق، وهي براءة من الشرك، ونجاة هذا الأمر؛ ولأجلها خلق الله ﷻ الخلق؛ ولأجلها أُرسلت الرسل، وأُنزلت الكتب، وهي من أفضل النعم؛ ولأجلها أُعدت دار الثواب، ودار العقاب، ولأجلها أمرت الرسل بالجهاد، فمن قالها عصم ماله ودمه، ومن أباها فماله ودمه حلال، وهي مفتاح الجنة، ومفتاح دعوة الأنبياء والمرسلين؛ فما من نبي ورسول جاء إلى قومه إلا أمرهم بهذه الكلمة العظيمة، وبها كلّم الله -تبارك وتعالى- موسى كفاحًا.

وينبغي أن يُعلم، وأن أبشر إخواني وأمتي عن فضل هذه الكلمة بكلمة عظيمة أقول فيها: "إنّ من كانت آخر كلامه "لا إله إلا الله" دخل الجنة؛ لقول النبي ﷺ: ((من كان آخرُ كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة))، وهي أيضًا نجاة: من النار، وهي تُوجب المغفرة، وهي أحسن الحسنات، وهي تمحو الذنوب والخطايا، وهي تجدِّد ما درس من الإيمان في القلب، وهي التي لا يُعادلها شيء في الوزن والخطايا؛ فلو وُزنت بالسماوات والأرض لرجحت بهنَّ.

وكذلك هي التي ترجح في صحائف الذنوب، كما في حديث السجلات والبطاقة، والذي جاء فيه: ((يُصاح برجل من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة؛ فيُنشر له تسعة وتسعون سجلًّا: كل سجل منها مدَّ البصر، ثم يُقال لهذا الرجل: أتنكر من هذا شيئًا؟ فيقول: لا، فيقال له: أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول له: لا؛ فيخشى الرجل على نفسه، ثم يقول الله له: إنه لا ظُلم عليك اليوم، إن لك عندنا حسنة؛ فتأتي بطاقة فيها "لا إله إلا الله"، وتوضع في الكفة الأخرى في الميزان؛ فتثقل البطاقة التي فيها "لا إله إلا الله، وتطيش سائر السجلات، ثم يقول ﷺ: ولا يثقل مع اسم الله -تبارك وتعالى- شيء)). فدل هذا بوضوح على فضل هذه الكلمة، وأنه لا يعادلها شيء.

ب- شروط كلمة التوحيد:

هذه الكلمة العظيمة لا بد أن أُبين الشروط التي ذكرها أهل العلم؛ حتى ينتفع بها قائلها، لأنه لا بد من الالتزام بشروط كلمة "لا إله إلا الله"؛ حتى يستفيد منها صاحبها، وحتى ينال الفضل الذي سبق أن ذكرته قبل قليل، وقد ذكر العلماء -رحمهم الله تبارك وتعالى- أنّ لها شروطًا سبعة؛ لا تنفع صاحبها إلا باجتماع هذه الشروط.

وأقول أولًا: ينبغي أن نعلم أنه ليس المراد من هذا عدُّ ألفاظها، يعني: عد ألفاظ هذه الشروط فكم من عامي اجتمعت فيه هذه الشروط، والتزمه: ولو قيل له: اعددها لم يحسن ذلك، وكم من حافظٍ: لألفاظها، عارف لها، يجري فيها كالسهم، وتراه يقع كثيرًا فيما يناقضها، والتوفيق بيد الله -تبارك وتعالى، وقد سبق أن ذكرت ما قاله وهب بن منبه -رحمه الله- عمن يقول: "لا إله إلا الله" وأنها مفتاح الجنة، وقد ذكر أن لكل مفتاح أسنان، فلا بد أن يأتي الإنسان بأسنان هذه المفاتيح؛ حتى تُفتح له الجنة، وأسنان هذا المفتاح: "شروط لا إله إلا الله" وهي كما يلي:

الشرط الأول: العِلْمُ بمعناها:

المُراد منها نفيًا وإثباتًا، المُنافي للجهل بذلك، قال الله -تبارك وتعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]. وهذه كلمة عظمية، وأمر كريم من الله ﷻ للنبي ﷺ وأمته تَبَع له في ذلك؛ ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾، ولذلك قد أحسن الإمام البخاري -رحمه الله تبارك وتعالى- عندما عقد في جامعه الصحيح بابًا لهذه الآية عَنْوَنَ له بقوله: "باب العلم قبل القول والعمل" ثم قال: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ فدلَّ ذلك على أن العلم على رأس هذه الشروط، العلم

بمعنى هذه الكلمة، العلم بمراد هذه الكلمة، وبما تقتضيه نفيًا وإثباتًا؛ حتى يكون العمل صحيحًا.

وقد قال الله -تبارك وتعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨]، وعن عثمان > قال: قال رسول الله ﷺ: ((من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله؛ دخل الجنة)) قال: ((من مات وهو يعلم)) فلا بد من العلم، ((دخل الجنة)). كما أخبر رسول الهدى ﷺ، وخبره حق وصدق.

الشرط الثاني: اليَقينُ المنافي للشكّ:

ومعنى ذلك: أن يكون قائلها مستيقنًا بمدلول هذه الكلمة، يقينًا جازمًا، لا يكون عنده أدنى شك في هذا اليقين؛ فإن الإيمانَ لا يُغني فيه إلا العلم، وعلمُ اليقين على وجه التحديد لا علم الظن، قال الله -تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥].

ولعلنا نلاحظ في هذه الآية أنّ الله ﷻ حصر المؤمنين فيمن آمن بالله ورسوله ﷺ ثم لم يكن عنده شك أو ارتياب في هذا الإيمان، هذا هو الذي ينفعه إيمانه، وتنفعه كلمة "لا إله إلا الله"، وقد اشترط هذا الشرط نبي الهدى والرحمة ﷺ، اشترط في قائل هذه الكلمة اليقين المنافي للشك؛ ففي الصحيح من حديث أبي هريرة > قال: قال رسول الله ﷺ: ((أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ﷺ، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما؛ إلا دخل الجنة)).

الشرط الثالث: القبولُ لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه:

وقد قصَّ الله ﷻ علينا من أنباء ما قد سبق من إنجاء من قبلها، وانتقامه: ﷻ ممن ردّها وأباها، فالأنبياء والمرسلون، وعباد الله الصالحين لما قبلوا هذه الكلمة نجّاهم رب العالمين سبحانه.

ومثال يسير جاء في القرآن الكريم لذلك، وهو عن ذا النون # لما قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] استجاب الله - تبارك وتعالى - له دعوته؛ عندما قال هذه الكلمة، مظهرًا فقره واحتياجه، وقبوله لها؛ معظمًا ربّ العالمين ﷻ بها، نجاه الله ﷻ بها. كما أهلك الله ﷻ من لم يقبلها وردَّها كفرعون، وكأبي جهل، وغيرهما من عُتاة المشركين والكفار.

الشرط الرابع: الانقياد لما دلّت عليه هذه الكلمة:

ومعنى الانقياد لما دلّت عليه هذه الكلمة: أن يترك الإنسان ما يُنافي هذه الكلمة، قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤]، ومعنى الإنابه الانقياد والتسليم المطلق:، لكل ما جاء عن رب العالمين سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ [النساء: ١٢٥]، وفي الحديث الشريف الصحيح: ((لا يُؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئتُ به)) فهنا ينفي النبي ﷺ الإيمان عمن لم يَنْقَدْ له، ولما جاء به ﷺ، ويُحذر أن يكون للإنسان ميلٌ: أو هوًى يُخالف ما جاء به النبي ﷺ.

الشرطُ الخَامس: الصدق المنافي للكذب:

وهو أن يقولها صدقًا من قلبه، ويواطئ قلبه لسانه في ذلك؛ حتى لا يكون من المنافقين، قال الله ﷻ ذاكرًا شيئًا من صفات المنافقين: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨].

فنفى الله ﷻ عنهم: الإيمان هنا؛ لأنهم ليسوا بصادقين في هذه الكلمة العظيمة. وفي الحديث الصحيح الذي أخرجه الحاكم، وغيره: "أن النبي ﷺ قال: ((شفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصًا يُصدِّق لسانه قلبه)).

الشرط السادس: الإخلاص:

والإخلاص هو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك، لربِّ العالمين ﷻ جلَّ في علاه، قال الله ﷻ: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة: ٥]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ، عن أبي هريرة > أنه قال: ((أسعدُ الناس بشفاعتي من قال: "لا إله إلا الله" خالصًا من قلبه)). فالإخلاص إذًا شرط ضروري في العبادة؛ حتى تكون العبادة لله وحده دون سواه.

ولأن عدم الإخلاص يُوقع العبد في الشرك -والعياذ بالله تبارك وتعالى- فتصفية العمل، والتوجه إلى رب العالمين ﷻ بالكلِّيَّة، وعدم ملاحظة غير الله ﷻ أمر مهم للغاية، وهو شرط من شروط كلمة التوحيد، يُعَبّر عنه بالإخلاص.

الشرط السابع والأخير: هو المحبة لهذه الكلمة العظيمة:

والمحبة لما اقتضته هذه الكلمة، ولما دلت عليه ولأهلها العاملين بها، الملتزمين بشروطها، وبغض ما ناقض ذلك، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: ((ثلاث من كُنَّ فيه وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يُحِبّ المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعودَ في الكفر كما يكرهُ أن يُقذف في النار)).

وعليه فمحبة أهل الإيمان، وأولياء الله ﷻ مِن شروط هذه الكلمة العظيمة، ولهذا فليحذر العبد أن يبغض شيئًا مما جاء عن الله، أو عن رسول الله ومصطفاه ﷺ، أو أن يكره شيئًا من هدي النبي ﷺ.

توضيح معنى كلمة التوحيد

كلمة التوحيد: الشهادتان وهما أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ، ومعنى هاتان الشهادتان: أنّ كلمة "أشهد" في اللغة تأتي على ثلاث معانٍ، وقد استعملها القرآن بكلٍّ من المعاني الثلاثة؛ فهي تأتي أولًا بمعنى المشاهدة، أي: الرؤية، وهي قلبية أو بصرية أو علمية، قد تكون الرؤية بالقلب أو بالبصر -يعني: بالعين- أي: بالعلم. يعني: يقوم الأمر في ذهن الإنسان وعقله.

وقد استعملها القرآن الكريم بهذا المعنى؛ فقال تعالى: ﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين: ٢١]، والمعنى: أن الإنسان يرى بقلبه أن كل شيء له آية؛ تدل على أنه هو الواحد، قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠- ١٩١].

وتأتي أيضًا بمعنى الشهادة، وتكون باللسان إقرارًا واعترافًا، وقد قال الله ﷻ: ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾ [الطلاق: ٢]، فأنت تقول: شهدتُ لفلانٍ، أو شهدت على فلان، وهذا هو دور اللسان، وقد يصدق الإنسان أو يكذب في هذا الإقرار والاعتراف، والذي يحدد ماهية الأمر صدقه أم

كذبه، إذًا المعنى الثاني لكلمة أشهد: الشهادة، وتكون باللسان. أما المعنى الثالث فتأتي بمعنى: الحلف واليقين؛ فكأنه إذا قال مثلًا: أشهد كأنه قال: أقسم وأوقن. وقد استعملها القرآن الكريم بهذا المعنى كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ١- ٢].

فاعتبر الله ﷻ كلمتهم "نشهدُ" يمينًا، وإن كانوا قد كذبوا في ذلك، ولكن الله - تبارك وتعالى- شهد له يقينًا وصدقًا وعلمًا؛ وكفى بالله شهيدًا، وقال فقهاء الحنفية: من قال: "أشهدُ" فقد حلف؛ ولذلك قال الله ﷻ شاهدًا لنفسه بهذه الكلمة العظيمة عندما لم يشهد بها المنافقون بصدق، قال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾، وهذه المعاني الثلاث بينها ترابط تام؛ فالإنسان يحلف إذا شهد، ويشهد إذا شاهَد.

وفي الحَديث ((على مثل الشمس فاشهد أو دَعْ)): ؛ فهو يُشاهدُ بقلبه، ثم يشهد بلسانه، ثم يُوقن بذلك فيتمثَّل بجوارحه الأوامر، وينتهي عن النواهي، ومن هنا قال العلماء: "الشهادة إقرار بالجنان -ومعنى الجنان: القلب- وتلفظ باللسان، وعمل بالأركان". وعلى هذا؛ فشهادة الإنسان أنه "لا إله إلا الله" لا تُعتبر إلا باستجماع هذه المعاني جميعًا؛ هذا فيما عند الله ﷻ يعني: أن تكون قائمة في قلب الإنسان، وأن يَنطِقَ بها بلسانه، وأن يتمثل ويقوم بأداء ما افترض رب العالمين ﷻ عليه.

وأن يترك ما نهى الله -تبارك وتعالى- عنه، وإن ارتكب شيئًا من الآثام والمعاصي والمنكرات؛ فجزاؤه بمثل ما قدم، إلا أنه لا يخرج من الإيمان كما ذكرت، هذا عند الله. أما عند الناس: فإن مُجرد النُّطق بها يُحكم لصاحبها بالإسلام بناءً على

الظاهر، يعني: لو أن إنسانًا نطق أمامنا الآن بلا إله إلا الله حكمنا بإسلامه، ووكلنا سريرته إلى رب العالمين سبحانه، ولكن من قال هذه الكلمة بلسانه، لا تنفعه عند الله إلا إذا أقرَّ بقلبه، ونطق بها أيضًا: بلسانه، ولذلك إذا أيقن الإنسان بقلبه، ولم يُقرّ بلسانه؛ فلا ينفعه يقينه هذا، إلا إذا اتبعه بإقرار اللسان، وإلا فهو كمن قال الله فيهم: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٤].

وهذا يُبين منهج المرجئة، أو غلاه المرجئة الفاسد الذين يقولون: بأن الإيمان ما قام في القلب، حتى ولو لم ينطق به الإنسان، فأهل الكتاب مثلًا يعرفون النبي ﷺ ويعلمونه، ولكنهم يُنكرونه، ولم ينطقوا بلسانهم بالإيمان به؛ فلم ينفعهم هذه المعرفة التي قامت بقلوبهم، وقد قال الله عنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦]، فلن تغني عنهم معرفتهم، ولا عن أولئك يقينهم؛ حتى يتمَّ ذلك بالإقرار والشهادة باللسان، مُعْلَنَةً أمام الناس؛ حتّى يُحكم لهم بالإسلام.

وأما الّذي أقرّ بلسانِهِ، ولم يُؤمن بقلبه؛ فالشّهادة لا تنفعه كذلك؛ لأنه فيما عند الله يكون منافقًا يُظهر الإيمان، ويُبطل الكفر، وهذا أسوأ حالًا عند الله ﷻ من الكافر الأصلي، ومن هنا قال الله -تبارك وتعالى- في المنافقين نفاقًا اعتقاديًّا: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء: ١٤٥]، وصفاتهم كما بينها الله في القرآن الكريم في سورة "البقرة"، و"النساء" و"المائدة" و"التوبة" على وجه الخصوص والتفصيل، وفي غير هذه الصور على وجه العموم والإجمال.

أما عندنا: فنعامله معاملة المسلمين، كما كان فعله ﷺ وفعل أصحابه أيضًا؛ حيث كانوا يأخذون من الناس الظاهر، ويكلون تولي السرائر إلى رب العباد جلَّ في علاه.

وأما الذي آمن بقلبه وأقرَّ بلسانه، ولم يعمل بالأركان؛ فهو إما إنه تارك لها، غيرُ مقر بها، أو جاحدٌ لها أو مستهزئ بها، أو كاره لشيء منها، أو مؤمنٌ بشيء منها دون شيء، أو منكر لمعلوم من الدين بالضرورة، وأمثال هذا، فإنه لا تنفعه شهادته، ويكون حكمه بعد إقامة الحجة عليه أنه كفر بعد إيمانه، وارتدَّ بعد إسلامه.

هذا فيمن قال بأنه قام في قلبه هذا الإقرار، ثم أقرَّ بلسانه به، ولكنه جاحد أو مستهزئ، أو كاره. هذا لا يُعَدّ من أهل الإيمان، وهو لم يأتِ بِكَلمَة التوحيد على وجه الحقيقة، وأمّا إنْ كَان تاركًا لهذه الكلمة، مع الإقرار بجميعها والاعتراف بها، إلا أنه انشغل عنها، أو تكاسل في أداء الأعمال؛ لحدُوث إسلامه، أو نشوئه في البادية، أو جَهله أو عصيانه، أو نحو ذلك؛ فهو على الصحيح لا يكفر بترك شيء من هذا، أعني: بترك شيء من الأعمال، مع الإقرار والاعتراف به في أرجح الأقوال؛ إلا أن أهل العلم اختلفوا فيمن ترك الصلاة، وكثير من أهل العلم يرون أنه من الكفار، ولكن هذه المسألة مسألة عظيمة، وفيها تفصيل وخلاف بين أهل العلم، سيأتي ذكره فيما بعدُ إن شاء الله -تبارك وتعالى.

ذكر ما يُناقض كلمة التوحيد "الناقض الأول: الكفر

أ- المراد بنواقض التوحيد:

نعني: بنواقض التوحيد أسباب الخروج من الإسلام، بعد الدخول فيه، وذلك حسب القاعدة الجامعة، التي اتفق عليها أهل السنة والجماعة، وفي الحقيقة أختار في التعبير هنا عن هذه الكلمات، ما قاله الإمام الطحاوي -رحمه الله تبارك وتعالى- في (العقيدة الطحاوية): "ونُسَمّي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين، ما دَاموا بما جاء به النبي ﷺ معترفين، وله بكل ما قاله وأخبر مصدقين".

فنحن نُسمي أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين، إذا اعترفوا وأقرُّوا بصدق نبينا ﷺ، وبصدق ما جاء به، وهؤلاء من أهل الإسلام ولا يخرجون، ولا نُكفر أحدًا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، ولا نقولُ: لا يَضُرّ مع الإيمان ذنب لمن عمله، ونرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفوا الله -تبارك وتعالى- عنهم، ويدخلهم الجنة برحمته، ولا نأمن عليهم، ولا نشهد لهم بالجنة، ونستغفر لمسيئهم، ونخاف عليهم، ولا نقنِّطهم.

والأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام: الأمن من مكر الله يجعل الإنسان يخوضُ في معاصي الله، ولا يعرفُ قدر ربه ومولاه، ويَخْرُج من كل ذلك؛ فينتقل عن ملة الإسلام، كَذلِك اليأس من رحمة ربي العالمين؛ فالله ﷻ قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]. وسبيلُ الحَقّ بينهما لأهل القبلة، بين الأمن وبين الإياس، ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه.

هذه قاعدة عظيمة جدًّا ذكرها الإمام الطحاوي -رحمه الله تبارك وتعالى- تُبيِّن من هم أهل الإيمان؟ وما حكم مرتكب الكبيرة من أهل الإيمان، وما هو الشيء الذي يناقض الإيمان، ويناقض كلمة التوحيد؟ وقد شرح ذلك الإمام ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله تبارك وتعالى- فقال: بيان هذه القاعدة: "أنّ الشّارعَ الحكيم قد جعل للإيمان والإسلام مدخلًا وبابًا يُدخل منه، وهو كما علمتُ: الإقرار والتصديق بالشهادتين".

فمن ولج إلى الإسلام من هذا الباب؛ فإنّه لا يَخْرُج منه: إلا أن يصدر عنه قول أو عمل أو اعتقاد يُناقض إقراره السابق، وتصديقه بالشهادتين. فما كان مناقضًا لمعنى الشهادتين -أي: مضادًا لتوحيد الله في ربوبيته وأسمائه وصفاته وأفعاله

وتوحيده في ألوهيته- وعدم توجه الإنسان بالعبادة له سبحانه، أو مكذبًا بشيء مما جاء به النبي محمد ﷺ من الشرائع، ومن أمور الغيب أو غير ذلك؛ فهذا يكون مناقضًا لما أقر به، واعترف به من الشهادتين.

فمن كَذّب بشيء مما جاء به النبي ﷺ أو كذب بشيء من أمور الغيب مثلًا؛ أو ناقض توحيده هذا بأمر يُخالف ما جاء من عند رب العالمين ﷻ جل في علاه؛ فيَكُون بهذا قد نقض بما اعتقده ما قاله بلسانه إن كان قال كلمة التوحيد بلسانه.

ب- الناقض الأول: وهو الكفر:

الكفر هو الناقض الأول من نواقض التوحيد، وينبغي أن نعلم: أنّ تكفير من يُجاهر بالكفر دون استحياء، لا بُدّ أن يُكفر، إلا أننا لا بد أن نَكُفّ عمن ظاهره الإسلام.

بعض أصناف الكفرة الذي كُفرهم يناقض كلمة التوحيد هنا: ومن هؤلاء الشيوعيون المصرون على الشيوعية؛ الذين يؤمنون بها فلسفة ونظام حياة، رغم مناقضتها الصريحة لعقيدة الإسلام وشريعته وقيمه، والذين يؤمنون بأن الدين أفيون الشعوب، ويُعادون الأديان عامه، ويَخُصون الإسلام بمزيد من العدواة والنقمة؛ لأنه عقيدة ونظام وحضارة كاملة، هؤلاء لا شك أنهم كفار، وليس هناك ما يعرف بمسلم شيوعي، كما يزعم البعض، وذلك لاختلاف الإسلام في كل شيء عن الشيوعية.

ولذلك أقول: من رضي بنظام الشيوعية في الاقتصاد؛ فقد كره ما جاء في الإسلام، وهذا وحده يكفي في كفره ومروقه من الإسلام.

كذلك أيضًا من أصناف الكفرة: العلمانيون الذين يرفضون جهره شرع رب العالمين ﷻ جل في علاه، وينادون بأنّ الدولة يجب أن تنفصل عن الدين، وإذا

دُعوا إلى حكم الله، وحكم رسوله ﷺ أبوا وامتنعوا، وأكثر من ذلك أنهم يُحاربون من يَدعون إلى تحكيم شريعة الله، والعودة إلى الإسلام.

هذا ومُحاولة فصل الدين عن الدولة هي أقصر طريق إلى الكفر، وفيه إعلان الحرب على الله، وإنكار أكبر معالم الدين، ويستثنى من ذلك العامة الذين لا يعرفون مقاصد العلمانية، ويُزين لهم الباطل وهم جهال، فيقبلونه.

أيضًا من أصناف الكفرة الذين مرقوا من الدين، وناقض كفرهم توحيد رب العالمين، من أصنافهم: أصحاب النحل التي مرقت من الإسلام مروقًا ظاهرًا، وذلك كالدرزية، والنصيرية، والإسماعيلية. وأمثالهم من الفرق الباطلة، الذين قال عنهم الإمام الغزالي -رحمه الله تبارك وتعالى: "ظاهرهم الرفض، وباطنهم الكفر المحض".

وقال عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله: "إنهم أكفر من اليهود والنصارى؛ وذلك لإنكارهم قطعيات في الإسلام وأساسات فيه، وما عُلم منه بالضرورة، ومثلهم في عصرنا الحاضر: البابية، والبهائية، والقديانية. وهذه أديان جديدة قائمة برأسها تناقض دين الإسلام، وكل ذلك من الكفر الذين يُناقض كلمة التوحيد.

ويُلحق بهذه الأصناف ما ذكرته من أنواع، وهو: كفر التكذيب، وكفر الإباء والاستكبار، وكفر الإعراض، وكفر الشك، وكفر النفاق. استودعكم الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

نواقض التوحيد (٢)

عناصر الدرس

العنـــــــــصر الأول : الناقض الثاني من نواقض التوحيد الشركُ الأكبر ٨٥
العنـــصر الثـــاني : الناقض الثالث من نواقض التوحيد النفاق الأكبر ٩٨

الناقض الثاني من نواقض التوحيد: الشركُ الأكبر

أ. تعريف الشرك الأكبر وبيان حكمه:

قد يقول قائل: وأين الشرك الأصغر؟ أقول: بأن الشرك الأصغر لا يخرج العبد به من التوحيد والإيمان، إلا إذا اعتقد شيئًا يؤدي به إلى الشرك الأكبر. أما الشرك الأصغر كيسير الرياء، أو الشرك في الألفاظ كالحلف بالمخلوق، وما شابه ذلك، فهذا ليس من نواقض التوحيد، بل هو من منقصات التوحيد. ونواقض التوحيد- هي التي إذا وجدت عند العبد خرج من دين الله بالكلية، كالكفر الأكبر كما تقدم ذكره، وكالشرك الأكبر.

الشرك الأكبر هو أن يتخذ العبد لله ندًّا يسوِّيه بالله ﷻ في ربوبيته أو إلوهيته أو أسمائه وصفاته، هذا هو الشرك الأكبر، أن يجعل العبد لله -تبارك وتعالى- شبيهًا ومثيلًا وندًّا يتوجه إليه، وغير ذلك.

بعد أن عرفت الشرك الأكبر، أود أن أبين حكمه:

إن الشرك الأكبر من أعظمِ الذنوب على الإطلاق، بل هو أعظمُ ذنبٍ عُصِيَ الله به، فهو أكبر الكبائر وأعظم الظلم؛ لأن الشرك صرفُ خالصِ حق الله تعالى، وهو العبادة لغير الله -تبارك وتعالى، أو وصف أحدٍ من خلق الله ﷻ بشيء من صفاته التي اختصَّ بها -عز جل، ولذلك بيَّنَ اللهُ -تبارك وتعالى- جُرم الشرك فقال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان: ١٣].

ولذلك رتَّب الشرع عليه آثارًا، وعقوبات عظيمة، أهمها أن الله لا يغفره إذا مات صاحبه ولم يتب منه، وهذا هو صريح قول الحق -تبارك وتعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦]. أيضًا من عقوبات

الشرك الأكبر، أن صاحبه خارج عن ملةِ الإسلامِ حلال الدم والمال، قال الله -تبارك وتعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ ﴾ [التوبة: ٥].

والله -تبارك وتعالى- لا يقبل من المشرك عملًا، وما عمله من أعمال سابقة تكون هباءً منثورًا، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٥].

ومن عقوباته أيضًا: أنه يحرم على هذا المشرك أن يتزوج بمسلمة، كما يحرم أن يتزوج المسلم بمشركة، الشارع استثنى من ذلك على الراجح أهل الكتاب، قال الله ﷻ في بيان عدم جواز، أن يتزوج المشرك بمسلمة، أو أن يتزوج المسلم مشركة: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وإذا مات هذا المشرك فلا يُغسل، ولا يُكفن، ولا يُصلى عليه، ولا يُدفَن في مقابر المسلمين، وإنما يُحفرُ له حفرةً بعيدة عن الناس، ويُدفن فيها؛ لئلا يؤذي الناس برائحته الكريهة.

وآخر أمر أُبينه هنا من آثار وعقوبات الشرك الأكبر الخطيرة العظيمة: أن دخول الجنة حرام على المشرك، وهو مخلَّد أبد الآباد في نار الجحيم كما قال -تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢].

ب- أقسام الشرك الأكبر:

القسم الأول: الشرك في الربوبية:

ومعناه أن يجعل العبد لغير الله -تبارك وتعالى- مع الله نصيبًا من الملك أو التدبير، أو الخلق أو الرزق الاستقلالي، وهذا النوع من الشرك، أو القسم من الشرك له صور عديدة منها:

شرك النصارى: الذين يقولون الله ثالث ثلاثة، وشرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور، وهو عندهم الإله المحمود، وحوادث الشر إلى الظلمة. ومن صور هذا الشرك أيضًا، وأعني به الشرك الواقع في الربوبية: شرك القدرية: الذين يزعمُونَ أن الإنسان يخلقُ أفعالَهُ، ويقولون: لا قدر والأمر أُنُف، أي: مستأنف، لا يعلمه الله -عز جل- إلا بعد وقوعِهِ، وهذا شرك في الربوبية.

ومنه أيضًا: شرك كثير من غلاة الصوفية والرافضة: من عُباد القبور، الذين يعتقدون أن أرواح الأموات تَتَصَرَّفُ بعد الموت، فتقضي الحاجات، وتفرج الكربات، أو يعتقدون أن بعض مشايخهم يتصرف في الكون، أو يغيث من استغاث به، ولو مع غيبته عنه.

ومن صور هذا الشرك أيضًا الاستسقاء بالنجوم: وذلك باعتقاد أنها مصدر السقيا، وأنها التي تُنزِّل الغيث بدون مشيئة الله وتعالى، وأعظم من ذلك أن يُعتقد أنها تتصرف في الكون بالخلق أو الرزق أو الإحياء، أو الإماتة، أو بالشفاء، أو المرض، أو الربح، أو الخسارة، فهذا كله من الشرك الأكبر، قال الله -تبارك وتعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، والمعنى: تجعلون شكركم لله على ما رزقكم الله من الغيث والمطر ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: تنسبونه

إلى غيرِه، وقال النبي ﷺ: ((أربعٌ من أُمتي من أمر الجاهلية لا يتركونَهُنَّ، الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة))، وهذا حديث صحيح، أخرجه الإمام مسلم.

القسم الثاني: من أقسام الشرك الأكبر، الشرك في الأسماء والصفات:

وهو أن يجعل العبدُ لله تعالى، مماثلًا في شيء من الأسماء أو الصفات، أو يصف الله تعالى بشيء من صفات خلقه، فمن سمى غير الله باسمٍ من أسماءِ اللهِ تعالى، معتقدًا اتِّصَاف هذا المخلوق بما دلَّ عليه هذا الاسم، مما اختصَّ الله تعالى به، أو وصفَهُ بصفةٍ من صفات الله تعالى الخاصةِ به، فهو مشرك في الأسماء والصفات، وكذلك من وصَفَ الله تعالى بشيءٍ من صفات المخلوقين، فهو مشرك في الصفات.

ومن صور هذا الشرك: الشرك بدعوى علم الغيب، أو باعتقاد أن غير الله تعالى يعلم الغيب، فكل ما لم يطَّلِعُ عليه الخلق، ولم يعلموا به بأحد الحواس الخمس، التي هي السمع والبصر، والشم، واللمس، والذوق، فمن سمع شيئًا، أو أخبره مخبرٌ من الجن أو الإنس بشيء رآه أو سمعه؛ فقد علمه بطريق السمع، إما بنفسه، أو عن طريق سماع كلام هذا الذي رآه أو سمعه، وهكذا بقية الحواس.

وليس من ادِّعاء علم الغيب، ما يعرف من نتائج بعض الأمور من النظر في مقدماتها، ولا الإخبار عن المسببات من النظر في أسبابها، كما يحصل في علم الطب، من معرفة شفاء المرض بعلاج معين ونحو ذلك، وكما يحصل في علم الفلك من رصده هبوب الرياح أو معرفة وقت الكسوف، ونحو ذلك على تفصيل لا يتسع المقام له.

وقد ذكر شيخنا محمد بن صالح بن عثيمين -رحمه الله تبارك وتعالى- في كتابه القيم (القول المفيد): "أن الإخبار عن أحوال الطقس في أربع وعشرين ساعة ونحوها، ليس من ادِّعاء علم الغيب؛ لأنه يستند إلى أمور حسية، وهي تكيف الجو؛ لأن الجو يتكيف على صفةٍ معينةٍ، تُعرف بالموازين الدقيقة عندهم، فيكون صالحًا بأن يمطر، أو لا يمطر، بإذن الله -تبارك وتعالى.

ولذلك أقول: بأنني أقصدُ بهذه الصورة من الشرك، وأعني وقوع الشرك بدعوى علم الغيب ادِّعَاء علم الغيب دون أن يكون هناك دليل صحيح، يرشد إلى أمر يمكن أن يعلمه الإنسان، إما بجانب علمي أو بجانب تجاربي، أو غير ذلك من الجوانب.

وعلم الغيبِ أمرٌ اختص الله ﷻ به وحده دون سواه، كما قال -تبارك وتعالى- عن نفسه: ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [النمل: ٦٥]، وقال -جل شأنه: ﴿ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ [يونس: ٢٠]، وقال ﷻ ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال لنبيه وحبيبه ومصطفاه محمد ﷺ ﴿ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وقال لنبيِّه ﷺ أيضًا: ﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ [الأنعام: ٥٠].

فمن ادَّعى بعد ذلك أن أحدًا من الخلق يعلم الغيب، فقد وقع في الشرك الأكبر المخرج من الملة؛ لأن في ذلك ادِّعاء مشاركةِ اللهِ تَعالَى، في صفة من صفاته الخاصة به وهي علم الغيب، ومن أمثلة الشرك بدعوى علم الغيب ما يلي:

أ- اعتقاد أن الأنبياء، أو أن بعض الأولياء والصالحين يعلمون الغيب: وهذا الاعتقاد يوجد عند غُلاة الرافضة والصوفية، ولذلك تجدهم يستغيثون بالأنبياء

والصالحين الميتين، وهم بعيدون عن قبورهم، ويدعون بعض الأحياء وهم غائبون عنهم، ويعتقدون أنهم جميعًا يعلمون بحالهم، وأنهم يسمعون كلامهم، وهذا كله شرك أكبر مُخرج من الملة.

ب- الكهانة: والكاهن هو الذي يدعي أنه يعلم الغيب، مثله أو قريب منه العراف، الذي يدعي أنه يعرف الأمور في المستقبل، أو الرمال ونحو هؤلاء. فكل من ادَّعى أنه يعرف علم ما غاب عنه، دون أن يخبره به مخبر، أو زعم أنه يعرف ما سيقع قبل وقوعه، فهو مشرك شركًا أكبر، سواء ادعى أنه يعرف ذلك عن طريق الطرق بالحصى، أم عن طريق حروف أبا جاد، أم عن طريق الخط في الأرض، أم عن طريق قراءة الكفّ، أم عن طريق النظر في الفنجان، أم غير ذلك. كل هذا من الشرك، وقد قال النبي ﷺ: ((ليس منا من تطيَّر أو تُطيِّر له، أو تكهَّن أو تُكُهِّن له، أو سحَر أو سُحِرَ له، ومن أتى كاهنًا فصدَّقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمدﷺ)).

ج- اعتقاد بعض العامة أن السحرة أو الكهان يعلمون الغيب، أو أن يصدق أحد من الناس هؤلاء في دعواهم معرفة ما سيقع في المستقبل: فمن اعتقد ذلك أو صدَّقهم فيه؛ فقد وقع في الشرك المخرج من الملة، وقد ثبت عن النبي ﷺ: ((من أتى كاهنًا أو عرافًا، فصدَّقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ))

والكفر يقع على هؤلاء، إن اعتقدوا أن هؤلاء السحرة والكهان يعلمون الغيب استقلالًا، وأنه بيدهم أمور يتصرفون بها في الكون وغير ذلك.

د- التنجيم: وتعريف التنجيم: الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية المستقبلة، وذلك أن المُنجم يدَّعي من خلالِ النظرِ في النجوم معرفةَ ما سيقعُ في الأرض من نصرٍ لقوم، أو هزيمة لآخرين، أو خسارة لرجل أو ربح

لآخر، ونحو ذلك، وهذا لا شك من دعوى علم الغيب فهو شرك بالله تعالى، ومما يفعله كثير من المشعوذين والدَّدَاجِلة، أن يدَّعي أن لكل نجم تأثيرًا معينًا على من وُلد فيه، فيقول مثلًا: فلان وُلد في برج كذا فسيكون سعيدًا، وفلان ولد في برج كذا فستكون حياته شقاء، ونحو ذلك، وهذا كله كذب، ولا يصدقه إلا جهلة الناس وسفهاؤهم. قال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله: "فهذا اتخذ تعلم النجوم وسيلة لادعاء علم الغيب، ودعوى علم الغيب كفر مخرج من الملة".

القسم الثالث من أقسام الشرك الأكبر: الشرك في الألوهية:

وهو اعتقاد أن غير الله تعالى يستحقّ أن يُعبد، أو صرف شيء من العبادة لغير الله، وأنواع هذا الشرك في الألوهية ثلاثة هي:

الأول: اعتقاد شريك لله تعالى في الألوهية: فمن اعتقد أن غير الله تعالى يستحق العبادة مع الله، أو يستحق أن يُصرف له أي: نوع من أنواع العبادة، فهو مشرك في الألوهية، ويدخل في هذا النوع من يُسمي ولده، أو يتسمَّى باسم يدل على التعبُّد لغير الله تعالى، كمن يتسمَّى بعبد الرسول، أو بعبد الحسين، أو غير ذلك، فمن سمى ولده أو تسمى بشيء من هذه الأسماء، التي فيها التعبد للمخلوق، معتقدًا أن هذا المخلوق يستحق أن يُعبد؛ فهو مشرك بالله تعالى.

أما النوع الثاني من أنواع الشرك في الألوهية: فهو صرف شيء من العبادات المحضة لغير الله: فالعبادات المحضة بأنواعها القلبية والقولية العملية والمالية، حقٌّ لله تعالى، لا يجوز أن تُصرف لغيره، فمن صرف شيئًا منها لغير الله؛ فقد وقع في الشرك الأكبر.

والشرك بصرف شيء من العبادة لغير الله له صورٌ كثيرة، يُمكن حصرها في الأمرين التاليين:

الأمر الأول: الشرك في دعاء المسألة:

ودعاء المسألة: هو أن يطلب العبد من ربه جلب مرغوب أو دفع مرهوب، ويدخل في دعاء المسألة الاستعانة والاستغاثة والاستعاذة والاستجارة، قال الخطابي -رحمه الله تبارك وتعالى: "ومعنى الدعاء استدعاء العبد ربه ﷻ العناية، واستمداده إيَّاه المعونة، وحقيقته إظهار الافتقار إلى الله، والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية، واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله سبحانه، وإضافة الجود والكرم إليه".

والدعاء من أهم أنواع العبادة، فيجب صرفه لله تعالى، ولا يجوز لأحد أن يدعو غيره كائنًا من كان، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠]. وقال -تبارك وتعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ﴾ [الجن: ١٨].

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: ((الدعاءُ هو العبادة))، وقال ﷺ في وصيته لابن عباس: ((إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله))، فمن دعا غير الله؛ فقد وقع في الشرك الأكبر.

ومن أمثلة الشرك في دعاء المسألة ما يلي:

- أن يطلب من المخلوق ما لا يقدر عليه إلا الخالق، سواء أكان هذا المخلوق حيًّا أم ميتًا، نبيًّا أم وليًّا، أم ملكًا أم جنيًّا أم غيرهم، كأن يطلب منه شفاء مريضه، أو نصره على الأعداء، أو كشف كربة، أو أن يغيثه، أو أن يعيذه، وغير ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله، فهذا كله شرك أكبر، مخرج من الملة بإجماع المسلمين؛ لأنه دعا غير الله تعالى واستغاث به واستعاذ به، وهذا كله عبادة، لا يجوز أن تُصرف

لغير الله بإجماع المسلمين، وصرفها لغيره الله شرك، ولأنه اعتقد في هذا المخلوق ما لا يقدر عليه إلا ﷻ.

ومن أمثلته أيضًا دعاء الموتى ودعاء الغائبين الذين لا يسمعون:

فمن دعا غائبًا أو دعا ميتًا وهو بعيد عن قبره، وهو يعتقد أن هذا المدعو، يسمع كلامه أو يعلم بحاله، حتى ولو كان قريبًا من هذا القبر وقد مات، فهو لا يعلم شيئًا عنه. ومن فعل ذلك؛ فقد وقع في الشرك الأكبر، سواء أكان هذا المدعوُّ نبيًّا أم وليًّا أم عبدًا صالحًا أم غيرهم، وسواء طلب من هذا المدعو ما لا يقدر عليه إلا الله، أم طلب منه أن يدعو الله تعالى له، ويشفع له عنده. فهذا كله شرك بالله تعالى مخرج من الملة، لما فيه من دعاء غير الله، ولما فيه من اعتقاد أن المخلوق يعلم الغيب، ولما فيه من اعتقاد إحاطة سمعه بالأصوات، وهذا كله من صفات الله تعالى التي اختصَّ الله بها، فاعتقاد وجودها في غيره، شرك مخرج من الملة.

- ومن أمثلته أيضًا أن يجعل العبد بينه وبين الله تعالى واسطة في الدعاء:

ثم يعتقد أن الله تعالى لا يجيب دعاء من دعاه مباشرة، بل لا بد من واسطة بين الخلق وبين الله تعالى في الدعاء، فهذه شفاعة شركية مخرجة من الملة، واتخاذ الوسطاء والشفعاء هو أصل شرك العرب، فهم كانوا يزعمون أن الأصنام تماثيل لقوم صالحين، فيتقربون إليهم طالبين منهم الشفاعة، كما قال سبحانه: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣].

الأمر الثاني: الشرك في دعاء العبادة:

ودعاء العبادة: هو عبادة الله تعالى بأنواع العبادات القلبية والقولية والفعلية، كالمحبة، والخوف، والرجاء، والصلاة، والصيام، والذبح، وقراءة القرآن،

وذكر الله تعالى، وغير ذلك. وسُمي هذا النوع دعاء باعتبار أن العابد لله بهذه العبادات، طالب وسائل لله في المعنى؛ لأنه إنما فعل هذه العبادات؛ رجاءً لثوابِهِ، وخوفًا من عقابِهِ، وإن لم يكن في ذلك صيغةُ سؤالٍ وطلب، فهو داعٍ لله تعالى بلسان حاله لا بلسان مقاله.

ومن أمثلة الشرك في هذا النوع:

أ- الشرك في الخوف: الخوف الشركي: هو أن يخاف من مخلوق خوفًا مقترنًا بالتعظيم، والخضوع والمحبة، ومن ذلك الخوف من صنم مثلًا، أو من ميت خوفًا مقرونًا بتعظيم ومحبة، فيخاف أن يصيبه بمكروه بمشيئته وقدرته؛ كأن يخاف أن يصيبه بمرض، أو بآفة في ماله، أو يخاف أن يغضب عليه فيسلبه نعمه، فهذا من الشر الأكبر؛ لأنه صرف عبادة الخوف والتعظيم لغير الله، ولما في ذلك من اعتقاد النفع والضر في غير الله تعالى، قال الله -جل جلاله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨]، ومن الخوف الشركي أن يخاف من مخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى.

ب- الشرك في المحبة: المحبة الشركية هي أن يُحب مخلوقًا محبةً مقترنةً بالخضوع والتعظيم. وهذه هي محبة العبودية التي لا يجوز صرفها لغير الله، فمن صرفها لغيره؛ فقد وقع في الشرك الأكبر، قال الله -تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ج- الشرك في الرجاء، وهو من أمثلة هذا النوع من الشرك: ومعنى الشرك في الرجاء أن يرجو من مخلوق، ما لا يقدر عليه إلا الله. كمن يرجو من مخلوق أن

يرزقه ولدًا، أو يرجو من مخلوق أن يشفيه بإرادته وقدرته، فهذا من الشرك الأكبر المخرج من الملة.

د- الشرك في الصلاة والسجود والركوع: فمن صلى أو سجد أو ركع، أو انحنى لمخلوق، محبةً وخضوعًا له، وتقربًا إليه؛ فقد وقع في الشرك الأكبر بإجماع أهل العلم، قال الله تعالى ناهيًا عن ذلك: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وقال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل لما سجد له: ((لا تفعل، فإني لو كنت آمرًا أحدًا أن يسجد لغير الله، لأمرتُ المرأةَ أن تسجد لزوجها))، وقال ﷺ: ((ما ينبغي لأحد أن يسجد لأحد))، ولأنه قد صرف شيئًا من العبادة لغير الله ﷻ، وصرف العبادة لغيره شرك بإجماع أهل العلم.

هـ- الشرك في الذبح: وهو الذبح تقربًا إلى مخلوق، وتعظيمًا له وخضوعًا: والذبح عبادة ولا يجوز التقرب به إلى غير الله أبدًا، فمن ذبح تقربًا إلى مخلوق وتعظيمًا له؛ فقد وقع في الشرك الأكبر، وذبيحته محرمة لا يجوز أكلها؛ سواء أكان هذا المخلوق من الأنس، أم من الجن، أم من الملائكة، أم كان قبرًا، أم غيره، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، وعن علي بن أبي طالب < قال: قال النبي ﷺ: ((لعن الله من ذبح لغير الله)).

و- الشرك في النذر والزكاة والصدقة: النذر هو إلزام مكلف مختار نفسه عبادة لله تعالى، ليست واجبة عليه بأصل الشرع، كأن يقول مثلًا: لله علي نذر أن أفعل

كذا، أو لله علي أن أصلي، أو أصوم كذا، أو أتصدق بكذا، أو ما أشبه ذلك. والنذر عبادة من العبادات لا يجوز أن يُصرف لغير الله تعالى، فمن نذر لمخلوق كأن يقول: لفلانٍ عليَّ نذرٌ أن أصوم يومًا، أو لقبر فلان علي أن أتصدق بكذا، أو إن شُفِيَ مريضي، أو جاء غائبي للشيخ فلان؛ عليَّ أن أتصدق بكذا، أو لقبره؛ عليَّ أن أتصدق بكذا. فقد أجمع أهل العلم على أن نذره محرم وباطل، وعلى أن من فعل ذلك، فقد أشرك بالله تعالى الشرك الأكبر المُخرج من الملة؛ لأنه صرف عبادة النذر لغير الله، ولأنه يعتقد أن الميت ينفع ويضر من دون الله، وهذا كله شرك.

ومثله إخراج زكاة المال، وتقديم الهدايا والصدقات، إلى قبر ميت تقربًا إليه، أو تقديمها إلى سدنة القبر تقربًا إلى الميت، أو تقديمها إلى الفقراء الذين يذهبون إلى القبر، وكان يفعل ذلك تقربًا إلى الميت، أو تقديمها إلى الفقراء الذين يذهبون إلى قوم يعكفون عندهم بحجة أن البركة تحل في مكان كذا أو كذا، أو أن هذه البقعة لها شرف على غيرها من البقاع، ويجلسون عندها متبرِّكين بشرف البقعة، متوجهين بكليتهم إليها دون رب العالمين -سبحانه جل في علاه. فهذا كله من الشرك الأكبر أيضًا، لما فيه من عبادة غير الله، ومن اعتقاد أن هذا الميت ينفع أو يضر من دون الله ﷻ.

وما قلته في النذر والزكاة والصدقة، وكل ذلك عبادة، يقال في الصيام والحج والطواف وغير هذا، فالصيام والحج من العبادات التي لا يجوز صرفها لغير الله، فمن صام وقصد بصومه ميتًا أو غائبًا يرجو نفعه وغير ذلك؛ فقد أشرك مع الله، كذلك الذي يحج إلى غير الكعبة، أو يحج إلى الكعبة تقربًا إلى وليٍّ أو ميت، أو غير ذلك من المخلوقين، أو يحج تقربًا إلى صاحبه؛ فهذا كله من الشرك الأكبر المخرج من الملة.

والطواف عبادة بدنية، لا يجوز أن تُصرف إلا لله تعالى، ولا يجوز أن يُطاف إلا بالكعبة المشرفة، وهذا كله مجمع عليه؛ بل إن الطواف هو العبادة الوحيدة، التي لا يُمكن أن يفعلها الإنسان إلا في مكة وحول الكعبة، فالإنسان يصلي في أيِّ مكان وجد ويصوم كذلك، ولكنه لا يطوف إلا بالكعبة الموجودة في بيت الله الحرام في مكة المكرمة.

وهكذا بقية العبادات كالتوكل والتبرك، والتعظيم البالغ، والخضوع، وقراءة القرآن، والذكر، والآذان، والتوبة، والإنابة، فهذه كلها عبادات لا يجوز أن تُصرف لغير الله.

النوع الثالث من أنواع الشرك في الألوهية: الشرك في الحكم والطاعة:

ومن صور هذا الشرك، أن يعتقد أحد أن حكم غير الله أفضل من حكم الله أو مثله، فهذا شرك أكبر مخرج من الملة؛ لأنه مكذب للقرآن، فهو مكذب لقول الله تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [التين: ٨]، وهذا استفهام تقريري، أي: أن الله تعالى أحكم الحاكمين، فليس حكم أحد غيره أحسن من حكمه ولا مثله.

أو أن يعتقد إنسان جواز الحكم بغير ما أنزل الله، فهذا شرك أيضًا من أكبر؛ لأنه اعتقد خلاف ما دلت عليه النصوص القطعية من الكتاب والسنة المحمدية، أو أن يضع تشريعًا أو قانونًا، مخالفًا لما جاء في كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ ويحكم به معتقدًا جواز الحكم بهذا القانون، أو معتقدًا أن هذا القانون خير من حكم الله، أو أنه كحكم الله ﷻ، والذين يحكمون بعادات الآباء الأجداد، وهم يعلمون أنها مخالفة لحكم الله، إذا حكموا بها معتقدين أنها أفضل من حكم الله، أو أنها مثل حكمه سبحانه؛ فلا شك أن هذا شرك أكبر مخرج عن الملة.

الناقض الثالث من نواقض التوحيد: النفاق الأكبر

أ- تعريف النفاق الأكبر وبيان حكمه:

النفاق في اللغة: إخفاء الشيء وإغماضه.

وفي الاصطلاح: أن يُظهر الإنسان الإيمان بالله، وملائكته، كتبه، ورسله، واليوم الآخر، ويُبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه، وذلك بأن يكون في الظاهر أمام الناس يدَّعي الإسلام، ويُظهر لهم أنه مسلم، وربما يعمل أمامهم بعض العبادات، كالصلاة، والصيام، والحج وغيرها، ولكن قلبه -والعياذ بالله تعالى- لا يؤمن بتفرد الله تعالى بالألوهية، أو بالربوبية، أو لا يؤمن برسالةِ النبي ﷺ أو يُبغضه، أو لا يؤمن بكتب الله المنزلة، أو لا يؤمن بعذاب القبر، أو لا يؤمن بالبعث، أو يعتقد أن دين النصارى أو دين اليهود، أو دين غيرهم من الكفار حقٌّ أو خيرٌ من الإسلام، أو يعتقد أن الإسلام دين ناقص، أو لا يصلح للتطبيق في هذا العصر، أو يعتقد أن فيه ظلمًا لبعض فئات المجتمع، أو فيه ظلم للنساء، أو أن بعض تشريعاته فيها ظلم.

أما حكم المنافق: فهو حكم المشرك شركًا أكبر، وكذلك حكمه حكم الكافر كفرًا أكبر؛ لأن المنافقين في الحقيقةِ كفار، وإن كانوا أسوء حالًا من سائر الكفار؛ لأنهم زادوا على الكفر الكذب والمراوغة والخداع، وضررهم على المسلمين أشدُّ؛ لأنهم يندسُّون بين المسلمين، ويُظهرون أنهم منهم، ويحاربون الإسلام باسم الإصلاح، ولذلك فهم أشدُّ عذابًا في الآخرة من سائر الكفار، كما قال الله -تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

ب- أعمال المنافقين الكفرية:

للمنافقين أعمال كفرية يُستدل بها على ما يُبطنون من النفاق، وقد بينها الله تعالى في كتابه كما في سورة التوبة التي تُسمى الفاضحة؛ لأن الله تعالى فضحَ فيها المنافقين، ببيانِ أعمَالِهم الكفرية، كما بينها أيضًا في سور أخرى كثيرة.

ومن هذه الأعمال: الاستهزاء بالله ورسوله ﷺ وبالقرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ [التوبة٦٥: ٦٦].

ومن أعمال المنافقين الكفرية: سبُّ الله تعالى، أو سب رسوله ﷺ، أو تكذيبهما، قال الله تعالى عنهم: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ [التوبة: ٥٨]، أي: ومن المنافقين من يعيبك في تفريق الصدقات، فيتهمونك بعدم العدل، وأصل اللمز الإشارة بالعين ونحوها.

ومن أعمالهم أيضًا: الإعراض عن دين الإسلام وعيبه، والعمل على إبعاد الناس عنه، وعلى عدم التحاكم إليه، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء: ٦١].

ومن أعمالهم التحاكم إلى الكفار، والحرص على تطبيق قوانينهم، تفضيلًا لها على حكم الله، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ٦٠].

ومن أعمالهم أيضًا: وهو في الحقيقة خطيرٌ في العصر الراهن والحاضر، اعتقاد صحة المذاهب الهدَّامة، والدعوة إليها مع معرفةِ حقيقتِهَا، ومن هذه المذاهب ما جدَّ في هذا العصر من مذاهب هي في حقيقتها حرب للإسلام، ودعوة للاجتماع

على غير هديه كالقومية والوطنية، فكثير من المنافقين في هذا العصر ممن يسمون علمانيين أو حداثيين أو قوميين، يعرفون حقيقة هذه المذاهب، ويدعون إلى الاجتماع على هذه الروابط الجاهلية، ويدعون إلى نبذ رابطة الإيمان والإسلام، التي ذكرها ربنا -جل وعلا- بقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠].

وأعمال هؤلاء المنافقين الذين كفروا بها كثيرة، أذكر آخر عمل هنا وأختم به، وهو مناصرة الكفار، ومعاونتهم على المسلمين؛ لأن المنافقين في حقيقتهم كفار، فهم يُناصرون إخوتهم من الكفار على المسلمين، قال الله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [المائدة ٥١: ٥٢].

نواقض التوحيد (٣)

عناصر الدرس

العنـــــــــصر الأول : الناقض الرابع من نواقض التوحيد الرِّدَّة ١٠٣

العنـــصر الثـــاني : الصلاة منزلتها في الإسلام، وحكم تاركها ١١٢

الناقض الرابع من نواقض التوحيد: الرِّدَّة

أ- تعريف الردة:

ما هي الردة؟

الردة هي الكفر بعد الإيمان، فمن قال الكفر أو فعله أو رضي به مختارًا؛ كفر وإن كان مع ذلك يبغض هذا بقلبه. وبهذا قال علماء السنة والحديث، وذكروا ذلك في كتبهم، فقالوا: "إن المرتد هو الذي يكفر بعد إسلامه، إما نطقًا وإما فعلًا وإما اعتقادًا"، وقرَّروا أن من قال الكفر كفر، وإن لم يعتقده ولم يعمل به، إذا لم يكن مكرهًا، وكذلك إذا فعل الكفر كفر، وإن لم يعتقده ولا نطق به، وكذلك إذا شرح بالكفر صدرًا أي: فتحه ووسعه، وإن لم ينطق بذلك ولم يعمل به. وهذا معلوم قطعًا من كتبهم، ومن له ممارسة في العلم؛ فلا بد أن يكون قد بلغ طائفة من ذلك، ولقد اهتم العلماء -رحمهم الله- بخطورة الردة؛ اهتموا بالحديث عنها، وذكر العقوبات المترتبة على هذه الردة، واشتملت كتب العقائد على هذا الكلام، أو هذا النوع من أنواع نواقض التوحيد، ألا وهي الرِّدَّة.

ب- بعض صور ومظاهر الرّدَّة: لهذه الردة صور ومظاهر متنوعة ومتعددة، أذكر منها شيئًا كما يلي:

أ- من لم يُكفِّر المشركين أو شك في كفرهم، أو صحح مذهبهم؛ كفر إجماعًا، وهذا معناه الرضا بالكفر، أو عدم الرضا بالإسلام، وكلاهما كفر، فمن قال مثلًا لمن أنكر الشهادتين: "صدقت، أو قال لمن نطق بالشهادتين: كذبت؛ لا شك

أنه لا يشك أحد في كفر هذا حتى وإن كان القول الأول مجاملة للقائل، وهناك أساليب مختلفة من الأقوال الأعمال والأحوال لا تقلُّ في دلالتها في عرف الشارع، وفي عرف الناس، وعرف اللغة، عن قول صدقت لمن كفر، أو كذبت لمن أسلم، فمن صدر منه هذه الكلمات؛ خرج من دين الإسلام، على تفصيل في ذلك القول. ومما أذكره هنا هو وجوب الاحتياط في الحكم على المُعيَّن، بمعنى: أنه لو حصل ما ذكرت آنفًا، لا بد من إقامة الحجة على هذا المتحدث، مع تحقق الشروط وانتفاء الموانع عنه، حتى يُمكن أن نلحق به الكفر أو الردة.

ب- من اعتقد أن غير هدي النبي ﷺ أكمل من هديه، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه، كالذين يُفضلون حكم الطواغيت على حكم الإسلام، فهذا كفر.

فتنحية شريعة الله عن مجرى الحياة، واستيراد قوانين البشر القاصرة؛ ردة جديدة برزت في القرون الأخيرة في حياة المسلمين. وسبب الردة هي تفضيل هذه القوانين على حكم الله وحكم رسوله ﷺ، والرضا بها، واعتقاد أنها أفضل مما جاء به النبي ﷺ، وهؤلاء في الحقيقة يكفرون بذلك، والله -تبارك وتعالى- يقول في كتابه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

ج- من أبغض شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ، ولو عمل به؛ كفر إجماعًا:

والدليل على ذلك ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [محمد- ٩]، وسواء أكانت تلك الكراهية نابعة من نفسه ومن إملاء هواه، أم كانت تابعة للغير موافقة لهواهم، كما قال الله -تبارك وتعالى- عن فريق من هؤلاء الكفار: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد- ٢٦]، فالله ﷻ جعلهم في

العاقبة سواء، وهو إحباطهم عملهم، وذلك حال الكفار، قال تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

وبُغض ما أنزل الله ﷻ لا يعدو إلا أن يكون استهزاء به، أو جحودًا له، وكلاهُمَا كُفْرٌ، فمن استهزأ بشيء من دينِ اللهِ، أو بثوابِهِ أو عقابِهِ، أو بالرسول ﷺ، أو بالقرآن، أو بالمؤمنين بسبب إيمانهم ونحو ذلك، فهذا ضرب من الكفر، قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

إن هذا أيضًا من أعمال المنافقين وصفاتهم، ومن جحد شيئًا من الدين كان كمن جحد بالدين كله، قال الله -تبارك وتعالى- ناعيًا على من يقع منه ذلك: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٥].

وظهور الكراهية والغضب عند ذكر الله، أو عند ذكر رسوله ﷺ، أو عند ذكر شيءٍ من أمور الدين المعروفة أو الدعوة إليه، كل ذلك مظاهر للبُغض أو الإنكار أو الاستهزاء.

ولا شك أنها أمارة على الردة، فمن أعلن إسلامه ثم وقع في شيء من ذلك؛ فلا شك أنه خرج من الإسلام مرتدًّا، قال الله -تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكُمُ ۗ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٢].

أيضًا من مظاهر وصور الردة والعياذ بالله -تبارك وتعالى، مظاهرة المشركين، والولاء لهم، ومعاونتهم على المسلمين لقول الله -تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، ولقوله -تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧].

فلا بد أن يحدد المسلم موقفه من أعداء الله وأعداء دينه، من الكفار والمشركين والمرتدين، ولا بد من أن يتبيَّن الحد الذي يجب أن يقف عنده المسلم، ولا يتجاوزه من أجل الحفاظ على دينه وإيمانه في معاملتهم وبناء العلاقات معهم، وهو الحد الذي لا يُفهم من الوقوف عنده الموافقة على دينهم، والرضا عن كفرهم. فإذا تخطَّى المسلم هذا الحد ودخل في طاعة الكفار، وأظهر الموافقة على دينهم الباطل، وأعانهم عليه بالنصرة والمال ووالاهم، وقطع الموالاة مع المسلمين، ورفع علاقته معهم على علاقته مع المسلمين، وضحَّى بالثانية من أجل الأولى؛ فهذا شأنه أنه قد صار منهم، وارتدَّ عن دينه، وكان كافرًا من أشد الناس عداوة لله تعالى، ورسوله ﷺ. ولا يستثنى من ذلك إلا المكره، وهو الذي يقع تحت سلطان الكفار، فيأمرونه بطاعتهم في باطلهم، ويهددونه بالقتل، أو يشرعون في تعذيبه؛ فيجوز له عندئذ فقط، الموافقة باللسان مع طمأنينة القلب بالإيمان؛ لأن من فعل ذلك برغبته، دلَّ ذلك على عدم إسلامه بخلاف المُكره.

قال الله ﷻ مبينًا حقيقة الموالاة والمعاداة مع الكافرين: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: ٢٨]، والولاية في لغة العرب تطلق على النصر والتأييد والإعانة، يقال: فلان وليٌّ لفلان، وموالٍ أي: مؤيد ناصر

﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ناصرهم ومُؤيدهم ومُعينهم. وأولياء الله - تبارك وتعالى- هم الذين يقومون بنصره ﷻ كما قال ﷻ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد- ٧].

وعلى هذا المعنى يكون اتخاذ أعداء الله أولياء، يعني: اتخاذهم أنصارًا ومؤيِّدين مع التقرب إليهم، وإظهار الودِّ لهم، واتباع أهوائهم، وطاعتهم فيما يأمرون به ويُشيرون به، والركون إليهم، ومداهنتهم، ومجاملتهم على حساب الدين، واتخاذهم بطانةً من دون المؤمنين، ومعاونتهم على ظلمهم ونصرتهم، والتشبُّه بهم في العقائد والعادات، والأخذ بقوانينهم ومناهجهم في حكم الأمة، وتربية أبنائها.

والواجبُ على المسلم إعلانه عن الالتزام بالإسلام كله، وإعلان البراءة من الكافرين، وعدم إعانة الكافر على المسلم، أو اتخاذهم بطانة وحاشية، أو حبهم، ولكن يُستثنى من البراءة هذه ولا ينقض أصلها أمور، منها: اللين عند عرض الدعوة، أو حِلُّ الزواج بالكتابية، وأكل ذبيحة الكتابي، أو المجاملة والإحسان والدعاء لهم بالهداية، أو الإهداء لهم، وقبول هداياهم، أو عيادة مرضاهم، أو التصدق عليهم والإحسان لهم.

وهذه إشارات إلى معنى الولاء والبراءة الذي ساء البعض فهمه ومعناه، ولذلك أقول: بأن اللين في عرض الدعوة مثلًا، أو معاونة هؤلاء ومساعدتهم في أمور حياتهم ومعيشتهم بما لا يرجع بسببه ضرر إلى لإسلام والمسلمين، هذا من باب الإحسان، الذي لم ينهَ عنه الإسلام، كما قال رب العالمين سبحانه: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ... ﴾ [الممتحنة: ٨]، أما أن يواليهم المسلم على المسلمين، ويتقرَّب إليهم وينصرهم ويميل

إليهم بقلبه، فهذا لا شكَّ أمر خطير، يكون صاحبه إن اعتقده مفضِّلًا هؤلاءِ عَلَى المسلمينَ مرتدًّا.

وخلاصة هذا الأمر: هو أن المسلمين أمةٌ واحدةٌ، يكون ولاء كل مسلم لها، وقلبه معها، ويده ولسانه وسلاحه معها، ولا يجوز أن يصرف شيئًا من ذلك لأعداء الإسلام، فمن فعل؛ فقد انتقل من معسكر الإسلام إلى معسكر الكفر شاء أم أبى.

ومن صور ومظاهر الردة أيضًا: الاعتراض على التشريع: إذ هو اعتراض على واضعه ومنزله، وهو رب العالمين سبحانه وتعالى وهذا كفر؛ لأن التشريع حق الله وحده، قال الله -تبارك وتعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: ٦٧]، وقال سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فكما أن الخلق خلقه فالأمر سبحانه وتعالى أمره، ولذلك نعى الله عز وجل عن من يشرع، ويضع تشريعًا وقانونًا يُخالف به شريعة رب العالمين، قال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، ومن نفى الحكمة عن جزئية واحدة من تشريع الله عز وجل أو اعترض على هذه الجزئية؛ فلا شك أنه قد اعترض على المشرع سبحانه، وهذا يؤدي إلى الكفر والردة، والعياذ بالله تعالى.

وقد فشا اليوم في أوساط المسلمين، ترديد شُبه أعداء الإسلام، فنقلوا واعتقدوا ما بثُّوه من اعتراض على تشريع الله، حتى لا يكاد اليوم يخلو حكم شرعي من أحكام الإسلام، إلا ونسمع الاعتراض عليه، ومن أظهر ذلك تعدُّد الزوجات، والطلاق، والرق، وحدُّ السرقة، وحكم القصاص، وحدُّ الزنا، وغير ذلك من الإساءة إلى الإسلام، واعتبار أحكامه وحشية.

ومن أعجب ما سمعت في هذا الزمان، أن ذبح الحيوان وتزكيته بالطريقة الشرعية وحشية عند بعض هؤلاء، ولذلك فبعض بلاد الكفر لا يذبحون، ولا يُزكون

بالطريقة الإسلامية، فبعضهم يصعق بالكهرباء، أو يُطلق على الشيء الذي يذبحه رصاصة من نارٍ، وغير ذلك. ولو علموا جمال الإسلام الذي يقول فيه النبي ﷺ: ((إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليُحدَّ أحدكم شفرته، وَلْيُرِحْ ذبيحته))، فلا يمكن لعاقل بعد هذا أن يعترض على شيء من شريعة الإسلام.

وترديد من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا ﷺ هو رسول رب العالمين، سبحانه وتعالى جل في علاه، ترديد هؤلاء لمثل هذه الاعتراضات، دون فهم ووعي لحكم ذلك؛ لهذا أمر خطير، وكذلك اعتقاد انتفاء الحكمة من هذه الشرائع والأحكام والحدود، إن اعتقد ذلك، وأذعن له وأقر به؛ فقد كفر بالله تعالى، ومثل هؤلاء من يُنكر الشريعةَ جملةً، ويرى: أنها لا تساير نظام حياة الناس، ولا تُناسب رقيهم وتطورهم المادي، فهؤلاء خارجون عن الإسلام، سواءٌ أكانوا مسلمين قبلًا، أم لم يسبقْ لهم إيمان وشهادة.

ولكن أرجو أن يُعلم حتى لا يفهم إنسانًا خطأ، وحتى لا ينسحب حكم هذا الكفر أو الرِّدَّة على كل إنسان ولو كان جاهلًا أو غير قاصد، ولهذا أقول: أرجو أن يُعْلَمَ، أن الاعتراض قد يصدر أحيانًا من مسلم يُفاجئه الحكم، ولا يرى الحكمة فيه مباشرة، ولا يخرج بهذا عن الإسلام، إلا بعد أن يُبيَّن له الحكمة فلا يرجع إلى الله، ولا يفيء إلى أمره -عز جل- بل يظل مُصرًّا على اعتراضِهِ، هذا في الحقيقة هو الذي يكفر. أما الذي يصدر حكمًا؛ لأنه فوجئ بأمر من الأمور، أو حكمًا من الأحكام، فيدهش أو يتوقف، أو يقول كلمة في هذا الحكم، لا يكون بهذا مرتدًّا، إن كان مقتنعًا راضيًا خاضعًا لهذه الأحكام، كالحادثة التي صدرت ووقعت من سعد بن عبادة > عندما سمع قول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٤]، قال سعد > لما سمع هذه الآية، وكان غيورًا

شديد الغيرة: "أهكذا أنزلت يا رسول الله ﷺ فقال الرسول ﷺ: ((يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم؟ فقالوا: يا رسول الله ﷺ لا تَلُمْهُ، فإنه رجل غيور، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكرًا، وما طلق امرأة قط، فاجترأ منا أحد أن يتزوجها من شدة غيرته، فقال سعد: والله يا رسول الله ﷺ إني لأعلم بأنها لَحَقٌّ، وإنها من الله، ولكن قد تعجبت أني لو وجدت لكاعًا قد تفخَّذها رجل، لم يكن لي أن أهيجه ولا أحركه، حتى آتي بأربعة شهداء، فو الله إني لآتي بهم حتى يقضي حاجته، ثم أنزل الله -تبارك وتعالى- بعد ذلك ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾)) [النور: ٦] إلى آخر ما جاء في هذا الحكم الرباني الكريم. ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾

والشاهد في سوق هذا الحديث، أنه يحصل للمسلم أحيانًا الاستفسار في صورة الاعتراض على حكم الله، ولا يكون هذا مخرجًا له عن الإسلام، وهذا الحكم أيضًا ينطبق على الجاهل، الذي لا يعرف الحكم، فيُصدر إنكارًا له دون معنى ما يعرف، فهو جاهل، فلا يُحكم عليه حتى يُعلَّم ويتبين، وكذلك الذي لا يقصد فهو معذور.

وخلاصة الأمر: أن موقف المسلم من تشريع الله ﷻ هو الرضا والتسليم، وعلى المسلم أن يقول: سمعنا وأطعنا، وهذا هو شعار المسلم دائمًا، ولا بأس أن يسأل عن الحكمة وأن يتلمَّسها؛ لأن ظهور حكمة التشريع تزيد المؤمن إيمانًا، وتقوِّي صلته بربه -جل وعلا، وشتان بين أن يكون هناك تلمس لحكمة التشريع، وبين أن يكون هناك اعتراض على حكمة التشريع.

وهناك نواقض أخرى للإيمان، وذلك كالسحر ومزاولته، أو تعلُّمه والرضا به، أو اعتقاد البعض من الناس، أنه يسعه الخروج عن شريعة محمد ﷺ كما وسع

الخضر الخروج عن شريعة موسى # ، أو ادِّعاء أن للقرآن ظاهرًا وباطنًا، وأن باطنه يُخالف الظاهر، وأن هذا الباطن مخصوص بالبعض دون البعض، وفِرَق الباطنية مع اختلاف طوائفها على ذلك.

وهذا الكلام يشمل حتى الفرق الحديثة من الباطنية، كالبابية والبهائية والقديانية، ومن قبل ذلك النصيرية والدرزية، والإسماعيلية، وغير هؤلاء، كذلك من أعرض عن دين الله لا يتعلمه ولا يعمل به، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ﴾ [السجدة: ٢٢]، أو يرضى الإنسان بفشوِّ المنكر وانتشاره، والعمل على ترويجه في الأمة المسلمة، لا شك أن هذا ردَّة، ولكني أود أن أبين وأؤكد - أن الذي يرتد به الإنسان في هذه الحالة، هو الرضا بفشوِّ المنكر، وانتشاره، والعمل على ترويجه، ويلاحظ أنني أقول: الرضا؛ وذلك لأن من غلبته الشهوة فوقع في منكر مثلًا، أو كبيرة من الكبائر بسبب الشيطان، فهذا عاصٍ للرحمن - تبارك وتعالى.

ومن صور ومظاهر الردة أيضًا سبُّ الدين أو الملة: والذي يسب في هذه الحالة يقصد الشريعة المطهرة والأحكام التي شرعها الله لعباده على لسان نبيه ﷺ، فمن سبَّ الدين أو الملة على هذا المعنى؛ لا شك أنه مرتد كافر.

كما أنه أيضًا إذا لم يعترف الإنسان بأن كل نعمة هو فيها ظاهرة وباطنة حسية أو معنوية، هي من فضل الله، وأنها لولا الله ما كانت، فلو لم يعتقد ذلك؛ لا شك انه كافر برب العالمين سبحانه، وإعطاء غير الله أيضًا إعطاؤه حق الأمر والنهي، وحق التحليل والتحريم، وحق التشريع وحق الحاكمية، أو الحكم بغير ما أنزل الله، أو الاحتكام إلى غيره - جل وعلا، أو استحباب الحياة الدنيا على الآخرة، وكل هؤلاء يطمئنون، ويرضون بما يفعلون، ويفضلون التحليل والتحريم الواقع

من غير الله على حكم غير الله، لا شك أن هذا من أنواع الرِّدَّة، وقد بينت هذا بتفصيل أيضًا فيما مضى.

ومن هذا سوء الأدب مع رسول الله ﷺ قاصدًا إهانة النبي ﷺ، أو الاستخفاف به ﷺ.

الصلاة: منزلتها في الإسلام، وحكم تاركها

الصلاة ومنزلتها في الإسلام:

للصلاة في الإسلام منزلة لا تعدلها منزلة، فهي عماد الدين، وأعني بمنزلتها بين العبادات، هي عماد الدين الذي لا يقوم إلا به، قال رسول الله ﷺ: ((رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذِروة سنامه الجهاد في سبيل الله))، وهي أول ما أوجبه الله تعالى من العبادات، وقد تولَّى الله إيجابها بمخاطبة رسوله ﷺ ليلة المعراج من غير واسطة، قال أنس >: ((فُرضت الصلاة على النبي ﷺ ليلة أُسري به خمسين، ثم نقصت حتى جُعلت خمسًا، ثم نُودي يا محمد إنه لا يُبدل القول لدي، وإن لك بهذه الخمس خمسين))، رواه أحمد والنسائي والترمذي وصححه.

والصلاة أول ما يُحاسب عليه العبد يوم القيامة، فقد جاء ((إن أول ما يُحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة، فإن صلحت؛ صلح سائر عمله، وإن فسدت؛ فسد سائر عمله))، وهي آخر وصية وصَّى بها رسول الله ﷺ أمته عند مفارقة الدنيا؛ إذ جعل يقول ﷺ وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة: ((الصلاةَ الصلاةَ، وما ملكت أيمانكم))، وهي آخر ما يُفقد من الدين، فإن ضاعت؛ ضاع الدين كله.

والمتتبِّع لآيات القرآن الكريم يرى أن الله ﷻ يذكر الصلاة ويقرنها بالذكر تارة، فيقول: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقال - تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى ١٤: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤]، وتارة يُقرنها بالزكاة كما في قوله ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ١١٠]، ومرة بالصبر كقوله سبحانه ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، ومرة أخرى بالنسك ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام ١٦٢: ١٦٣]، وأحيانًا يفتتح بها أعمال البر ويختتمها بها كما في سورة المعارج، وفي أول سورة المؤمنين ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون ١: ٢] إلى قوله سبحانه ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون ٩: ١١].

وقد بلغ من عناية الإسلام بالصلاة، أن أمر بالمحافظة عليها في الحضر والسفر والأمن والخوف، فقال تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة ٢٣٨: ٢٣٩]، وقال تعالى مبينًا كيفيتها في السفر والحرب والأمن: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ

﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء ١٠١ : ١٠٣].

وقد شدَّد الله ﷻ النكير على من يُفرط فيها، وهدَّد ربنا ﷻ الذين يضيعونها، فقال - جل شأنه: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، وقال سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون ٤ : ٥]، ولأن الصلاة من الأمور الكبرى، التي تحتاج إلى هداية خاصة، سأل إبراهيم # ربه أن يجعله هو وذريته مقيمًا لها فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

بعد هذه الكلمة التي بينت فيها منزلة الصلاة في الإسلام، أقول في حكم تارك الصلاة:

لقد جاءت الأحاديث الصحاح، تنفي الإسلام على من ضيع الصلاة، كحديث ((العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة))، من تركها فقد كفر، أو تنفي الإسلام عن من ضيَّع الصوم أو الزكاة أو تركهما، أو أنكر الحج، أو رفض أداءه مع القدرة عليه؛ فدل هذا على أنه لا يُكتفَ بالتلفُّظ بلا إله إلا الله، ودلَّ على أنه لا بد من الحد الأدنى للإسلام، فأقول في بيان ذلك:

أولًا: إذا ورد الحكمُ في فريضةٍ بعينها، فلا يجوز سحب هذا الحكم على كل الفرائض، فحكم فريضة يختلف عن الأخرى، فليس حكم تارك الصلاة، كحكم تارك الصيام، أو الحج؛ فضلًا عن حكم تارك الآمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وما شاكل ذلك.

ثانيًا: يجب ألا نخلط في الأحكام، وأن نُفرق بين المنكر والتارك، فلا يجوز التسوية بحالٍ في الحكم بين الجاحد والتارك؛ فالإنكار والجحود أو الاستهزاء بأيِّ فريضةٍ في الدين كفر، ولا خلاف في ذلك كما سبق بيانه وتوضيحه. أما الترك

الكامل فهذا لم يقل أحد بكفر صاحبه في أيٍّ فريضةٍ عدا الصلاة التي اختلفوا في حكم من تركها تكاسلًا، على نحو سأفصل القول فيه الآن.

وفي هذا يقول ابن القيم -رحمه الله- في كتابه (الصلاة وحكم تاركها): "لا يختلف المسلمون أن ترك الصلاة المفروضة عمدًا من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، وأن إثمه عند الله أعظم من إثم قتل النفس، وأخذ الأموال، ومن إثم الزنا، والسرقة، وشرب الخمر، وأنه متعرِّض لعقوبة الله وسخطه، وخزيه في الدنيا والآخرة".

ثم اختلفوا في قتله، وفي كيفية قتله وفي كفره: وقد أفتى أئمة الإسلام من السلف -رحمهم الله تعالى- بعد أن اختلفوا في كيفية قتله، هل سيكون بالسيف ضربًا أو نخسًا أو بالخشب، وقال البعض: يُحبس، واختلفوا في حكم استتابته قبل قتله، هل يُستتاب أم لا؟ على أقوال كثيرة، الراجح منها: أنه يستتاب، فهذا قُتِلَ لترك واجب شُرعت له الاستتابة، فكانت واجبةً كقتل الردة، واختلفوا هل يُقتل تارك الصلاة حدًّا أم كفرًا، هذا كلام الإمام -رحمه الله.

ثم سرد أدلة الذين لا يُكفرون تارك الصلاة، وهي أدلة من القوة بمكان، ثم أورد أدلة الذين قالوا بكفر تارك الصلاة من القرآن والسنة، وإجماع الصحابة، وحَمَلَ المانعون من التكفير، أعني: الذين لا يُكفرون تارك الصلاة، حملوا الأحاديث الواردة على كفر تارك الصلاة، على كفر النعمة دون كفر الجحود.

ثم قال -رحمه الله: "معرفة الصواب في هذه المسألة، مبني على معرفةِ حقيقةِ الإيمان والكفر، ثم يصح النفي والإثبات بعد ذلك، فالكفر والإيمان متقابلان إذا زال أحدهما خَلَفَهُ الآخر، ولما كان الإيمان أصلًا له شعب متعددة، وكلُّ شعبة منها تُسمى إيمانًا؛ فالصلاة من الإيمان، وكذلك الزكاة والحج، والصيام، والأعمال الباطنة كالحياء، والتوكل، والخشية من الله، والإنابة إليه؛ حتى تنتهي هذه الشعب إلى إماطة الأذى عن الطريق، فإنه شعبة من شعب الإيمان.

وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها كشعبة الشهادة، وهذا إجماع بين أهل العلم، فمن لم يعتقد بقلبه وينطق بلسانه بالشهادتين، لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ؛ لا شك أنه ليس بمسلم، ومنها ما لا يزول بزوالها، كترك إماطة الأذى عن الطريق، وبينهما شعب متفاوتة تفاوتًا عظيمًا، منها ما يُلحق بشعبة الشهادة، ويكون إليها أقرب، ومنها ما يُلحق بشعبة إماطة الأذى عن الطريق، ويكون إليها أقرب.

وكذلك الكفر ذو أصل وشعب، فكما أن شعب الإيمانِ إيمانٌ، فشعبُ الكفرِ كفرٌ، والحياء شعبة من الإيمان، والكذب شعبة من شعب الكفر، والصلاة والزكاة والحج والصيام من شعب الإيمان، وتركها من شعب الكفر، والحكم بما أنزل الله من شعب الإيمان، والحكم بغير ما أنزل الله من شعب الكفر، والمعاصي كلها من شعب الكفر، كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان".

ثم قال -رحمه الله: "الكفر نوعان: كفرُ عمل، وكفر جحود، وعناد، فكفر الجحود أن نكفر بما عُلم أن الرسول ﷺ جاء به من عند الله -تبارك وتعالى- جحودًا وعنادًا، وذلك كأسماء الرب وصفاته وأفعاله وأحكامه، وهذا الكفر يُضادّ الإيمان من كل وجه، وأما كفر العمل: فينقسم إلى ما يضاد الإيمان وإلى ما لا يُضاده، فالسجود للصنم والاستهانة بالمصحف، وقتل النبي ﷺ وسبه يضاد الإيمان.

وأما الحكم بغير ما أنزل الله وترك الصلاة، فهو من الكفر العملي قطعًا، ولا يمكن أن يُنفى عنه اسم الكفر بعد أن أطلقه الله ورسوله عليه؛ فالحاكم بغير ما أنزل الله كافر، وتارك الصلاة كافر، بنص حديث رسول الله ﷺ، ولكن هو كفر عمل لا كفر اعتقاد، وهذه طريقة مثلى، وقول وسط عند أهل السنة والجماعة، ومذهبهم في هذا مذهب صحيح؛ لأنهم يُقسمون الكفر والنفاق والشرك إلى

قسمين، فيقولون: أكبر وأصغر، ولا يلزم من قيامِ شعبةٍ من شعب الإيمان بالعبد، أن يُسمى مؤمنًا، وإن كان ما قام به إيمانًا، ولا من قيام شعبة من شعب الكفر، أن يُسمى كافرًا، وإن كان ما قام به كفرًا".

وخلاصة القول في ذلك: أن تارك الصلاة أمره خطير، وقد أطلق عليه النبي ﷺ في بعض أحاديثه، وكذلك كثير من الصحابة أطلقوا كلمة الكفر على تارك الصلاة، إلا أننا من باب الاحتياط إن كان مقرًّا بوجوبها، مصدقًا بها، معتقدًا لذلك؛ فكفره في هذه الحالة من الكفر العملي.

غير أن بعض أهل العلم كشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يقول: "بأنه لا يُتصوَّر أن يوجد إنسان يقوم الإيمان بقلبه، ويشهد لله -تبارك وتعالى- بالوحدانية، ولنبيه ﷺ بالنبوة والرسالة، ثم لا يركع لله ركعة، ولا يسجد لله سجدة، هذا لا يتصور أبدًا، أن يقع ممن اعتقد الإيمان وقام في قلبه، بل يتصور أن يكون هذا زنديق"، والمسألة خلافية بين أهل العلم كما ذكرت، ولكني أوثر أن يكون الكفر هنا كفرًا عمليًّا، وهو كفرٌ دونَ كُفْرٍ.

وختام القول في ذلك: أن أذكر مناظرة وردت بين الإمامين أحمد والشافعي، وقد ذكرها السبكي -رحمه الله- في (طبقات الشافعية): "أن الشافعي وأحمد } تناظرًا في تارك الصلاة، فقال الشافعي: يا أحمد أتقول: إنه يكفر؟ قال: نعم، قال: إذا كان كافرًا فبما يسلم؟ قال: يقول: لا اله إلا الله محمد رسول الله ﷺ. قال الشافعي: فالرجل مستديم لهذا القول لم يتركه، قال: يُسلم بأن يصلي، قال: صلاة الكافر لا تصح، ولا يُحكم له بالإسلام بها، فسكت الإمام أحمد -رحمهما الله تبارك وتعالى".

كلمة التوحيد تشتمل على الكفر بالطاغوت قبل الإيمان بالله

عناصر الدرس

العنصر الأول : ذكر معنى الطاغوت ومعنى الكفر به ١٢١
العنصر الثاني : ذكر نماذج من الأرباب الباطلة والآلهة المزيفة ١٢٥

ذكر معنى الطاغوت ومعنى الكفر به

أ. معنى الطاغوت:

الطاغوت في اللغة: من الطُّغيان، وهو: كل ما زاد عن الحد المقرر له، وكانت العرب تُطلق اسم الطاغوت أيضًا على كل ما عُبد من دون الله -تبارك وتعالى- وفي ذلك يقول الإمام القرطبي رحمه الله: "والطاغوت مؤنثه من طغى يطغو، إذا جاوز الحَدّ بزيادة عليه".

وقيل: أصلُ طاغوت في اللغة: مأخوذٌ من الطُّغيان وهو يؤدي معناه من غير اشتقاق.

قال الجوهري -رحمه الله: والطاغوت الكاهن، والشيطان، وكل رأس في الضلال، والجمع طواغية، وعلى ذلك، فإن الطاغوت قد يكون وثنًا، أو الصنم أو الشخص، وقد يكون ذات الشريعة الزائدة عن حد الله -تبارك وتعالى، ولقد أحسَن من عرَّف الطاغوت بقوله: "كل ما تجاوز به العبد حدَّه من متبوع أو مطاع، وكل من تجاوز الحد في اتباع غير الله -تبارك وتعالى، أو طاعته، أو عبد غير الله -تبارك وتعالى- فيكون قد جعل هذا المتخذ -أعني: المعبود أو المطاع- طاغوتًا من دون الله -تبارك وتعالى.

ويهمنا هنا أن نعرف الكلمات والآيات التي ورد فيها لفظ الطاغوت في القرآن الكريم، ولقد ورَد لَفظُ الطّاغُوت في القرآن الكريم ثماني مرات.

المرة الأولى في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وهذه الآية وردت في سورة البقرة، ومعنى الطاغوت الوارد في هذه الآية: الأصنام أو الشيطان.

أما المرة الثانية: ففي قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ومعنى الطاغوت أيضًا في هذه الآية الأصنام، أو الشيطان.

أما المرة الثالثة التي وَرَد فيها لفظ الطاغوت في القرآن: فقد جاء في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [النساء: ٥١] والجبت والطاغوت ذكر بعض العلماء أنهما صنمان لقريش؛ وقيل: المُراد بالطاغوت هناالكاهن أو الشيطان.

أما المرة الرابعة: فقد جاءت في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ ﴾ [النساء: ٦٠] والمراد بالذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، قيل بأن المراد بالطاغوت هنا: كثير من الطغيان، والمقصود به كعب بن الأشرف، اليهودي.

أما المرة الخامسة: وهي ما جاء في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [النساء: ٧٦]والمراد بالطاغوت هنا الشيطان.

أما المرة السادسة: وهي بمعنى الشيطان أيضًا فقد وردت في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [المائدة: ٦٠].

أما المرة السابعة: فقد جاءت في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]. والمراد بالطاغوت هنا الأوثان، فالله ﷻ يأمر كل أمة أرسل إليها رسول، أو جاء إليها نبي ويبين أن الله ﷻ عندما أرسل النبي أو الرسول أمرهم بعبادة الله -تبارك وتعالى- وحده واجتناب الطاغوت.

أما المرة الثامنة والأخيرة التي ورد فيها لفظ الطاغوت في القرآن الكريم: فهي ما جاء في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧] والمراد بالطاغوت هنا أيضًا الأوثان.

وبعد ذكري لما ورد في القرآن الكريم من لفظ الطاغوت، أقول: بأنه يظهر بأن معنى الطاغوت في هذه الآيات، هو ما عُبد من دون الله ﷻ من أصنام أو مخلوقات أخرى.

وإذا ذُكر الإيمانُ مع الطّاغُوت وعبادة الله، والكُفر بالطّاغوت؛ وَجَبَ إذًا أن نُؤمن بالله ﷻ وأن نُحقق العبادة له ﷻ جل في علاه- مع ضرورة الكفر بالطاغوت، فإذا عبد إنسان ما أحدًا من دون الله ﷻ، أو عبد أحدًا مع الله -تبارك وتعالى- كان ذلك كفر وشرك وعبادة للطاغوت، واستجابة للشيطان.

وإذا فُتن بعض الناس ببعض من يُعبد من دون الله -تبارك وتعالى- كان ذلك أيضًا لون من ألوان العصيان أو الفسوق، كالذي يفتنه الشيطان، أو السلطان، أو المال، أو المرأة، أو الذّهب، أو غير ذلك عن عبادة الله ﷻ، ويفتنه فتنة تُلهيه عما وجب عليه، وتغويه بالسوء. وقد يُطلق عليه أنه يعبده، فالذي يفتن بمثل ما ذكرت آنفًا يمكن أن يطلق على أنه عابد لما افتتن به؛ فالذي يُفتن بالشيطان، أو السلطان، أو بالمال، أو بالمرأة، أو الذهب، أو غير ذلك؛ فقد يُطلق عليه أنه عبد كل ما ذُكر.

ومعنى هذا أنه أحبه حبًّا شديدًا، ويُمكنه أن يستجيب له، وأن يُطيعه طاعة عمياء؛ يُخالِفُ بهذه الطاعة طاعة الله، وطاعة رسول الله ﷺ ولذلك ورد في الحديث: ((تِعسَ عَبدُ الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة؛ إن أعطي رضي، وإن لم يعطَ سخط)). فنلاحظ أن النبي ﷺ سمى من افتُتن بالدينار والدرهم. وغير ذلك عبدًا للدينار وللدرهم.

ب- معنى الكفر بالطاغوت: معنى الكفر بالطاغوت: أن نجحده، وأن ننكره، وأن نجتنب اتباعه، أو أن نعتقد أن له طاعة واجبة؛ بل يجبُ علينا ألا نطيعه بالفعل، وأن نُكذِّب بدعوته الخارجة عن حَدّ الله -تبارك وتعالى، والكُفر بالطاغوت يقتضي التخلي عن كل رب باطل، والكفر بكل إله زائف، هذا هو المقصود من قول: بأنه يجب علينا أن نكفر بالطاغوت، يعني: أن نترك كل ما عُبد من دون الله ﷻ، فالرب أو الإله واحد، وأن نكفر بكل إله زائف كما ذكرت، والله -تبارك وتعالى- في كتابه يقول: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

ومقتضى ذلك: أنْ يَعْرِفَ العَبدُ، وأن يُقِرّ بـ"لا إله إلا الله"؛ لأن الكفر بالطاغوت يلزم منه ذلك، و"لا إله إلا الله" هي قاعدة الدين، وأساس الإسلام، وهي التي يقومُ عليها بناء العقيدة الإسلامية، وترتكز عليها التكاليف والفرائض، وبها تصحُّ العبادات، وتَستَمِدُّ منها الحقوق والواجبات.

القاعدة التي يجب أن نَفهمها، وأن نقومَ بها أولًا قبل الدخول في الأوامر والنواهي، وقبل الدخول في التكاليف والفرائض، وقبل الدخول في الأوضاع والنظام، أو الشرائع والأحكام، هذه القاعدة التي يجب أن نعرفها ابتداءً، أن نعترف بربوبية الله -تبارك وتعالى- وحده، وأنه الخالق الرازق المدبر كما نعبده وحده دون سواه؛ فلا نُشرك معه أحدًا في ألوهيته، ولا نُشرك معه أحدًا في ربوبيته.

فمن اعترف بأن أحدًا مع الله ﷻ، أو دون الله -تبارك وتعالى- يتصرف في شئون هذا الكون، في عالم الأسباب والأقدار، ويعترف بأنه يمكن أن يُجازي العباد، أو أن يتدخَّل في أمر من أمور الحكم والشريعة، أو غير ذلك كل هذا من الطاغوت، ويجبُ على الإنسان أن يَكفُر به، وأن يعترف بأن الله -تبارك وتعالى- وحده هو

المُتصرّف في هذا الكون، وأنه هو المعبود وحده دون سواه، وأنّه هو الذي يُحاسب العباد ويجازيهم. لا بد أن يعترف بهذا كله، وأن يكون لديه توحيدٌ خالص في هذا كله، وأن يَبتعِدَ عن شوائب الشرك في ربوبية الله تعالى، أو ألوهيته، أو أسماء الله عز وجل، أو صفاته سبحانه وتعالى جل في علاه.

كما أنه يجبُ علينا أن نعلم أن الطاغوت يُؤدي بمن سلكه إلى طرق الجرائم، وارتكاب الكبائر والفواحش وغير ذلك، ومن هُنا وجب الكفر بهذا الطاغوت، وأن يَرفع العبدُ وأن يرتفع العبد بـ"لا إله إلا الله" وأن يعتقدها اعتقادًا جازمًا، وإذا فعل ذلك نَقّى ضميره من أوشاب الشرك، ونقى عقله من أوشاب الخرافة، ونقى مجتمعه من تقاليد الجاهلية، ونقى حياته من عبودية العباد لغير الله -تبارك وتعالى وحده جل في علاه.

ولذلك أقول: إن من مُقتضى الكفر بالطاغوت: أن ينتهي المرء المسلم عن كل ذلك، ويجبُ أن نعلم أن الشِّرك يجرّ إلى كل محرم، وهو المنكر الأول الذي يجبُ أن يُحشد الإنكار كله له؛ حتى يَعْتَرِفَ النّاسُ أنه لا إله إلا الله، ولا رَبّ لهم إلا رب العالمين سبحانه وتعالى جل في علاه، ولا حاكم لهم إلا الله، ولا مُشَرّع لهم إلا الله، كما أنهم لا يتوجهون بالشعائر لغير رب العالمين سبحانه وتعالى جل في علاه.

ذكر نماذج من الأرباب الباطلة والآلهة المزيفة

من الذي ينبغي أن يكون إلهًا مع الله! أو من دون الله! أو شريكًا مع الله تبارك وتعالى، أو حتى معينًا له: أهو الصنم! أم الشجر! أم النار! أم البقر! أهي النجوم، أم الشمس، أم القمر، أم هو النمرود، أو فرعون، أو قارون، أو هو موسى # ، أو عيسى # ، أو غير هؤلاء من سائر أنبياء الله -تبارك وتعالى- ورُسله، أو يمكن أن نقول: بأنه يجوز لنا أن نعبد الجن، أو أن نعبد واحدًا منهم،

أو أن نعبد الملائكة، أو نعبد زعيمًا منهم، من الذي يمكن أن يرشح لهذا المنصب الخطير ألا وهو أن يُعبد.

لقد عبد الناس أربابًا من دون الله -تبارك وتعالى، وكل ما ذكرته آنفًا هو في الحقيقة أصنامًا عبدها الناس من دون الله ﷻ، أو آلهة توجه إليها بعض الناس، وجعلوها آلهة عندما صرفوا لهم نوعًا من العبادة، أو صرفوا لهم جُلّ العِبَادات أو كلها، دون رَبّ العَالمين ﷻ جل في علاه، وإنني لو استعرضتُ جوانِبَ التّاريخ؛ لرأيتُ أن من عُبد من دون الله ﷻ هو ما أشرت إليه آنفًا، هؤلاء جميعًا لا يصلح الواحد منهم أن يكون إلهًا. ولعلي أذكر واحدًا تلو الآخر؛ مبينًا فساد عبادة شيء من هؤلاء من دون رب العالمين ﷻ جلّ في علاه.

فالصّنَمُ مثلًا: هذا الحجر الأصم الأبكم الذي لا يسمعُ ولا يبصر، ولا ينفع ولا يضر، بل كان الجاهلي يقوم هو بصناعته ينحته، وأحيانًا يبول عليه ثم يعبده من دون الله -تبارك وتعالى. وقد كان بعض الجاهليين في العرب يفعلُ ذلك يصنع إلهًا ويبولُ عليه، أو يترك سائر الحيوانات يمكنه أن تبول عليه، فهل هذا يمكن أن يكون إلهًا؟! هل هذا الحجر الذي هو قطعة من الأرض يصلحُ أن يكونَ إلهًا خالقًا رازقًا يُعبد من دون رب العالمين ﷻ جل في علاه.

وإذا تركتُ الحديثَ عن الأصنام هل نقول: بأن الشجر يُمكن أن يعبد من دون الله -تبارك وتعالى، إنّنا لو نظرنا إلى أعظم شجرة، ونقول: مهما تأصلت جذورها أو طال ساقها، أو اخضرَّت أوراقها، أو أينعت ثمارها، أو طال أمدها؛ هل تصلح لتكون إلهًا مع الله يُدبّر أحوال الخلق، ويصلح شئون المخلوقين.

أم تلك النار التي عَبدها المجوس من دون الله ﷻ، هذه النّار مهما كبرت، واشتدّ لهيبُها، واحمرَّتْ نَارُها، وطالت مدة إيقادها، هل تصلح لتكون إلهًا يخلق ويرزق ويضر أو ينفع؟!

أو نقول: الأبقار التي أيضًا عُبدت في بعض البلاد من دون الله ﷻ، هذا العجل مثلًا مهما زاد لحمه وشحمه، وكبرت قوته، وتجمّل لونُه هل يصلح ليكون إلهًا، وهو يُوضع في أطباق الآكلين؟! ولا يصلح بلا شك والله -تبارك وتعالى- قد نعى على بني إسرائيل عبادتهم للعجل من دون رب العالمين سُبحانه، وبَيّن أنّ هذا العجل ليست عنده صفات الخالق؛ فكيف يُعبد من دون الله! كما قال رب العالمين جل في علاه: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف: ١٤٩]. ألا يوجَدُ عقل عند هؤلاء عندما يعبدون أصمّ لا يسمع كلامهم؛ لأنه وإن كان يسمع كلام غيره من الحيوانات إلا أنه لا يفهم هذا الكلام، ولا يُمكن أن يخاطبه إنسان.

ولو انتقلنا إلى النجوم مثلًا: كالشمس، أو القمر، أو غير ذلك من النجوم، هل يصلح شيء من هؤلاء؛ ليكون إلهًا يُعبد من دون الله ﷻ هل الذي يغيب ويظهر، ويتحرك ويسكن، ويذهبُ ويجيء، ويكبر أحيانًا ويَصغُر أحيانًا أخرى، ويتجزَّأ ويتحول، هل يمكن لمن تجري عليه هذه العوارض أن يكون إلهًا قادرًا حكيمًا؟! لا يمكن بحال من الأحوال.

ولذلك أشار القرآن الكريم إلى أن كل ما ذُكر لا يمكن أن يكون إلهًا، أو أن يُتّخذ من دون رب العالمين ﷻ معبودًا؛ لأنه لا توجد عنده صفات تؤهله لذلك، فهو لم يخلق، ولم يرزق، ولم يدبر، ولذلك بعدما ساق رب العالمين ﷻ جل في علاه- بعضًا من آيات قدرته في الكون، وأشار فيها إلى خلقه لكثير من العوالم، كما جاء في مَطلع سورة النحل، التي عدَّد رب العالمين ﷻ كثيرًا مما أوجد وخلق في كونه.

بعد ما أشار في كثير من الآيات إلى شيء من هذه المخلوقات، عقب عليها ربنا ﷻ بقوله: ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ ﴾ [النحل: ١٧] يعني: أيها الإنسان كيف تسوي

بين من خلق وأوجد، وبين من لا يقدر على أن يفعل شيئًا من ذلك! وصدق الله عز وجل عندما أثبت العجز لكل ما عبد من دون رب العالمين سبحانه وتعالى، فقال في كتابه مثلًا: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾ [الأعراف: ١٩٥].

وفي صورة الأنعام نجد رب العالمين سبحانه وتعالى جل في علاه- يبطل عبادة الأصنام والكواكب، فقال -تبارك وتعالى- عن الأصنام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٧٤]. هل استطاعت هذه الأصنام أن تُدافع عن نفسها حتى تدافع عن غيرها ساعة أن حطمها وكسرها خليل الرحمن إبراهيم # ، وأين كانت عقول عبادها ساعة أن قالوا: ﴿ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٩].

وهذا يدلُّ على بطلان عبادة هذه الآلهة، ولعلهم كانوا يقولون ذلك، ولكنهم لا يُفكرون بعقولهم هذه الأصنام كيف تُؤخذ من دون الله -تبارك وتعالى- وهي لا يُمكن أن تحجب عن نفسها من يقوم بتحطيمها، ولا تستطيع أن تفعل شيئًا من ذلك؛ بل إن خليل الرّحمن إبراهيم # قال لهم كلمة تهكم فيها عليهم، مبينًا لهم أنّ هذه الأصنام لا تَصلح أن تكون آلهة؛ لأنها لم تتمكَّن من أن تُدافع عن نفسها. وأشار خليل الرحمن إبراهيم إليهم بذلك عندما قال: ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٣].

أما عن الكواكب: فقد أخبرنا ربنا سبحانه وتعالى أيضًا في كتابه أنها لا تصلح آلهة، وقد أبطل ربُّ العالمين سبحانه وتعالى أيضًا عبادتها على يد خَليلِ الرّحمن إبراهيم # ، وقد أثبتَ ذَلِك لعُبَّاد الكواكب على سبيل التدريج بهم؛ فإبراهيم # تدرَّج في قومه من باب المحاجة معهم؛ ليُثبت بطلان ما هم عليه، تدرَّج معهم في

الخطاب؛ ليبين أنّ هذه الأصنام التي يعتريها ما يعتريها، هذه الأصنام التي تظهر أحيانًا وتغيبُ في أحيانًا أخرى، التي تكون كبيرة في بعض الأوقات وصغيرة في غيرها؛ هل يمكن لهذه الأصنام أن تكون إلهًا يُعبد من دون رب العالمين سبحانه وتعالى جل في علاه؟!.

ولذلك قال لهم خليل الرحمن إبراهيم # فيما قال كما ذكر القرآن الكريم عنه: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى ﴾ [الأنعام: ٧٦، ٧٧] وهكذا بدأ عليه السلام يتدرج بهم، وينتقل من كوكب إلى آخر، ثم يذكر ما لحق بهذا الكوكب مما يُنكر معه أن يقول لهم بأنه لا يصلح أن يكون إلهًا.

وبعض الناس في فترة من الزمن، عبدوا بعض رؤسائهم، أو زعمائهم، أو ملوكهم من دون رب العالمين سبحانه وتعالى جل في علاه- فهل يَصلُح الواحد من هؤلاء مهما أوتي من قوة، أن يكون إلهًا معبودًا حاشا وكلا.

ومن هؤلاء النمرود، فهذا الرّجل لا يصلح أن يكون إلهًا؛ لأن الإله عُرف بأنه قادر مُريد، وهذا الشخص ليس كذلك، فلقد عجز عن أمر بسيط جدًّا من أمور المخلوقات، والعاجزُ لا يَصلح أن يكون إلهًا، وقد ذكر الله عز وجل شيئًا لنا مِمّا دار بين خليل الرحمن إبراهيم # وبين هذا الرجل، وقد جاء هذا في قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

وهذا والله آية بينة، ودلالة واضحة على عجز هؤلاء، وعلى أن الواحد منهم لا يصلح أن يكون إلهًا، ولكنه وللأسف الشديد عندما يبلُغ الكفر والطغيان

بالإنسان هذا المبلغ يحاجج في ربه ﷻ ومولاه، رغم أن الله هو المتفضل عليه؛ فهو الذي خلقه، وهو الذي يدبر أمره، وإن كان عنده شيء من الملك. فليعلم أن الذي أعطاه الملك هو رب العالمين ﷻ جل في علاه، فمالك الملك هو الله، ولذلك يقول الله ﷻ: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ثم قال له إبراهيم # معرفًا بربه، ولعله سأل إبراهيم عن ربه، فأراد أن يُعرفه بأن ربه ﷻ هو الذي أوجد هذه الموجودات، وهو ﷻ هو الذي يُميتها، ولذلك قال له: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ فظن هذا الرجل بجهله أنه يُمكن أن يفعل ذلك؛ فـ ﴿قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾، وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أنه يُمكن له أن يأتي إلى إنسان بريء غير متهم، فيقتله في التوِّ واللحظة، ثم يأتي إلى إنسان آخر قد حُكم مثلًا عليه بالإعدام وإنهاء الحياة، فيطلق صراحه، ويظن بذلك أنه أحيا وأمات.

فأتى له إبراهيم خليل الرحمن، بقضية أو بآية أو بمعجزة أو بأمر لا يمكن أن يفعله أبدًا أي مخلوق؛ لأنه لا يفعله إلا رب العالمين، الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، أتى له إبراهيم # وطلب منه أن يأتي بآية كونية، إنْ كان صادِقًا فيما يذهب إليه؛ فقال له: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ قال الله ﷻ: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ لأنه لا يستطيع أن يفعل ذلك.

وقد حدثنا الله ﷻ عن آخرين زعموا لأنفسهم أنهم آلهة، وأنهم أرباب، ومن أعظم من فعل ذلك فرعون الطاغية، الذي بعث الله -تبارك وتعالى- إليه موسى #، هذا الرجل وصل به الطغيان، ووصل به الكفر إلى أن قال لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

ومرة أخرى يقول لهم: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]. فهو كأنه يريد أن يقول لهم: إن كان هناك رب غيري؛ فأنا أعلى هؤلاء الأرباب، فهل هذا الرّجل يُمكنه أن يكون إلهًا معبودًا.

فرعون في بيته كان لا يستطيعُ إنجاب الولد، لذلك قالت امرأة فرعون عن موسى # : ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩] هذا يدلُّ على عجز هذا الرجل، إنسانٌ بطبيعته البشرية لا يمكن أن يأتي بما يأتي أو بما يكون عند غيره من البشر، بإرادة رب العالمين -سبحانه- يحجب الله ﷻ عنه الولد، وتذهب زوجه، وتطلب منه إلى أن تتخذ موسى # في بيتها لعله ينفعها، أو يكون مكان ولدها، وهو لا يستطيع الإنجاب؛ فهل مَن يكون كذلك يمكن أن يكون ربًّا أو إلهًا.

أيضًا هذا الطاغية لم يستطع أن يُجابه زَوجته يوم أن قالت وطلبت من ربها، كما ذكر القرآن الكريم ذلك: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١] وها هو مع قومه أيضًا بعد أن توعَّدهم يقول لهم: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧١، ٧٢].

هذا الرّجُل يواجه بهذه الكلمات، ممن كان يُطلق عليهم عبيده، ولكنهم واجهوه بهذه المواجهة، ولم يستطع هو أن ينفذ معهم شيئًا، أو أن يقوم بالوعيد الذي قاله لهم؛ لأنه لا يمكنه أن يفعل ذلك، ولأنه ليس ربًّا ولا إلهًا، ولذلك كانت نهايته أمام هؤلاء القوم الذين توعَّدهم؛ فلم يفعل، وإنما أهلكه رب العالمين -جل في علاه، وذلك عندما خرج يجري ويلهث وراء موسى # ومن آمن به، لعله يدرك موسى، ولكن النهاية كانت أليمة عليه عندما أغرقه الله ﷻ في البحر.

وهنا أقولُ: هل يمكن أن يكون هذا إلهًا وقد غرق؟ هل رأينا إلهًا يغرق؟! سبحان الله! وفي ذلك يقول رب العالمين جل في علاه: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] فقيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ [يونس: ٩١، ٩٢].

ويَظهرُ من هذه الآيات أنّ فِرْعونَ كانَ يَعلَمُ أنّه مَربوب، وقد صرح بما قام في قلبه عند غرقه، وصدق الله ﷻ في قوله: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] فقد جحدوا بهذه الآيات، وبالإيمان برب الأرباب -جل في علاه- رَغم أنّ قُلوبهم كانت في غاية اليقين، بأنهم مربوبون لرب العالمين ﷻ جل في علاه.

وما قلته في النمروذ، أو في فرعون، أقوله في قارون، هذا الذي أُعطي من المال ما أعطي، وأعطي من الكنوز ما أعطي، وقال عن كنوزه وماله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]. وقد فَرِح واستكبر بما عنده، فماذا كانت نتيجته؟ قال الله ﷻ: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١]. فهل يُمكن أن يكون صاحب المال، أو الكنوز بماله وكنوزه إلهًا يُعبد من دون الله، هكذا يُهلك الله ﷻ منهم من يُهلك، ويقضي على من يقضي منهم بالغرق وغير ذلك، ويتبيَّن لنا من خلال هذا أن الجميع لا يصلح أن يكون إلهًا يعبد من دون الله ﷻ.

وإذا انتقلت إلى الجن، وقد عبد بعض الناس الجن من دون الله -تبارك وتعالى- وأنا أقول لهؤلاء: ما هي المؤهلات التي تُؤهل الجن ليُعبد من دون الله؟ وأي

ميزة ترشِّحه لكي يُعبد؟ هذا الجن مخلوق ككل المخلوقات، والله -تبارك وتعالى- يقول: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٠٠]، وكأن الله ﷻ يريد أن يدمغ هؤلاء الذين عبدوا الجن من دون الله، ويقول الله هذا الجن مخلوق من مخلوقات الله -تبارك وتعالى، فكيف يعبُد المخلوق المخلوق؟

أو أن يُشرك العبد بالله -تبارك وتعالى- ويجعَلُ أحدًا من المخلوقين مع الله، قال تبارك وتعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩١] فالجن ضعيف، وإن كانت عنه قدرة على التشكل، إلا أنه لا يتمكَّن من أن يؤدي شيئًا لعبد طلب منه؛ لأنه أيضًا ضعيف ومخلوق.

صحيحٌ أنّ الجن قد تكون عنده بعض الأمور التي يمكن أن يتسلط بها على الإنسان، وعنده قدرة كما ذكرت على التشكل في أشكال مختلفة، إلا أنه مع كل ذلك فهو مربوبٌ مخلوق.

ونحن في دنيانا أعلمنا ربّنا أن الله ﷻ قد حفِظَ هذه السماوات بالشُّهب؛ حتّى لا يتمكن الجن من أن يصعد فيَسْتَرِق السّمع، وإذا فعل واحد من الجن ذلك أتبعه شهاب ثاقب، يُرسله رب العالمين عليه فيحرقه، فهل بعد هذا من ضعف عند هؤلاء الجن؟!. رب العالمين هكذا يُحاسب المخالف منهم، بما يحاسبهم به.

وبالتالي أقول أيضًا: إنّ المَلائِكَة خلق من خلق الله -تبارك وتعالى- إلا أنهم لا يُعبدون من دونِ رَبّ العالمين، وفي ذلك يقول رب العالمين سبحانه: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء: ١٧٢] فالمَلائكة المقربون ليسوا آلهة، وإنّما هم عباد من عباد ربّ العَالمين ﷻ جل في علاه، وقد ردَّ الله ﷻ في كلمة واحدة على من اتخذوا الملائكة بنات لرب العالمين ﷻ جلَّ في علاه- فقال: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩].

وما قلته في الجن والملائكة، أقوله في أنبياء الله ورسله، فهل عُزير الذي قال اليهود عنه بأنه ابن لله، أو عيسى # الذي قيل فيه ذلك، وقد عُبد من دون رب العالمين ﷻ جل في علاه- هل يصلح واحدٌ منهم أن يكون إلهًا؟ قال الله ﷻ عن اليَهود والنصارى، وماذا قالوا في عيسى # ، وماذا قال اليهود في عزير، وهذا جاء في قوله سبحانه: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠].

ثم نقول بعد هذا: بالنسبة لنبي الله عيسى # لما كان عيسى بالذات ولدًا لله كما زعم البعض، ثم ما وجه الحاجة إليه، ثم ما الذي يرشحه؛ ليكون ولدًا لله دون بقية الخلق؟ فلا يقال: إنما اختِير عيسى بالذات؛ لأنه خُلق بدون أبٍ، قلنا: ذلك له مثاله في الكون، وهو أمثلة على قدرة الله تعالى، وعلى إيجاده للمخلوقات بسبب وبدون سبب.

فإذا قلنا: بأن عيسى # خُلق بِدُون أبٍ، وهذه حقيقة؛ فحواء خُلقت بدون أم، فما ميزة عيسى # عليها، وما الدّافع لأن يُعبد عيسى إذًا؟ لأنه خُلق بدون أب، بل إنّ آدم # خُلق بدون أب وأم، وكذلك الملائكة. فما الميزة إذًا؟ بل الميزة لغيره؛ إذ أن آدم # خُلق بدون أب وأم وسواه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وخلقه في الملأ الأعلى، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته، ولم يجر من مجرى البول، ولم يكن طفلًا أو رضيعًا.

ومع ذلك قال رب العالمين ﷻ جل في علاه: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩].

ومن المعلوم أن الله -تبارك وتعالى- خَلَق خلقه على أربعة أنحاء، أو على أربعة أوجه: فخلق آدم من غير أب، ومن غير أم، وخلق حواء من آدم # ، وخلق عيسى من مريم -عليها السلام، وبقية الخلق يتناسلون كما هو معلوم عن طريق التزاوج.

ثم نقول في النهاية أيضًا: ما وجه الحاجة إلى أن يكون عيسى إلهًا، أالله -تبارك وتعالى- محتاج إليه في شئونه وأعماله؟! وحاشاه، فهو الغني عن العالمين، وهو القائل جل في علاه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، أم أن الله يحتاجه كولي يعهد له من بعده في أمر من أمور الخلق، أو بالخلافة أو بالتدبير، أو غير ذلك -سبحان الله وتعالى- عن ذلك، فهو الحيُّ الدّائِمُ البَاقِي -جل في علاه- والجميع هالك ومنتهٍ، كما قال -تبارك وتعالى- في كتابه: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

كما أنه ﷻ أثنى على نفسه، وذكرها بجليل الذكر وجميل الصفات فقال مثلًا: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. ثم نقول: ما الميزة التي امتاز بها عيسى # عن الخلق جميعهم حتى يكون ابنًا لله؛ فقد عرفنا أن الابن فيه كثير من خصائص الأب، فابن الغني يتضح عليه غنى أبيه، وابن الملك تتضح عليه علامات الإمارة، وأبناء الرؤساء والملوك كذلك، فما الذي امتاز به عيسى حتى يكون ابنًا لمالك الملوك، والغني عن العالمين.

لقد عَرفنا عنه كما حدَّثنا القرآن الكريم أنه كان بشرًا كبقية البشر، وأنه لم يتميَّز عنه ﷺ في شيء؛ حتى فيما يراه الإنسان، خسيسة في نفسه وهو البول والغائط، فلقد رأينا أن عيسى # يأكل ويشرب، ويبول ويتغوط، وينام ويستيقظ، ويموت ويولد، وسيموت ﷺ. فهل من كان كذلك يصلح أن يكون إلهًا، أو ابنًا للإله؟!.

والقرآن الكريم يَحكي ذلك في مشاهد متعددة أذكر بعضًا منها هنا كما جاء في قوله سبحانه: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧]، وقال سبحانه

أيضًا: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢].

وكذلك قال ﷻ مبينًا شأن عيسى # ، وأنه عبد مخلوق فقال -تبارك وتعالى- في كتابه: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الزخرف: ٥٩]، كما قال سبحانه: ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ﴾ [المائدة: ٧٥]، وقال جل في علاه: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة: ١١٦].

وهنا نلاحظ أن عيسى # يتبرأ مِمّا زعَمه قومه فيه، وأنّه إله، وأنه ﷺ نزّه ربه من أن ينسب إليه شيئًا من ذلك، أو أن يكون هو إلهًا مع رب العالمين سبحانه ﴿ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴾ [المائدة: ١١٦]. وقد توسّعت شيئًا ما في الكلام على عيسى # ؛ لأن بعضًا من الناس اليوم، بل إن كثيرًا من البشرية في عالم اليوم قد عبد عيسى من دون رب العالمين، والمخلوقُ لا يصلح أن يكون إلهًا.

ولذلك أقول: إنه من المستحيل أن يوجد في الكون إلهان، وكيف يمكن أن يكون هذا في كون رب العالمين، ورب العالمين سبحانه إله واحد خالق الخلق، ومدبر الأمر، ﷻ جل في علاه، وقد نزّه نفسه من أن يكون معه شريك في كونه وملكه فقال جل في علاه: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وختامًا: بعد ذكري لنماذج من أرباب باطلة، وآلهة مُزيفة، عُبدت من دون رَبّ العَالمين ﷻ جل في علاه- أقول: هذه كُلّها لا تَصلُح أن تكون آلهة، ولذلك يجبُ أن نكفر بها؛ لأنها من الطواغيت، ولا بد لكي يتحقق الإيمان بالله أن نكفر بالطاغوت، ولذلك قال أئمتنا وعلماؤنا -رحمهم الله تبارك وتعالى: "إنّ الولاء والبراء من لوازم الإيمان".

ومعنى ذلك: أننا نعبد الله ﷻ، ونُعلن عن عبوديتنا لربنا وحده دون سواه، ويجبُ علينا في نفس الوقت أن نتبرَّأ مما عُبد من دون رب العالمين ﷻ جل في علاه.

ولقد ضرب الله -تبارك وتعالى- في كتابه أمثلة متعددة عن أنبيائه ورسله، وكيف أنهم توجهوا بالكلية إلى الله، وعادوا أعداء الله، وكفروا بمن عُبد من دون الله -تبارك وتعالى، ومن هؤلاء خليل الرحمن إبراهيم # الذي قال ربه عنه في كتابه:
﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا﴾ [مريم ٤١ - ٤٥].

كل هذا براءةٌ من خليل الرحمن إبراهيم لكل ما عُبد من أصنام، أو آلهة من دون رب العالمين سبحانه، ولما لم يستجب قومه له، وأبوه له اعتزلهم، وهذا أيضًا لون من ألوان الكفر بالطاغوت، ولذلك ذكر القرآن الكريم عن أنه قال لقومه:
﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٨، ٤٩]. إذًا لا بد من الإيمان بالله -تبارك وتعالى- أن نكفر بالطاغوت، وبكل ما عُبد من دون رب العالمين.

مقتضيات الإيمان بالله تعالى

عناصر الدرس

العنصر الأول : الإيمان بوجود الله وأنه حقيقة الحقائق ١٤١

العنصر الثاني : أسباب الإلحاد والرد على الملاحدة ١٤٨

الإيمان بوجود الله وأنه حقيقة الحقائق

أ- قضية وجود الله - تبارك وتعالى:

إن قضية وجود الله ﷻ من المسائل المسلَّمة عندنا نحن أهل الإيمان، وقد سبقت الإشارة إلى أن كلمة "لا إله إلا الله" تعني: الكفر بالطاغوت، والإيمان برب العالمين ﷻ جل في علاه- فهذه الكلمة في نصفها الأول: "لا إله" تعني: الكفر بالطاغوت، وفي نصفها الثاني تعني وجوب الإيمان برب العالمين ﷻ جل في علاه.

وهذا يشتمل على مسائل متعدِّدة، منها: الإيمانُ بوجود رب العالمين ﷻ جلّ في عُلاه. الإيمان بوجود الله ﷻ من البداهات التي يُدركها الإنسان بفطرته، ويَهتدي إليها بطبيعته، وليس من مسائل العلوم المعقدة، ولا من حَقائق التفكير العويصة، ولولا أن شِدّة الظهور قد تلد الخفاء، واقتراب المسافة جدًّا قد يُعطل الرؤيا؛ ما اختلف على ذلك مؤمن ولا ملحد، والأمر في هذا كما قال رب العالمين ﷻ جل في علاه: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وقد جاءت الرسل لتصحيح فكرة الناس عن الألوهية، لا لإثبات وجودها؛ فالإيمان بوجود الله ﷻ أمر فطري في النفوس، فالناس وإن عرفوا الله بطبيعتهم، إلّا أنّهم أخطئوا في الإشراك به، والفَهم عنه، ولذلك كان إرسال الأنبياء والمرسلين ليردُّوا الناس إلى الأمر الأول، ويُبصّروهم أكثر بتوحيد العبادة، أو توحيد الألوهية الذي وقع فيه بعض الناس في الشرك، أما الإيمان بوجود الله،

وبربوبية رب العالمين ﷻ جل في علاه، هو أمرٌ لا يَحتاجُ إلى كثير من الأدلة؛ لأنه أمر فطري في النفوس.

والله ﷻ قد بين أن مرتكز وأساس دعوة الأنبياء والمرسلين هي الدعوة إلى عبادة الله وحده دون سواه؛ كما قال -تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ولذلك قال الإمام الغزالي -رحمه الله- في (الإحياء) كلمات تبين حقًّا أن الإحياء أن الإيمان بوجود الله ﷻ أمر لا يحتاج إلى مقدمات كثيرة، ومن هنا قال: "اعلم أن أظهر الموجودات وأجلاها هو الله تعالى، وكان هذا يقتضي أن تكون معرفته أول المعارف، وأسبقها إلى الأفهام، وأسهلها على العقول، ولكن ترى الأمر بالضد من ذلك، فلا بد من بيان السبب".

فهو -رحمه الله تبارك وتعالى- يقول: هذا من أظهر الأمور، ولكن ظهر خفاء عند بعض الناس في هذا الأمر، ويَذكر هو -رحمه الله تبارك وتعالى- السبب الذي أدى إلى غموض هذا الأمر عند بعض الناس، ولماذا قصرت أفهامهم عن أن يعرفوه، وأن يقفوا على حقيقته؟ وقد ذكر هو سببين لذلك، قال في السبب الأول: "خفاؤه في نفسه وغموضه، وذلك لا يخفى مثاله".

أما الثاني فقال: "ما يتناهى وضوحه، إن الخفاش يُبصر بالليل، ولا يبصر بالنهار، لا لخفاء النهار واستتاره، ولكن لشدة ظهوره؛ فإن بصره ضعيف يبهره نور الشمس إذا أشرقت؛ فتكون قوت ظهوره مع ضعف بصره سبب لامتناع إبصاره، فلا يرى شيئًا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام، وضعف ظهوره فصار ظهوره سبب خفائه، فسبحان من احتجب بإشراق نوره، واختفى عن البصائر بظهوره، ولا يُتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور؛ فإن الأشياء تُستبان بأضدادها.

والله -تبارك وتعالى- هو أظهر الأمور، وبه ظهرت الأشياء كلها، ولو كان له عدم، أو غَيبةٌ أو تغير؛ لانهدمت السماوات والأرض، وبَطُل المُلك والملكوت، ولأدركت بذلك التفرقة بين الحالين، ولو كان بعض الأشياء موجودًا به، وبعضها موجودًا بغيره؛ لأدركت التفرقة أيضًا بين الشيئين في الدلالة، ولكن دلالته عامة في الأشياء على نسق واحد، ووجوده سبحانه وتعالى دائم في الأحوال يستحيل خلافه، فلا جرم أنه أورثت شدَّة الظهور الخفاء؛ فهذا هو السبب في قصور الأفهام:

ويُنكر ضوء الشمس من ليس ذا بصر ❖ ويُنكر صوت الرعد من به صمم

ولقد أحسن الغزالي -رحمه الله تبارك وتعالى- في ذكره لهذا السبب: لماذا قصرت عقول الخلق عن الإيمان، والتسليم بوجود رب العالمين؟ ذلك لأنه سبحانه وتعالى في غاية من الظهور جل في علاه. ووضوح رب العالمين سبحانه وتعالى في مخلوقاته ظاهر لا يُنكر. فالأعمى إذا أنكر ضوء الشمس لا يدل ذلك على أن الشمس ليست بموجودة.

وإذا أنكر الأصم صوت الرّعد لا يدلُّ ذلك على عدم حدوثه، الملاحدة أنكروا قديمًا وحديثًا وجود الله عز وجل لا لعدم رؤيتهم له، وهل كل شيء في الوجود نراه، ولكنّ الإلحاد بَلَغ بهم هذا المبلغ بسبب كفرهم برب العالمين سبحانه وتعالى جل في علاه.

إننا نؤمن بوجود الروح، ونُدرك أننا أحياء، ولسنا نرى الروح، أو نعلم ماهيتها؛ فإننا إذا رأينا إنسانًا يكتب أو يخيط مثلًا، كان كونه حيًّا عندنا من أظهر الموجودات؛ فحياته وعلمه وقدرته وإرادته للكتابة أو الخياطة أجلى عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة، وإن كنا لا نرى بأعيينا حياته وقدرته وإرادته إلا بحركته، والله -تبارك وتعالى- فوق كل ذلك آثاره شاهدة عليه، تدل عليه سبحانه وتعالى جل في علاه.

فهو ﷻ كل أمر أوجده في كونه ينادي بلسان حاله أنه هو الذي خَلَقَ، ويُنادي أيضًا بلسان حاله وجود رَبّ العَالَمين ﷻ؛ لأن هذه الموجودات التي أوجدها رب العالمين؛ لا بد لها من موجد أوجدها، ومحرك حركها، ماذا يقول المرء في وجود الله ﷻ الذي لا تُحصى أدلته لكثرتها؟ وماذا يقول في أوصافه التي يشهد كل شيء بعظمتها؟ إن وجود الله -تبارك وتعالى- وقدرته وعلمه ﷻ، وسائر صفاته يشهد له بالضرورة، كل ما نشاهده وندركه بحواسنا الظاهرة والباطنة.

وهذا هو السبب الثاني، الذي ربما كان سببًا عند البعض في أنه يذهب إلى إنكار وجود الله ﷻ؛ لأن الأمر واضح غاية الوضوح، وأحيانًا يغيبُ هذا الوضوح عن بعض العقول، وعن بعض العقلاء.

إننا نؤمنُ مثلًا بوجود العقل، وندرك أننا عقلاء، ومع ذلك لا نرى العقل، ولا نعرف ماهيته، والذي يطلبُ منا أن نُنكر كل ما لا نراه، ولا يقع تحت حس الحواس الخمس، عليه أن يُعلن أمام الجميع أنه مجنون، وساعتها لا نُصدقه ولا نَسمعُ منه؛ لأنّه رُفع عنه التكليف.

ومما يُستأنس به في هذا المقام: أنّ مدرسًا ممن أرادوا تعليم الشيوعية للتلاميذ، قال لهم: "أي: أولادي: أترون الباب، أترون الشباك، أترون السبورة، أترون الأستاذ؟ والإجابة في كل هذا نعم؛ لأنهم حقًا يشاهدون ما يسألون عنه، فيقول لهم بعد ذلك: إذًا هو موجود -يعني كل ما ذكر من الباب، والشباك، والسبورة موجود- ثم يقول لهم: أترون الله؟ قالوا: لا، قال: إذًا هو غير موجود؛ فقام تلميذٌ نجيب يقول مثلما قال الأستاذ، ويسأل نفسه نفس أسئلته، إلى أن قال: أترون الأستاذ؟ قالوا: نعم، قال: فالأستاذ موجود، ثم قال: أترون عقل الأستاذ؟ قالوا: لا، قال: فعقل الأستاذ غير موجود، الأستاذ إذًا مجنون".

ونحنُ نوقن بوجود الجاذبية الأرضية، ولم تقع تحت حواسنا، ومع ذلك فهي حقيقة علمية لا سبيل إلى إنكارها، ونعتقد بوجود الكهرباء، ولا نعلم ماهيتها، ولكننا اعتقدنا وجودها لرؤية آثارها، وهو الضياء والنور؛ فالأثر يدل على المؤثِّر، والصنعة تدل على الصانع، والكلام يدل على المتكلم، والعلم يدل على العالم، وهكذا.

أوَلسنا نَدُلّ بأنفسنا وأجسامنا، وحواسنا وأوصافنا، وتَقَلُّب أحوالنا، وتغيُّر قلوبنا وجميع أطوالنا في حركاتنا وسكناتنا، على خالقنا وربنا ﷻ، أو ليس كل ما نشاهده من حجر ومدر، ونبات وشجر، وحيوان وجماد، وسماء وأرض، وكواكب، وبر وبحر، ونار وهواء، وذرة ومجرة، وجوهر وعرض، ألا يدلُّ ذلك على رب العالمين -سبحانه- الخالق البارئ المصور، وصدق الشاعر في قوله:

وفي كل شيء له آية ❖ تدل على أنه الواحد

ومع ذلك فرؤية الله ﷻ ليست مستحيلة، فهو ﷻ وإن كنا لا نراه في الدنيا إلا أن رؤيته ليست بمستحيلة، وإنّما نحن الذين لا نستطيع أن نراه ﷻ في الدار الدنيا؛ لضعف حالنا، ولكن في الدار الآخرة نكون مؤهلين لرؤية ربنا ﷻ جل في علاه، وهذا يقع لأهل الإيمان في الدار الآخرة، كما قال رب العالمين -سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وقال تعالى جل في علاه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس: ٢٦] والزيادة: هي رؤية الله ﷻ في الآخرة للمؤمنين، وأما في الدنيا فإننا لا نستطيع ذلك بحالنا هذه.

وقد ضرب الله ﷻ لنا المثل بكليم الله موسى # ، وبيَّن لنا أنه مع نبوته وقوته وكلامه مع الله، وكلام الله له، لم يستطع رؤية الله ﷻ؛ إذ عجز الجبل مع قوته ورسوخه أن يثبت بتجلي الله عليه؛ فدك الجبل بموسى # ، وهذا لا يعني أن الله ﷻ غير موجود؛ لأنه لا يرى ولكن البشر هم الذين لا يتحملون رؤيته.

والشاهد من كل ذلك: أن كل ما في العوالم يَدُلّ على الله -تبارك تعالى، وأنه ﷻ من أظهر الموجودات، وأجلاها، وأما إذا قصد الإنسان بعقله الضعيف عن الوصول إلى ذلك فما كان هذا إلا بسبب وضوح هذا الأمر وجلائه عنده ولديه، وأنه ﷻ حجب نفسه عن خلقه في الدار الدنيا جل في علاه، ولكنه يُري الدار الآخرة، وهذا أمر بحمد الله مُقرَّر عند أهل السنة والجماعة.

ب- فطرية الإقرار بالربوبية:

إن الإقرار بالربوبية أمر فطري في النفوس، وعُقلاء الناس في كل زمان ومكان يتحاشون دائمًا أن ينسبوا شيئًا من صفات الربوبية لغير الرب -تبارك وتعالى؛ لأن الرب هو الذي خلق، ولا رب غيره، وهو الذي رزق ولا رازق سواه، والإنسان صاحب الفطرة السليمة يعرف ذلك ويوقن به

ويكفي شاهدًا على هذه الحقيقة: اعتراف مُشركي العرب حين نزول القرآن الكريم، وهم يُدعون إلى عبادة الله وحده، اعترافهم بعدم صلاحية آلهتهم لشيء من صفات الربوبية، وحقائقها، مع شدة تعصبهم لتلك الآلهة، وتقديسهم لها، وتعظيمهم؛ فإنهم كانوا لا يتردَّدون في الاعتراف بعدم صلاحية الإنسان؛ فضلًا عن غيره من التماثيل، والأصنام للاتصاف بصفات الربوبية، فلم يكونوا ينتحلونها لأفرادهم، ولا لآلهتهم، ولا يدَّعونها لهم بحال، وذلك لما وقر في نفوسهم بحكم الفطرة البشرية من عجز المخلوقين عن الخلق والرزق، والتدبير والملك.

وقد سجل القرآن الكريم عجزه واعترافه في غير آية في كتاب رب العالمين، ومن ذلك قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس: ٣١] إذًا لما سُئِلَ المشركون عن الذي يرزقهم في السماء

والأرض، أو الذي يملك السمع والأبصار، أو الذي يُخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي؛ فلم يكن لديهم جواب إلا رب العالمين ﷻ جل في علاه.

ومن أوضح ما يدل على ذلك ما جاء في قول الله -تبارك تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩]كما قال ربنا ﷻ أيضًا: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [المؤمنون: ٨٦، ٨٧]، وقال أيضًا كما في سورة الزخرف: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٧].

إذًا الإقرار بالربوبية فطري في النفوس، ولذلك أقول: بأنه لن يعرف في العالم أجمع أن زعم إنسان لنفسه أنه خالق، أو أنه رازق، أو أنه مدبر، ولم يأتِ فيما أعلم من قال بأن في هذا الكون خالقين متماثلين في جميع الصفات.

بل إنّ المَجوس الذين قالوا بإلهين، قالوا بإله للظلام، وإله للنور، قالوا أيضًا بأن هناك تَفاوتٌ بينهما، ولذلك قالوا: بأن إله الخير، أو بأن إله النور أفضل من إله الظلام، وهكذا ما وُجد من يزعم أو يدَّعي لنفسه ذلك على سبيل الحقيقة.

وقد يقول قائل: فرعون قال: أنا ربكم الأعلى، أقول: فرعون كان يتظاهر بالإنكار، ولكنه كان يعتقد غاية الاعتقاد أنه مخلوق مربوب، وأنه ليس برب، ولا إله. ولقد سجل القرآن الكريم ذلك عنه، ففي قول الله -تبارك وتعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤] دليل واضح على أن الأمر كان يتبينه فرعون غاية التبين، ولكنه جحد بوجود الله ﷻ من باب التعالي والتظاهر، والبغي، والظلم، والعدوان. ولذلك قال له موسى # كما ذكر القرآن الكريم عنه: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

يقول لهذا الطاغية: أنت تعلم تمام العلم واليقين، أنّ مَا جِئتُ به إنما هو من عند رب العالمين، ولكني أظنك هالك، عندما لا تؤمن بالله ﷻ. ومن تاريخ فرعون أيضًا يمكني أن أقول بأن فرعون كان يعتقد أنه مربوب، وأنه لا يملك شيئًا، وأنه يخاف حتى من الأطفال، والدليل على ذلك أنه لما أعلمه كاهن من كُهان بني إسرائيل، أنهم سيولد مولود يكون نهاية ملكه على يديه، خاف من الأطفال، وأصبح يقتِّل الأطفال، وهم أطفال لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم.

فلو كان فرعون يعتقد حقًّا أنه ربٌّ، وأنه يتحكَّم في هذا الكون، هل كان يمكن أن يخاف من الأطفال، لا يمكن أبدًا، وهذا يَدُلّ حقًّا على أن الربوبية الإيمان بها أمر فطري في النفوس، وأن ما ذُكر ذلك عن قوم في أنحاء الدنيا من هنا أو هناك، يدل على أن هذا من باب البغي والظلم والعدوان، والتظاهر بالإنكار.

أسباب الإلحاد والرد على الملاحدة

قد يسأل الإنسان، فيقول بأن الإلحاد ربما يكون ظاهرًا، توجد في بعض الأماكن، أو في بعض البلاد، أو في بعض الأزمنة، وقد كان هؤلاء الملاحدة لهم وجود، حتى أثناء بعثة النبي ﷺ، وهم الذين حكى القرآن قولهم عندما قالوا: بأنهم يموتون أو يحيون، وكل ذلك من الدهر ليس إلا، فلا رب خلقهم، ولا هناك رب أماتهم: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

هؤلاء الملاحدة وُجدوا مع القول بأن الإيمان بالله من أظهر الأشياء، وأنه فطري في النفوس.

ما هي أسباب هذا الإلحاد:

أقول: إنّ العوامل التي ساعدت على انتشار الإلحاد في العالم، ومكَّنت للمذهب الشيوعي الإلحادي المدمر في أوروبا وغيرها، وفي الشرق، الذي تمثَّل في الاتحاد السوفيتي الهالك قديمًا، الذي ساعد في وجود الإلحاد أمور خمسة فيما أراها، والله أعلم:

على رأس هذه الأمور: ظلم الكنيسة النصرانية، وتحالفها مع الملوك النصارى على استعباد الشعوب النصرانية، واستذلالهم واستغلالهم باسم السلطة الروحية الدينية. إن الكنيسة ظلمت الناس ظلمًا كثيرًا، وهذا أدَّى إلى أن يكفر الناس بالدين، ويظهر الإلحاد والعياذ بالله -تبارك وتعالى.

السبب الثاني: فسَادُ الدِّيانة النَّصرانية وبُطلانها، ومنافاتها للعقول، وتصادمها مع حاجات الإنسان الفطرية، والإنسان إذا وجد الدين الذي يدين به، يتنافى أو يُصادم الحاجات الضرورية التي يحتاج إليها، لا شك أنه يسهل عليه أن يتنكر لهذا الدين، وألا يؤمن به، وألا يعترف برب أو إله بعث رسولًا، أو أنه موجود يدبر أمر الكون.

السبب الثالث الذي أراه من الأسباب التي أوجدت الإلحاد في العالم: طفرة العلوم الكونية والصناعية والآلية طفرة أدهشت العقول وحيرتها، الأمر الذي حمل الناس على تصديق كل نظرية تأتي باسم العلم ونظرياته، وإن كانت النّظرية فرية ظاهرة، معلومٌ كَذِبُها، ومعروف كاذبها، وذلك لأن المرء إذا ضَعُف أمام أية قوة مادية أو روحية، يفقد كل قواه العقلية والبدنية، ويُصبح قابلًا لكل ما تُمليه عليه، مستجيبًا لكل ما تدعوه إليه، مصدقًا لكل ما تقوله وتخبر به.

أما السبب الرابع: فهو ميل الإنسان بطبعه إلى الشهوات، والملاذ، ونفوره من القيود، والأنظمة التي تُحد من ميوله وتوجه غرائزه، لا سيما إذا وجد مشجعًا على ذلك، مؤيدًا له في نزعته التحررية الإباحية التحللية من كل القيود الأخلاقية، والالتزامات الدينية الشرعية.

فنجدُ أنّ الإنسان يميلُ إلى الشهواتِ والملاذ، ومن هنا لا يريد أن يدخل تحت شريعة تحكمه، وبالتالي يتنكَّر لإله يُعبد، ويتنكر لرب خلق وأوجد، سبحان ربي جل في علاه.

أما السبب الخامس والأخير، الذي أراه من الأسباب التي أدت إلى وجود الإلحاد خاصة في هذه العصور والأزمنة المتأخرة: فهو غيبة الحكم الإسلامي، وخفوت نور الإسلام، وتقلص ظل سلطانه الروحي، وانحسار مده الخيري الذي كان يعطي البشرية في شتى أنحاء العالم، طاقات كبيرة من القيم الروحية، والأخلاق البشرية الفاضلة الكريمة؛ إذ الفترة الذي ظهر فيها المذهب المادي الشيوعي، كان الإسلام قد ران على عقائده رين الخرافات والضلالات، وحل بدياره الدمار، وبأسواق علومه ومعارفه الكساد والبوار؛ نتيجة لكيد أعدائه له، وغفلة بنيه عنه، فوجد لذلك المذهب الإلحادي الجو خاليًا للتضليل والمغالطة والفساد؛ فحكم على الأديان كلها بالبطلان، ونسب كل ضعف في الناس إليها، وكفر بها، وحاربها، ووجَّه نقده إليها بلا هوادة.

أما الله لو وجد الإسلامُ، وكان مطبقًا، وكانت له راية عالية خفاقة، وقام به أصحابه كما يجبُ أن يقوموا به، ووجدت اختراعاتهم، وتفوقوا في كل مجالات الحياة العلمية، وسواء منها التقنية أو التشريعية، أو الروحية، أو غير ذلك؛ ما استطاع أعداء الإسلام أن ينالوا من الإسلام شيئًا، أو أن يدعو إلى الكفر برب العالمين -سبحانه- أو إنكار وجود رب العالمين سبحانه وتعالى جل في علاه.

هذه خمسة عوامل، كل واحد منها ساعد على نشر المذهب الإلحادي المُدمر الذي يجتاح بعض أنحاء في عالمنا اليوم، وقد يحوِّل البشرية إلى حيوانية من أحط ما تكون الحيوانية، إن لم يعارض بسرعة، ويوقف عند حدِّه، وإني لا أرى أن مذهبًا في العالم أو قوة ستعارضه، وتوقفه عند حده، فضلًا عن أن تبدِّده، وتقضي عليه إلا دين الإسلام؛ فالإسلام وحده هو الذي يستطيع أن يقف أمام هذا الإلحاد.

فالإسلام وحده هو الذي يستطيع أن يقف أمام هذا الإلحاد؛ لأن أوروبا كانت بعلمها التقني التقدمي، كانت -وللأسف الشديد- هي الضحية الأولى، بل إن أوروبا هي التي جرت هذه المحنة على العالم الإنساني، هذه المحنة التي خرج بسببها الإلحاد الشيوعي، إن الملاحدة هؤلاء خرجوا وللأسف الشديد من أوروبا، ولذلك أنا بقولي هذا لا أتجنى عليهم بحال من الأحوال، وإنما أقول بأن السبب في ذلك أوروبا؛ لأنها وقفت أمام الإسلام.

فبعد أن ظهر الإسلام، وعرفت أوروبا في الجملة صلاحيته لهداية البشر، وأنه هو الدين الذي يسعد الإنسان به في الدنيا والآخرة؛ فبدلًا من أن تعتنقه دينًا، وتحتضنه مبادئ خير وسعادة وإسعاد، قاومته ووقفت في طريق تقدمه وانتشاره، ومن العجيب أنها حاربته باسم الدين المسيحي والنصراني؛ كأنها لم تدري أن الإسلام هو دين الله الحق، الذي أرسل به نبيه محمدًا ﷺ إلى البشرية كافة.

وأما المسيحية فلم تكن سوى دين إقليمي محلي فقط؛ لأن عيسى # لم يكن رسولًا إلى غير بني إسرائيل أبدًا، فقد قال هو بنفسه: "لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة"، وقال القرآن الكريم عنه: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]

وهذا الرسول هو نبينا ﷺ الذي أُرسل إلى الناس كافة، وقد قال فيما ثبت عنه في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري ومسلم وغيرهم قال: ((وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعثتُ إلى الناس كافة)). وقد قال الله عنه في كتابه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

والشاهد من ذلك: أنني أدعو العالم الغربي والشرقي إلى أن يتصدَّى للإلحاد، بدلًا من أن يرفعه وأن يقوم به. إن الإلحاد في ظل هذه العلوم العصرية والتقنية الحديثة ينبغي ألا يكون له وجود، وعلى رعاة الإلحاد في العالم أن يقفوا عند حدٍّ، وأن يتساءلوا كيف ينكروا رب العالمين سبحانه، ولماذا لا يدخلون في شريعة نبينا ﷺ؟. وأنا أوجِّه حديثي إلى الغرب الكافر بصورة خاصة، وأقول: أنتم ستتحملون وزر هذا الإلحاد، الذي وجد في العالم؛ لأنكم حاربتم دين الإسلام، ولو تركتم دين رب العالمين سبحانه يسودُ وينتشرُ؛ ما وُجد هذا الإلحاد على ظهر الأرض اليوم. بعد أن بينت أسباب الإلحاد.

الرَّدُّ على شبهات الملاحدة:

بعد أن بينت وذكرت أسباب الإلحاد، أسوق أشهر ما استند إليه الملاحدة من شبهات، وكانت هذه الشبهات سببًا كما يزعمون في إنكار وجود رب العالمين ﷻ جل في علاه: وقد استند الملاحدة إلى شبهات كثيرة:

قامت عندهم شبهة: من الذي خلق المخلوقات؟

قالوا: الطبيعة، نحن نقول لهم: الطبيعة هي المادة، وعناصر تكوينها من البرودة والحرارة، والرطوبة واليبوسة، والمواد المركبة منها، وهي الذرات المكونة من النوى المشتمل كل نواة منه على بروتون ونيترون وإلكترون، هل هذه العناصر

من النوى والذرة والخصائص المشتملة عليها المادة، أوجدت نفسها فكونت ما يُسمى بالطبيعة؛ اللهم لا. إنّ هذا مما تُحيله العقول ولا تقبله أبدًا، إنّ معنى هذا الهُراء: أنّ الطبيعة أوجدت نفسها أولًا، ثم أوجدت غيرها من الموجودات ثانيًا.

إنّ المادّة المركبة من عناصرها والمودع فيها خواصها وطباعها مفتقرة إلى من يوجد عناصرها، ويودع فيها خواصها، وحينئذٍ فهي حادثة مخلوقة، فكيف يصحُّ أن تكون إلهًا خالقًا؛ يُنسب إليها الخلق والتكوين، والإبداع والتنظيم. سبحانك ربي والله إن هذا لضلال في العقول مبين.

إن العقول السليمة قد حكمت بحدوث المادة المركبة من عناصر عدة؛ إذ كل مركب حادث، وكل حادث مفتقر إلى محدث أحدثه طبعًا، كما قضى بذلك قانون العلِّيَّة، المُسَلّم به من جميع العقلاء، إنّ وجود مادة وحركة لها وهي طاقتها معلول؛ فلا بد له إذًا من علة اقتضت وجوده، وهو الإله ﷻ والذي ليس بمادة، إذ لو كان غير أزليّ؛ لكان محدثًا -جل في علاه، ولو كان محدثًا لكان مادة، والمادة ميتة، فكيف تخرج الأحياء! هذا كلام لا بد أن يفهمه هؤلاء الملاحدة.

ونُبيِّن لهم أنّ الطّبيعة التي قال البعض: بأنها هي التي أوجدت هذه المخلوقات. أقول لهم في النهاية: إن الإبداع الموجود في الكون كله، علويِّه وسفليِّه، من الذرة إلى المجرة، شاهد حق، وقاضي عدل، باستحالة صدوره عن الطبيعة العمياء الميتة، أو عن الصُّدفة البعيدة عن كل حكمة، والخالية من كل إرادة.

وقد يقول الإنسان ما هي الصدفة؟ أقول: هذه هي الشبهة الثانية:

أن هذا الكون وُجد عن طريق الصدفة، وهذا في الحقيقة أمرٌ غريبٌ وعجيب، يضحك الإنسان منه، بل يخجل العاقل من ذكره، فهو كما ذكر بعض أهل العلم

أضحوكة وأعجوبة، وأُبين بأنّ الصدفة لا يُمكن بحال من الأحوال أن توجد هذا الكون، بهذا النسق العجيب، وهذا النظام الدقيق، لا يُمكن بحال من الأحوال.

وأقول لهؤلاء أيضًا: إنه بمرور الزمن الطويل الذي يتكلّم الناس فيه بأرقام هائلة، كمئات الملايين وغير هذا، هل يُمكن أو كان من خلال هذا الزمن الطويل أن أوجدت هذه الحياة نفسها؟ أو أنه وجدت خلية على الأرض من نفسها، من طريق الصدفة التي لا يعرفها الإنسان، ولا يمكن أن يصدق بها عقل؛ هذه الصُّدفة كيف تخلق هذا الكون؟! كيف تُوجد هذا التدبير العظيم الذي أوجده رب العالمين؟

ولهذا ذكر بعض العلماء لإبطال فرية الصدفة في الخلق والإبداع أمثلة عديدة: قضوا بها على هذه النظرية العمياء الميتة المُخجلة، القائمة على أساس الوهم والخيال اللاشعوري، ومما ذكره هؤلاء العلماء، قالوا: إن الإبداع الموجود هل يمكن أن يقول عاقل بأنه وُجد عن طريق الصدفة لا غير؟ إن هذه الصدفة شأنها كشأن من يقول: إن دارًا للطباعة بها صندوق من الحروف، يكفي لتصفيف كتاب، فأصاب الدار هزة من زلزال عنيف؛ فتساقطت تلك الحروف على بعضها، فكونت بالصدفة كتابًا ذا أبواب وفصول علمية مختلفة، وفي مواضع شتَّى منه.

إنّ من يقول ذلك كمثل من يقول: إنّ رجلًا أعمى غُرست له إبرة في لوحة، وأعطي ألف إبرة، وقيل له: ارم هذه الإبر واحدة بعد الثانية؛ لتدخل الأولى في ثقب الإبرة المغروسة في اللوحة، وتدخل الثانية في عين الإبرة الأولى، والثالثة في عين الثانية، وهكذا بطريق الصُّدفة حتى تدخل كل الإبر في بعضها بعضًا، والرجل كما علمنا أعمى لا يُبصر شيئًا؛ فهل هناك عاقل يصدق بذلك؟ هل

هناك عاقل يُمكن أن يقول: بأنه يمكن أن يخرج كتابًا نتيجة أن حروفًا مثلًا من العَربية أو غيرها، قد تَشكَّلت ووجدت ودارت حول نفسها؛ فأنتجت لنا كتابًا؟ أو أن يكون ثوب يُخاط بسبب إبر توجد هكذا واحدة تلو الأخرى، دون أن يكون هناك من يقوم بذلك؟!.

إنّ هذا لمن المُستحيل الذي لا يُمكن أن يُصَدّق به إنسان، ولذلك أقول: إن القول بالصُّدفة أيضًا مع هذا النّسق العجيب في هذا الكون من أمحل المحالات، وأبطل الباطل، ولا يُمكن أن يكون أيضًا.

المسألة الثالثة وهى الضرورة:

وهي شبهة أيضًا من شبهاتهم: قالوا: وُجد هذا الكون، وكان هذا الكون، ووجدت متطلبات الناس فيه بالضرورة؛ فنسألهم هنا: ما الضرورة؟ وما معناها؟ إن التنوعات الموجودة يقولون: حصلت بطريق الضرورة، هذا معنى الضرورة، قالوا: التنوعات الموجودة في الخلق وُجدت لأن الضرورة أو أن الناس احتاجوا إليها؛ فمثلًا قالوا: حاجة الظرافة إلى تناول غذائها من أشجار عالية، هي التي جعلت عُنقها يطول، وحاجة السمكة الملحة إلى السبح في الماء، هي التي أوجدت زعانفها التي تساعدها على السباحة.

إلى غير ذلك من الهراء والتعسف العجيب، والمنطق السقيم، وما قالوا بهذه الترَاهات والأباطيل؛ إلا إمعانًا في الهروب من مواجهة الحقيقة، وهي الإيمان بالله الصانع الحكيم، الذي لا إله إلا هو، ولا رَبَّ سواه، وإلا فما يُسَمّونه بالضرورة، إنّما هو العناية الإلهية بمخلوقاته.

أو لم يروها في ذات الولد، وكيف تُدِرّ اللبن لمولودها بمجرَّد أن تضعه، وفي ولدها الذي كان في بطنها يتغذَّى بواسطة الأنبوب المتصل بسرته، ولما انفصل عنها، وخرج من بطنها، وحملت له الغذاء في ضرعها، وهدى الله ذلك المولود

إلى معرفة امتصاص حلمة الثدي؛ ليتغذَّى باللبن، إلى أن يصبح قادرًا على التغذي بالحبوب والفواكه والخضر، بعث الله ﷻ إليه، أو أخرج له الأسنان؛ لكي يأكل بعد ذلك، ولكن أثناء فترة الرضاعة جعل الله ﷻ له لبنًا.

هذه الضرورة التي يقولونها هنا هي في الحقيقة، هي من عناية رب العالمين ﷻ بمخلوقاته، وأنه ﷻ يُوجد لكل مرحلة من مراحل ما خلق ما تحتاج إليه، وبالتالي فالضرورة لا مجال لها هنا، وإنّما ما وُجِدَ من حاجات الإنسان، وتوفيرها له، إنّما هي عناية الله -تبارك وتعالى- الذي أعطى كل شيء خلقه، ثم هدى.

هذا من خلق وحسن خلق رب العالمين ﷻ جل في علاه، فقولهم إذا بأن الضرورة كانت سببًا في إيجاد ما هو موجود الآن، نقول: هذا باطل، وإنما لا يَخْرج شيء في كون الله -تبارك وتعالى- عن خلق الله -تبارك وتعالى.

وختامًا للرَّد على شبهات الملاحدة سأذكر هنا أيضًا ثلاثة أسس أُدلِّل بها على وجود رب العالمين سبحانه، وأنه هو الخالق لكل المخلوقات، وأنّ ما ذُكر سَابِقًا سواء كان مما ذكره بعض الملاحدة، من طبيعة أو صدفة أو ضرورة، أو غير ذلك أنّ هذا باطلٌ لا يُمكن أن يكون.

سأذكر هذه الأسس التي أُبطل بها قول هؤلاء الملاحدة:

الأساس الأول: هو أن العدم لا يخلق شيئًا وهذه ضرورة عقلية، وحقيقة شرعية، شهدت بها بداهة العقول، وأثبتها كتاب رب العالمين -جل في علاه، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾ [الطور: ٣٥: ٣٦].

وكيف يُمكن لعاقل أن يجحد هذه الحقيقة، وقد شهد بها حذاؤه الذي ينتعله، والثوب الذي يلبسه، والسيارة التي تُقلُّه، والمظلة التي تقيه حر الشمس، بل طعامه

وشرابه، وكل شيء حوله؛ فهو لا يعقل وجود شيء من هذه الأشياء، دون صانع أوجده وهيَّأه؛ لما أُعدَّ له من منفعة، فكيف يقول إذًا بأنه خُلق من لا شيء، وأنه لا يوجد في هذا الكون ما يدل على رب العالمين ﷻ جل في علاه؟!.

الأساس الثاني وهو: أنّ الفعل مرآة لقدرة فاعله، وبَعض صفاته، ذلك بأن بين الفعل والفاعل علاقة قوية؛ فلا يكون شيء في الفعل إلا ولدى الفاعل قدرة على فعله، فإذا شاهدنا مصباحًا كهربائيًّا، عرفنا أن لدى صانع ذلك المصباح زجاجًا وأسلاكًا، وأن لديه قدرة على تشكيل الزجاج والأسلاك في الشكل الذي نراه في المصباح، وأن لديه خبرة بالكهرباء.

وإذا شاهدنا سيارة متحركة تسير في الطرقات المعبدة، وتتحرك عند اللزوم، وتتوقف في المكان المعلوم، وتدور في المكان المُعدِّ للدوران؛ عرفنا أن سائق السيارة عاقل يُفكر، وأن له إرادة حكيمة أحكمت توجيه السيارة، وأنه عليم بطرق قيادة السيارات، وهكذا عرفنا شيئًا من قدرة الصانع والسائق، وصفاتهما من الآثار المشاهدة بأفعالهما أمامنا، وبهذا كان الفعل مرآة لقدرة فاعله، وبعض صفاته.

وقد دلَّنا القرآن الكريم على هذا الأساس العقلي؛ فحثنا على النظر في ملكوت السموات والأرض، وما خلق الله من شيء؛ لكي نتعرف من خلال هذا النظر على كثير من صفات الخالق الحكيم جل وعلا، فقال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: ٤٨ - ٥٠].

فظاهرة تكون المطر، ثم سوقه إلى الأرض الميتة، ثم حياة الأرض به بعد موتها، تدل على وجود الصانع، وعموم قدرته؛ خاصة على إحياء الموتى، كما تدل على رحمته

سبحانه، ولهذا قال تعالى بعد ذكر هذه الظواهر: ﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [الروم: ٥٠].

فالتعَرّف على بعض صفات الفاعل من خلال مشاهدة أفعاله وآثاره؛ منهاج عقلي وشرعي، يُحسه العقل بالضرورة، وتَحُثُّ عليه النصوص الشرعية، وتعتمده أساسًا مهمًّا تقيم عليه كثيرًا من حقائق الإيمان، وبتطبيق هذا الأساس نجد أن هذا الكون الكبير يشهد بوجود الله -تبارك وتعالى- يشهد بوجوده، وأنه هو الذي خلق الكون، ويشهد بعظمة هذا الخلق الذي خلقه رب العالمين سبحانه وتعالى. ويشهد من خلال الإحكام والتناسق والترابط، على أنه من صنع حكيم عليم واحد مهيمن سبحانه وتعالى جل في علاه.

الأساس الثالث: وهو أن فاقد الشيء لا يعطيه، وهذه ضرورة عقلية شهد بها العقل، ودلَّت عليها النصوص الشرعية؛ فلا يُعقل أن ينسب إلى الأخرس فصاحة اللسان وحسن البيان، وإلقاء الخطب البليغة التي تأخذ بمجامع القلوب، ولا يُعقل أن يُنسب إلى حيوان لا يعقل، أو إلى جاهل غبي لا يعلم؛ أنه قام بإطلاق مركبة فضائية لغزو الفضاء الخارجي، والتعرف على كثير من حقائقه، ولا يُعقل أن يُنسب إلى بدويٍّ يعيش في مجاهل الصحراء، يرعى إبله وغنمه أنه قام بإجراء عملية دقيقة في المُخ؛ لاستئصال بعض الأورام الخبيثة، أو أنه ألَّف كتابًا حول الذرة يشرح فيه بالوثائق العلمية كلُّ ما يتعلق بها من حقائق.

نقول: لا يعقل ذلك؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه، وكل ما نُسب إليه الخلق فهو مخلوق، وكان عدمًا قبل أن يكون؛ فكيف ننسب إليه شيئًا من الخلق، إلى الطبيعة، أو إلى الصدفة، أو إلى الضرورة، والكون كله قد خلقه بعد عدم رب العالمين سبحانه وتعالى جل في علاه.

أدلة وجود الله -تبارك وتعالى-

عناصر الدرس

العنـــــــــصر الأول : دليل الخلق والحدوث ١٦١
العنـــصر الثـــاني : دليل الإبداع والعناية ١٦٧

دليــــل الخلــــق والحــــدوث

وحديثي عن أدلة الله ﷻ هو من باب مجادلة الملحدين بالتي هي أحسن والنزول إلى مستواهم في المنافسة من باب قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤] وكذلك فحديثي لهم أو مجادلتي معهم قبل أن تكون بالقرآن الكريم وهو دليل الأدلة وأعظم الأدلة كانت هنا بالعقل؛ لأن هذا هو الأمر المتفق عليه بيننا وبينهم.

ومن الأمور المُسلَّم بها عقلًا، والمعروفة تجربة وحسًّا وواقعًا: أن كل حادث لا بد له من مُحْدِث، وباعتبار أن هذا الكون كما عليه الإجماع من العُقلاء حادث، إذًا لا بد له من محدث، فالكون حادث، والعقلاء يُقرُّون بأن كل حادث لا بد له من محدث، وهذا الكون موجود؛ إذًا لا بد له من موجد أوجده، وهذا الكون أيضًا مخلوق فلا بد له من خالق خلقه. هذا أمر يُسلم به العقل ولا يُنازع فيه.

ولذلك نتساءل مَن الذي خلق الكون إذًا بعد أن قلنا: بأنه لا بد لهذا الخلق، أو الكون من محدث وخالق، أخرجه من حيِّز العدم إلى الوجود؛ فلا بد أن يكون الجواب هو رب الأرباب ﷻ جل في علاه، وصدق الله في قوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٦].

إذًا فإنكار محدث الحوادث، ومُوجد للوجود هو في الحقيقة تكذيب للواقع وتناقض مع العقل، ونسف لمبدأ السببية الذي هو مفتاح العلم، ومصدر الحقائق. إن المتأمل للمخلوقات الحية المنبثَّة هنا وهناك، والمنتشرة في عوالم هذا الكون؛ يجد ملايين الملايين من الأحياء، تنقسم إلى آلاف من الأنواع والأجناس، كل

جنس وكل نوع له خصائصه ومزاياه، وشكله، وصورته، وطرق تغذيته، وطرق حياته، وبقاء نوعه وسلالته.

ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذه النوعيات والأجناس حين قال رب العالمين ﷻ جل في علاه: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [النور: ٤٥].

كما أنه ﷻ أشار إلى الخصائص والمزايا، والشكل، والصورة وطرق الحياة حين قال: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام: ٣٨]، فهذه النوعيات، والأجناس من الكائنات الحية المنتشرة في الكون، وهذه الخصائص، والمزايا الموجودة فيها ألا تدل على أن الله سبحانه هو الذي بدأ خلقها، وصوَّر إشكال، وقدَّر أقواتها، ونفخ فيها روح الحيوية والحياة.

تأمَّل قوله تعالى وهو يدعو إلى التأمل والنظر والاعتبار، وأن ما وجد في الكون إنما كان بخلق رب الأرباب يقول سبحانه: ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، فهل يستطيع أحدٌ بعد هذا في هذا الوجود مهما أوتي علمًا وقدرة، وذكاء أن يخلق كائنًا حيًّا بعد أن لم يكن. القرآن الكريم يتحدى البشر أن يخلقوا ذبابةً إن كان في مقدورهم ذلك، فإن ثبت عجزهم عن خلق ذبابة، وهي شيء حقير.

أفلا يدل ذلك على أن المحيي، والمميت هو رب العالمين سبحانه الخالق المبدئ المعيد - جل في علاه، والله في ذلك يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج- ٧٣].

هذا فضلًا عن خلقِ الإنسانِ، فهو أعجب وأعظم بما امتاز به من العقل، ولما أوتي من الفهم والعلم، ولما أعطي من ملكة التعليم والبيان، ولما فُطر عليه من حسن الهيئة والصورة، ولما سُخِّر له ما في السموات والأرض، ولما أودع فيه من قدرةٍ فائقةٍ، وطاقة هائلة، وذكاءٍ فريدٍ. ويكفي الإنسان فضلًا وفخرًا وكرامةً أن يقول الله عنه في محكم تنزيله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

فكل هذه الخصائص والمزايا التي ركَّبها الله في الإنسان تدل دلالةً تامةً واضحة على الخالق المبدع، والإله الحكيم القدير ﷻ، ولذلك يقول الله -تبارك وتعالى- موجهًا الخطاب إلى هذا الإنسان قائلًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٥ - ٧].

ولعل قائلًا يقول: إن هذا العالم قديم أزلي ليس لنشأته بداية، فنقول: فكرة قدم العالم منقوضة من الناحية العلمية، ومن الناحية العقلية، كما قال الأستاذ "فرانك ألون" أستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة مانيتوبا بكندا، يقول: "كثيرًا ما يُقال: إن هذا الكون المادي لا يحتاج إلى خالق، ولكننا إذا سلمنا بأن هذا الكون موجود، فكيف نفسر وجوده ونشأته، هنالك أربعة احتمالات للإجابة على هذا السؤال:

أول هذه الاحتمالات يقول فيها: فإما أن يكون هذا الكون مجرد وهم وخيال، وهو يتعارض، أو وهو ما يتعارض مع القضية التي سلمنا بها حول وجوده".

أما الاحتمال الثاني: فهو إما أن يكون هذا الكون نشأ من تلقاء نفسه من العدم.

والاحتمال الثالث: إما أن يكون أبديًّا ليس لنشاته بداية.

أما الاحتمال الرابع والأخير: فهو أن يكون لهذا العالم، ولهذا المخلوق، ولهذا الكون خالق، ثم رجع بعد ذلك فتحدث وتكلم عن هذه الاحتمالات الأربعة، فقال:

أما الاحتمال الأول فإنه لا يحتاج إلى مناقشة أو جدال لسخافته.

وأما الرأي الثاني الذي يقول: إن هذا الكون قد نشأ من تلقاء نفسه من العدم؛ فهو لا يقل عن سابقه سخافة وحماقة.

والرأي الثالث الذي يذهب إلى أن هذا الكون أزلي ليس لنشأته بداية إنما يُشير مع الرأي الذي ينادي بوجود خالق لهذا الكون، وذلك في عنصر واحد هو الأزلية والقدم. وإذًا فنحن إما أن ننسب صفة الأزلية إلى عالَم ميت، وإما أن ننسبها إلى إله حي يخلق، ولكن قوانين الحرارة تدل على أن مكونات هذا الكون تفقد حرارتها تدريجيًّا، وأنها سائرة حتمًا إلى يوم تصير فيه الأجسام تحت درجة من الحرارة بالغة الانخفاض هي الصفر المطلق، ويومئذ تنعدم الطاقة، وتستحيل الحياة.

أما الشمس المُستعِرة والنجوم المتوهجة، والأرض الغنية بأنواع الحياة فكلها دليل واضح على أن أصل الكون وأساسه يرتبط بزمان بدأ من لحظة معينة؛ فهو إذا حدث من الأحداث، ومعنى ذلك: أنه لا بد لأصل هذا الكون من خالق أزلي ليس له بداية، عليم محيط بكل شيء، قويٌّ ليس لقدرته حدود، ولا بد أن يكون هذا الكون من صنع يديه.

هذا رجل من الغرب يقول هذه الكلمات، ويصل إلى هذه الحقيقة المهمة وهي: أنه لا بد أن يكون لهذا الكون خالق أخرجه من حيز العدم إلى الوجود. ولذلك أقول: إن الذي نَخْلُصُ إليه بعد ما تقدم أن هذا الكون ما دام فيه حرارة، وما دام

فيه حركة وسكون، فلا يمكن أبدًا أن يكون قديمًا، وإذا كان ليس قديمًا فهو إذًا حادث، وإذا كان حادثًا، فالمنطق والعقل يقول: لا بدَّ أن يكون له محدث، والمحدث هو رب العالمين ﷻ جل في علاه، وصدق الله في قوله: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١].

إن الإنسان لم يخلق نفسه، ولم يخلق أولاده، ولم يخلق الأرض التي يدرج فوقها، ولا السماء التي يعيش تحتها، والبشر الذين ادَّعُوا الألوهية لم يكلفوا أنفسهم مشقة ادّعاء ذلك؛ لأن هذا أمر لا يصدر عن إنسان يعرف ما يقول، ومن المقطوع به أن وظيفة الخلق، والإبراز من العدم لم ينتحلها لنفسه إنسان، ولا حيوان، ولا جماد. ومن المقطوع به كذلك: أن شيئًا لم يحدث من تلقاءِ نفسه، فلم يبقَ إلا ربُّ العالمين ﷻ جل في علاه، وقد قرر القرآن الكريم هذا الدليل، كما جاء في قول الله -تبارك وتعالى: ﴿ أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٣٥ أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾.

ولا شك أن لوجود كل واحد منا بداية معروفة، فنحن قبل ميلادنا لم نكن شيئًا يُذكر كما قال سبحانه: ﴿ هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ﴾ [الإنسان: ١].

وأعتقد أن هذا يُسلم به العقلاء، فالإنسان لم يدَّعِ لنفسه أنه خلق نفسه، كما أنه أيضًا لم يزعم إنسانٌ أنه خلق غيره، والقرآنُ الكريمُ في الآيتين السابقتين أشار إلى السموات والأرض؛ ذلك أن السموات والأرض لها مكانةٌ عظيمةٌ في الأرض والإيجاد، فهي أكبر من الإنسان بقدر لا يستطيع للإنسان أن يتصوَّره؛ فضلًا عن أن يذكره، وإلى جانب أن السموات والأرض خُلقتا قبل الإنسان، ولا يوجد عاقل بحالٍ من الأحوال يمكن أن يزعم أنه أوجد شيئًا قد وُجِدَ قبله.

ثم بعد هذا نقول: إن عناصر الكون الذي نعيش فيه كذلك لها بداية معروفة، وعلماء الجيولوجيا يُقدِّرون أن لها أعمارًا محدودة مهما طالت، فقد كانت قبلها

صفرًا، وكان هناك ظن بأن المادة لا تفنى، واعتمد على ذلك فريق من الناس في القول بقِدَمِ العالم، وما يتبع ذلك القدم الموجود من أباطيل. على أن تفجير الذرة هدم هذا الظن، ولو لم يتم تفجيرها ما قبلت هذا الظن على أنه حقيقة ثابتة، يعني: أنه لا يجوز لعاقل أن يقبل هذا الظن على أنه حقيقة ثابتة. وأنا هنا أخاطب العقلاء؛ لأن المفتاح الذي يفتح على العالم أبواب الفناء ليس من الضروري أن يضعه الله في أيدي العلماء.

وعدم اهتداء الناس إلى ما يدمِّر الكون لا يعني أن مادة الكون غير قابلة للدمار والفناء، ولما يكون ذلك حصانةً أقامها القدر الأعلى؛ حتى يمنع العالم من الانتحار، إننا جازمون بأن وجودنا محدث؛ لأن تفكيرنا وإحساسنا يهدينا لذلك، وغير معقول أن يتطوَّر العدم إلى وجود تطورًا بدائيًّا، إنه إذا وقعت حادثة لم يُدرَ فاعلها، قيل إن الفاعل مجهول، ولم يقل أحد قط: إنه ليس لها فاعل فكيف يُراد من العقلاء أن يقطعوا الصلة بين العالم وربه، إننا لم نقل شيئًا، فقلنا: فمن كوَّننا؟ لا شك أنه هو رب العالمين سبحانه، ولذلك أُردِّد قول الله -جل ذكره- ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

والمراد بالخلق هو الإيجاد والإحداث أي: إبراز الشيء من العدم إلى الوجود، وذلك مثل خلق الحياة في الكائنات الحية على ظهر الأرض، التي بثَّ فيها من كل دابة، وأنبت فيها من كل زوج بهيج، ومثل خلق الإنسان العاقل الذي لم يكن شيئًا مذكورًا، ثم كان، ومثل خلق السموات والأرض، وهو أكبر من خلق الناس.

وقد دلَّل الفلك الحديث على عظم الأجرام العلوية، وسعة المسافات بينها حتى إنها لتُقاس بملايين السنين الضوئية، تُرَى من خالق الحياة على هذه الأرض،

ومن خالق هذا الإنسان العاقل المُفكر؟ ومن خالق هذا الكون كله بأرضه وسمائه؟ هل وجدت الحياة، ووُجد الإنسان، ووجدت المخلوقات العلوية والسفلية وحدها بلا موجد؟ أم لا بد لها من خالق أوجدها، ومن هو؟ إنه من منطق الإيمان إلى جانب مخاطبة العقل هنا، لا بد أن يقول الجميع: الخالق هو رب العالمين ﷻ جل في علاه.

وقد قال المتكلمون: "العالم متغير، وكل متغير حادث، وكل حادث لا بد له من مُحدث، ولا بد أن يقف العقل عند مُحدِث غير حادث، وإلا لزم الدور أو التسلسل المحالان؛ وذلك المُحدِث هو الله -تبارك وتعالى".

دليل الإبداع والعناية

وقبل عرض قانون العناية الذي هو أحد القوانين العقلية الموجبة للإيمان بالله تعالى، والمعرفة به سبحانه نذكر هنا قاعدة عامة في الكون كله، قد تخفى على غير المتأملين في الكون، والدارسين له، وهي: أنه لا مجال في الكون للباطل، ولا محل فيه لعبث بحال من الأحوال، بل الكون كله قائم على أساس العدل والحق، والنظام والإحكام.

ولا يوجد جزء واحد من أجزاء خلوًا من فائدة مقصودة منه، أو حكمة متوخاة فيه، وهذه الحقيقة الكونية تظهر بوضوح لكل من تأمَّل الكون، ونظر في حقائقه. وقد قرر القرآن الكريم هذه الحقيقة، وأكَّدها فيه في مواطن متعددة منها ما جاء في قوله -تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٩]، وفي ذلك أيضًا يقول رب العالمين سبحانه كما جاء في سورة ص: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]

ومثل هذه الحقيقة الكونية في وضوحها وثبوتها قانون العناية الذي نعرضه الآن برهانًا عقليًّا على وجود الله -تبارك وتعالى، وطريقًا من طرق معرفته ﷻ، وقانون العناية هذا يتألف من حقيقتين:

الحقيقة الأولى: خلوُّ الكون كله من أية ظاهرة للعبث والباطل فيه.

أما الحقيقة الثانية: فهي أن الكون كله بجميع أجزائه مسخر لخدمة نوع واحد من بين سائر أنواعه، فمن أعظم كائن فيه إلى أصغر كائنٍ وأحقره، الكل يخدم ذلك النوع، وهي حقيقة مدهشة للغاية أن يكون هذا الكون الفخم الهائل بكل ما فيه من أجرامه السماوية، ومخلوقاته الأرضية، الجميع مسخر تسخيرًا خاصًّا لخدمة نوع واحد من بين سائر المخلوقات التي حواها الكون، وانتظمها هذا الوجود المادي القائم. كما سبق بيانه.

وهذا النوع المسخر له الكون كله هو الإنسان وحده، والمثل الذي يُوضح هذه الحقيقة التي تبدو غريبة بادئ ذي بدئ وعجيبة: هو أن يأمر أحد الملوك العظماء ببناءِ قصرٍ فخمٍ كبير، فيُبنى على أحسن طراز، ويُجمل بأحسن أنواع التجميل، ويزوَّد بكلِّ أسبابِ الراحة والارتقاء؛ بحيث يصبحُ آية في باب القصور الملكية في دنيا الناس متعةً وجمالًا، ثم ينزل به ضيفًا كريمًا عليه. ويقول له: لقد بنينا لك هذا القصر لتعيش طوال حياتك، متمتعًا بكل ما فيه من خيرات ونعيم.

فالملك هو الله، والقصر هو الكون، والضيف هو الإنسان، وهذه الحقيقة قد قرَّرها القرآن الكريم أيضًا، وأكَّدها كالحقيقة الأولى، وذلك في قوله -تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢، ١٣].

وبعد هذه المقدمة التي أراها ضروريةً كمدخل مهم عند الكلام عن دليل الإبداع، والعناية، أستعرض بعد ذلك الآن بعض مظاهر العناية بالإنسان في الكون مجملًا،

بعض مظاهر هذه العناية بالإنسان في هذا الكون، نحن لو نظرنا إلى السماء سنجد الكواكب الكثيرة، والنجوم العديدة، وفيها الشمس وفيها القمر، والأرض أكثر تعلقًا بهما من غيرهما من سائر الأجرام السماوية، فبالنجوم المشرقة، والكواكب المنيرة ازدانت السماء الدنيا التي هي سقف في هذه الدار التي يسكنها الإنسان ويعمرها، وبالقمر المنير ذي المنازل والتقدير استنار غالب ليل الإنسان، وبه يعرف عدد السنين والحساب، وبالشمس المضيئة أشرق النهار على الإنسان، وبها عرف ليله وميَّز نهاره، ومنها استمدت أرضه دفأها وحرارتها، وطاقتها المودعة فيها.

ولولا الله ثم الشمس لتجمَّدت الأرض، ولما كانت صالحة للحياة، وفي السماء تتجمَّع السحب، وتتراكم، ومنها تنزل الأمطار مياهً عذبة، بها حياة الإنسان وسعادته، وفي السماء في علوِّها، وارتفاعها، وكثرة أجرامها ومجراتها، وكواكبها، ونجومها، وشموسها، وأقمارها آياتٌ عظام تهدي الإنسان إلى معرفة ربه، وتُبيِّن له قدرته عليه، وتريه سوابغ نعمه به.

في الأرض نجد فيها البحار، والأنهار، والمعادن، والجبال، والسهول، والتلال، فيها الأحياء المائية، والحيوانات البرية ذات المنافع العديدة، والفوائد الجمة الكثيرة، وبها الأشجار المظللة والمثمرة، وبها الزروع والنباتات، التي هي أرزاق وأقوات، وكلها مسخرة للإنسان، مُعطاة له، لم يكن فيها شيء لغيره، ولا يخرج منها شيء عن منفعته، وفائدته بحال من الأحوال.

ومن الأمثلة التي تُذكر في عناية الله ﷻ الواضحة في هذا الكون، وخاصة بالإنسان: أنك ترى الزهر في النبات، فترى لها أوراقًا جميلة جذَّابة ملوَّنة بألوان زاهية، فإذا سألت علماء النبات عن الحكمة في ذلك؛ أجابوا بأن هذا إغواء للنحل، وأشباهه من الحشرات التي تمصُّ رحيق الأزهار لتسقط على الزهرة، وحتى إذا وقفت على عيدانها، علقت حبوب اللقاح بأرجلها، وانتقلت بذلك من الزهرة الذكر إلى الزهرة الأنثى، فيتمُّ التلقيح. فانظر كيف جُعلت هذه الأوراق الجميلة في الزهرة حلقة اتصال بين النبات والحيوان حتى يستخدم النبات الحيوان في عملية التلقيح الضرورية للإثمار والإنتاج. وهذا التكامل لا نجده في عالم النبات فحسب، وإنما نجده في كل شيء بين الليل والنهار، والسماء والأرض، والشمس والقمر، والطعام والجهاز الهضمي، والإنسان والحيوان والنبات.

ومما يدل على تلك العناية وهذا الإبداع: أنه لو أعطت الشمس نصف حرارتها الحالية لتجمدنا من البرودة، ولو أن حرارتها زادت بمقدار النصف لكنا رمادًا منذ زمن بعيد، ولو كان قمرنا يبعد عنا مائتي ألف ميلًا بدلًا من بعده الحالي؛ لكان المد في البحار يبلغ من القوة بحيث إن جميع الأراضي تُغمر مرتين في اليوم بماء متدفق، يُزيح الجبال عن أماكنها، ولما أمكنت الحياة على وجه الأرض.

ولو كان ليلنا أطول مما عليه الآن عشرات المرات؛ لأحرقت شمس الصيف نباتتنا في كل نهار، وفي الليل يتجمَّد كل نبت في الأرض. لو أن نسبة الهيدروجين، والأكسجين اختلفت في الماء عما عليه الآن؛ لما كان الماء صالحًا للشرب، ولقتل الناسَ العطشُ. لو كانت قشرة الأرض أسمك مما عليه الآن بمقدار بضع أقدام؛ لامتُص ثاني أكسيد الكربون الأكسجين، ولا أمكن وجود حياة.

ولولا الله ثُم قوانين الحرارة لما تبرَّدت الأرض، ولما كانت صالحة للحياة، ولولا الله ثم الجبال لتناثرت الأرض، ولما كانت لها مثل هذا القشرة الصالحة للحياة، ولولا أن في الأرض أرزاقها لما استطاعت الحياة أن تبقى، ولو كانت مياه البحار حلوةً لتعفن الماء الموجود لها، وتعذرت الحياة على وجه الأرض.

ولذلك نحن نجد أن معظم الماء الموجود في البسيطة إنما هو من الماء المالح حتى لا يفسد ولا يصل إليه الخراب، وما كان ذلك إلا لعناية رب العالمين ﷻ لهذا الإنسان وتقديره -سبحانه جل في علاه.

ولو كان الأكسجين في الهواء بنسبة ٥٠٪ بدلًا من ٢١٪؛ فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال لأدني شرارة، وكان في ذلك هلاك الحياة، ولو كانت نسبة الأكسجين ١٠٪؛ لتعذر أن يكون التمدن الإنساني على ما هو عليه اليوم إلى آخر ما يُمكن أن نتحدث عليه في ذلك، وكل هذا بفضل الله وخلقه وقدرته.

هذا الإبداع، وذلك الجمال هو صنع الله ﷻ، ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل: ٨٨]، وهذا الجمال والكمال من قدرة الله ﷻ وبديع خلقه، وكما قال سبحانه: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: ١١].

هؤلاء الملاحدة هل خلقوا شيئًا، هل أبدعوا شيئًا، هل أوجدوا شيئًا من هذه العناية الربانية التي يسير بها الكون على أتم إحكام وتقدير، هل هناك من شارك الله ﷻ في هذا الخلق حتى أوجد شيئًا من هذه الكائنات، أو كانت عنده بعض مظاهر هذه العناية، حاشا وكلا؛ ولذلك صدق الله في قوله: ﴿ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾، ونحن نجيب: والله ليس هناك مع الله أحد خلق شيئًا في هذا الكون.

وهذه الوحدة المتكاملة، والنسق البديع الذي لا خلل فيه، ولا نقص هو من خلق الله عز وجل، كما قال سبحانه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤].

وهذه العظمة في خلق الأرض والسموات دلائل ناطقة على وجود الله -تبارك وتعالى، والآية التي سأشير إليها الآن فيها لون من ألوان مظاهر العناية بالإنسان في هذا الكون، قال -تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وهذه البراهين الساطعة على إبداعه المحكم وصنعه المتقن سبحانه وتعالى جل في علاه- دفعت الشاعر إلى أن يقول:

وفي كل شيء له آية ❖ تدل على أنه الواحد

وقال بعضهم:

تأمل في نبات الأرض وانظر ❖ إلى آثار ما صنع المليكُ
عيونٌ من لجين شاخصات ❖ بأبصارهن الذهب السبيك
على قصب الزبرجد شاهدات ❖ بأن الله ليس له شريك

إن المرء منا إذا دخل دارًا فوجد بها غرفة مهيَّأة للطعام وأخرى للمنام، وثالثة للنظافة، ورابعة للضيافة إلى آخره؛ لجزم بأن ها الترتيب لم يتم وحده، وأن هذا الإعداد النافع لا بد قد نشأ عن تقدير وحكمة، وأشرف عليه فاعل يعرف ما يفعل، والناظر في الكون وآفاقه، والمادة وخصائصها يعرف أنها محكمةٌ بقوانين مضبوطة، شرحت الكثير منها علوم الطبيعة، والكيمياء والنبات، والحيوان،

والطب، وأفادت منها الناس أجمل الفوائد، وما وصل إليها علم الإنسان من أسرار العالم حاسم في إبعاد كل شبهة تُوهم أنه وُجد كيفما اتفق، كلَّا إن النظام الدقيق المختص في طوايا الذرة مضطرد فيما بين أفلاك السماء الرحبة من أبعاد.

قال -تبارك وتعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦١، ٦٢]. وهذا كله من فعل الله -تبارك وتعالى، وهو ﷻ هنا يُثني على نفسه ويمجدها؛ لأنه افتتح الحديث عن هذه الآيات الكونية، وعن هذه العناية الربانية بقوله سبحانه: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾.

كما قال رب العالمين سبحانه: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]. إن الواحد منا يُمسك بحبة الرمانة فينظر في جمالها ونسقها ونظمها، ثم يتساءل من الذي نسقها، ونظم حباتها، وغلَّفها، ولا يملك الإنسان العاقل إلا أن يقول: سبحان الله. وينظر الإنسان كذلك إلى كل كوز الذرة. وقد وضعت حباته صفًّا متقنًا، وأحيطت بأغلفة متعددة تحفظها ومنحتها هواء بواسطة أنابيب دقيقة، يقال لها: "الشُّرَّابة" فمن الذي فعل ذلك! ويدُ من التي امتدَّت إلى سنبلة القمح فغلفت حباتها حتى لا تتساقط، وفي ورق غضروفي لا يتلفه المطر، وحصَّن كل حبة بشوكة حتى لا تكون غداءً للطير، وهي مقدرة أن تكون غذاء للإنسان.

وانظر إلى البرتقالة، وإلى عنقود العنب، وإلى التفاح، وإلى غير ذلك من ألوان ما خلق رب العالمين سبحانه من إنسان أو حيوان، أو فواكه وثمار، أو أشجار، وغير ذلك، إن الذي فعل هذا هو رب العالمين ﷻ جل في علاه.

ومن إشارة إلى النبات والأرض، وما أودع الله -تبارك وتعالى- فيها أنتقل إلى إشارة يسيرة إلى الإنسان الذي يعيش على ظهر هذه الأرض، وأتساءل قدرة من

التي امتدت إلى عين الإنسان فجعلتها في عُلبة منخفضة من العظم ؛ لئلا تتعرض للتلف والمهالك، وظللتها برموش تدفع عنها معاكسة ضوء الشمس لها، وحاطتها بأهداب تمنع تساقط العرق فيها، وغطتها بأجفان، وجعلت لها ماءً ملحًا، ألا وهو الدموع حولها ؛ لئلا يلحقها النتن. يدُ من التي جعلت ماء الأذن مُرًّا لئلا تتسرب الحشرات إليها والإنسان نائم فتتلف طبلتها، وجعلت ريق الفم عذبًا مع أن الماء الذي تشربه واحد.

وتدبير من الذي امتدَّ إلى مفاصل الجسم، فجعلت لكل مفصل قطعةَ شحم تُسهل حركته بقدر معلوم، وعناية من التي أتقنت لسانَ المزمار وهو البلعوم ؛ بحيث تُسدُّ قصبة الهواء عند دخول الطعام والشراب، ويسد مسلك الطعام عند دخول النفس، وإبداع من الذي جَعَل اللسان عند خروج الهواء من الجوف، يضغط عليه من جوانب الفم، فينتج صفيرًا، وهذا الصفير يكون كلامًا منظمًا يُعبر عن ما في الضمير من معانٍ وخواطر، وأي جهاز وضع في الأنف حتى يميز بين الرائحة الطيبة والخبيثة، وأي جهازٍ وضع في الأذن حتى يميز بين الأصوات المتعددة، وهي قطعة من اللحم.

ولو تأمَّلت اللسان وخشونته ؛ لئلا ينزلق الكلام، فيظهر غير مضبوط لأيقنت أن للكون إلهًا وصدق من قال : "نظرك فيك يكفيك"، ماذا أقول، والظواهر التي تدل على الله أكثر من أن يحصيها عادٌّ، أو يحيط بها عالم، وإنما أمثلة فحسب، ومما يرتبط بمعنى العناية والإبداع كذلك الهداية والإلهام، وسبحان الله العظيم الذي خلق وقدر وهدى كما قال سبحانه : ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه : ٥٠].

ولنوضح هذه الظاهرة بالأمثلة التالية : خطر لعالم أمريكي أن يستفرخ البيض في جهاز خاص للتفريخ، وذلك بوضع البيض في نفس الحرارة التي ينالها البيض

من الدجاجة الحاضنة له، فلما جمع البيض ووضعه في الجهاز نصحه فلاح أن يُقلب البيض في كل فترة؛ إذ أنه رأى الدجاجة تفعل ذلك، فسخر منه العالم، وأفهمه أن الدجاجة إنما تُقلِّب البيض؛ لتعطى الجزء الأسفل من حرارة جسمها، أما هو فقد أحاط البيض بجهاز يُشع حرارة ثابتة لكل أجزاء البيضة. واستمر العالم في عمله حتى جاء دور الفقس وفات ميعاده، ولم يفقس، ولم تفقس بيضة واحدة، وكرر التجربة بلا جدوى، وأخيرًا استمع إلى نصيحة الفلاح، فصار يقلب البيض حتى إذا جاء ميعاد الفقس خرجت الفراريخ.

وآخر تعليل علمي لهذه الظاهرة: أن الفرخ حينما يخلق في البيضة ترسّب المواد الغذائية في الجزء الأسفل من جسمه إذا بقي بدون تحريك، فيؤدي ذلك إلى موته، ولولا هذه الهداية التي أودعها الله ﷻ في الدجاجة؛ لما بقي نوع الدجاج في العالم. وانظر إلى هذا البيض وقد جاء موعد فقسه، فتقوم الأم بنقر البيض ما تخطئ مرة، فتفقأ عين الكتكوت، أو تنقر أذنه فمن الذي هداها لهذا؟ وصدق الله في قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى (١) ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ (٢) وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣].

ونحن نشاهد حتى مع هذا النمل اليسير الصغير الذي نشاهده يمشي على الأرض، هذا النمل له هداية خاصة؛ كي يعيش، وكي تستمر حياته الذي هداه إليها هو رب العالمين ﷻ جل في علاه؛ فالنمل يبقى في حفرة، أو خندق في الأرض في الشتاء، ولا يستطيع أن يخرج من شدة البرودة، فهداه الله ﷻ إلى أمر كي يعيش من ورائه بالطعام الذي يدخره في الصيف في عشه أو مكانه في الأرض؛ ليأكل منه في الشتاء.

وقد ذكر أحد العلماء: أنه شاهد النمل قد أخذ حبة حنطة، ثم بعد ذلك حاول أن يقسمها، واستمر فترة حتى قسمها، وعُلِّل ذلك بأنها إذا لم تقسم هذه الحبة

من الحنطة ربما أنبتت من التراب إذا وضعت فيه، أو بسبب وضعها في التراب والرطوبة التي يمكن أن تعيش فيها، من الذي هدى النمل لذلك؟ إنه هو رب العالمين سبحانه وتعالى جل في علاه. إننا نشاهد الحيوان إذا وُلد من أمه سرعان ما يحاول أن يقوم، وأن يلتقم ثديها، وهذا الحيوان قد نُزع منه العقل. فمن الذي هداه لذلك؟! إنه رب العالمين سبحانه وتعالى جل في علاه.

أيها الزملاء والأبناء الأعزاء، هذه بعض الأمثلة من أمثلة كثيرة لا تعد ولا تحصى، قصدت بها لفت النظر إلى ظاهرة الهداية الموجودة في الإنسان والنبات والحيوان على السواء، فإذا التفت العقل ودرس الوجود كله بعمق ودقة واستيعاب يرى هذه الظاهرة في كل شيء من هذا الوجود على الإطلاق، فهي ظاهرة تنظم شئون الكون كله بما فيه من الذرة إلى العناصر إلى الأرض إلى الشمس إلى المجرات إلى الحيوان إلى الإنسان، وما أجمل ما عبر به القرآن الكريم في إثبات ظاهرة الإلهام والهداية حينما قال سبحانه ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠].

والذي نخلص إليه بعدما تقدم: أن ظاهرة الإلهام والهداية كما أن أيضًا الخلق من الأدلة العظيمة على ان رب العالمين سبحانه وتعالى موجود وأنه هو الخالق الحكيم المبدع الذي أوجد هذا الكون وأخرجه من حيز العدم إلى الوجود بإحكام وإتقان. وأكرر في الختام: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: ١١].

تابع أدلة وجود الله تعالى

عناصر الدرس

العنصر الأول	:	دليل النظام والحركة	١٧٩
العنصر الثاني	:	دليل الفطرة والأخلاق والتاريخ	١٨٦
العنصر الثالث	:	سياق بعض الأدلة الشرعية على وجود الله – تبارك وتعالى–	١٩٢

دليـــل النظـــام والحركـــة

ذكـرت دلـيلين يـدلان علـى وجـود الله ﷻ: دليلـي الخلـق والإبـداع والعنايـة، وسأذكر في هذا اللقاء إن شاء الله -تبارك وتعالى- ما بقي من أدلة يمكن أن نواجه بها هؤلاء الذين أنكروا وجود رب البرية ﷻ جل في علاه-:

إن التأمل في الكون كله علوِّه وسفليه يكشف عن حقيقة كبرى لا مجال لإنكارها أو تجاهلها والإغضاء عنها، أو الغضِّ من شأنها ألا وهي النظام الدقيق العجيب الذي رُبطت به أجزاء الكون كله من الذرة إلى المجرة، هذا النظام المدهش المحيِّر للعقول الذي يُحيل العقل البشري السليم أن يكون ناجمًا عن صدفة وتلقائية، لا يمكن لعاقل أبدًا أن ينظر لهذا النظام الدقيق ثم يقول بعد ذلك بأن هذا أتى، أو خرج من الصدفة، أو أتى كأمر عابر هكذا، أو وُجد عن طريق تفاعلات كيمائية، أو يكون نتيجة للحركة المستمرة للمادة منذ ملايين السنين كما يزعم الخياليون والمغرورون والمخدوعون، إنه لمن أمحل المحال وأبطل الباطل أن يصدر هذا النظام الشامل للخلق كله من غير ذي إرادة، وقصد، وعلم، وحكمة، وتدبير.

إن نظـرة إلى الـسماء إلى خلقهـا وتكوينهـا، إلى الإحكـام والإتقـان فيهـا، إلى أبعادها، إلى سعتها، إلى عدد نجومها ومواقعها، إلى الأفلاك الدائرة فيها، إلى ضوء شمسها ونور قمرها؛ هذه النظرة الفاحصة الشاملة تُري الإنسان العاقل من مظاهر القدرة والعلم والإرادة والقصد والتصميم ما يجزم الإنسان معه ببطلان هُراء الماديين، وتُرَّاهات الملحدين، ويسلم على الفور بوجود إله خالق عظيم، متصف بصفات الربوبية، ونعوت الألوهية.

أمَا فكَّرت في هذه السيارات المنطلقة، وأعني بها هذه الكواكب التي تخترق أعماق الجو، والتي تلتزم مدارًا واحدًا لا تنحرف عنه يمينًا ولا يسارًا، وتلتزم سرعة واحدة لا تبطئ فيها ولا تعجل، ثم ترتقبها في موعدها المحسوب، فلا تختلف عنه أبدًا. إن الكرة تنطلق من أقدام اللاعبين ثم لا تلبث أن تهوي بعد تحليق. أما هذه الكرات الغليظة الحجم المضيء منها والمعتم فهي معلقة لا تسقط، سائرة لا تقف، كلٌّ في دائرته لا يعدوها، وقد يصطدم المشاة والركبان على أرضنا، وهم أصحاب عقل وبصر. أما هذه الكواكب التي أُزحم بها الفضاء فإنها لا تزيغ ولا يصطدم بعضها ببعض، وصدق الله في قوله: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ٣٩ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴾ [يس: ٣٧-٤٠].

من الذي هيمن على نظامها، وأشرف على مدارها، بل من الذي أمسك بأجرامها الهائلة، ودفعها تجري بهذه القوة الفائقة، إنها لا ترتكز في علوِّها إلا على دعائم القدرة، ولا تطير إلا بأجنحة، أعارها الملك العلي الأعلى ﷻ جل في علاه. ولو أُطلق لها المجال هكذا ولو لم يكن هناك نظام وإتقان؛ لاصطدمت هذه الأجرام السماوية بعضها ببعض، ولحدثت الطامة الكبرى، ولهلك هذا العالم بأسره، وصدق الله في قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ [فاطر: ٤١].

إنها قوانين تصرخ باسم الله، ولكن الصُّمَّ لا يسمعون، وأي نظرة فاحصة دقيقة على الأرض إلى خلقها وتكوينها، إلى محيطاتها وأنهارها، إلى جبالها ووديانها، إلى مرتفعاتها وسهولها، إلى النباتات والأشجار، إلى التنوع في الحيوانات، وإلى الاختلاف في أجناس البشر لونًا ولسانًا تقف بالناظر عند حقيقة لا يستطيع

إنكارها، ولا إخفاءها وجحودها، وهي أن وراء هذا الخلق والإبداع خالقًا مبدعًا عليمًا حكيمًا هو رب العالمين ﷻ جل في علاه.

وهو الله الذي لا إله إلا هو، ولا رب سواه، قال الله -تبارك وتعالى- ملفتًا نظر المتأملين إلى ذلك إلى النظام الذي أبدعه رب العالمين في الكائنات، وأنه وحده هو الذي فعل ذلك -جل في علاه، وهو يأمر بالتأمل والنظر والاعتبار؛ ليصل الإنسان بعد النظر إلى ما أراده منه رب العالمين ﷻ جل في علاه- يقول سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ٦-١١].

إن نظرة عابرة فقط إلى النور والحلك وهذا الهواء المشترك، إلى ائتلاف الهواء، إلى عناصر الماء، إلى النوعية والزوجية في كل شيء فيها وعليها تكفي في إقناع ذي العقل بوجود إله ذي قصد وإرادة، وحكمة وتدبير، وقدرة لا تُحد، وعلم لا يحيط به أحد ألا وهو الله العزيز الحكيم، الله الذي أوجبت العقول السليمة وجوده، ودلت كل ذرة في الكون على علمه وقدرته وتدبيره وحكمته ﷻ جل في علاه. هذا الذي رفع السماء بغير عمد نراها، وهذا الذي جعل الأرض هكذا ممدودة يسلك الإنسان فيها مسالك شتَّى، وأجرى فيها من البحار والأنهار ما أجرى، هذا الذي أنزل من السماء ماءً مباركًا، ثم أنبت به ما أنبت من سائر ألوان الزروع والثمار، وشرب من هذا الماء الإنسان والحيوان، كل ذلك ألا يدل على رب العالمين ﷻ جل في علاه! وإذا كان الخلق يدل على الله ﷻ فالتسوية أدلُّ عليه.

والتسوية أخص من الخلق، إذًا من الممكن أن يُخلق الشيء غير مُسَوًّ، ولكن قد يسأل الإنسان ما المراد بالتسوية؟ وما معناها؟ فأجيب عليه وأقول: إن تسوية الشيء هي إحسان خلقه وإكمال صنعته؛ بحيث يكون مهيَّئًا لأداء وظيفته، وبلوغ كماله المقدر عنده، وإمداده بما به صلاحه وبقاؤه، وجعله مستويًا معتدلًا متناسب الأجزاء؛ بحيث لا يحدث بينها تفاوت يخل بالمقصود منها، وهذه التسوية ظاهرة في الكائنات كلها على وجه العموم، وفي الكائنات الحية على وجه الخصوص، وفي الإنسان على وجه أخص، قال الله -تبارك وتعالى: ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [السجدة: ٧]، ثم قال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٦-٨].

وإليك هذا المثل الذي نتأمل به قدرة الله ﷻ في تنظيم كونه، وتقدير خلقه، وتسوية حاله، هذا الجمل قد أُعطي الصورة الخلقية التي تلائم عيشته وأسفاره الطويلة في الصحراء، فلهذا خُلق برقبة طويلة تُعلي رأسه، وتنأى بعينيه عن غبار الرمال، كما مُنح شفة مشقوقة يستطيع أن يتناول بها أشواك البوادي دون أن تؤذيه، وأُعطي سنامًا يختزن فيه الدهن إن أعوزه الطعام يومًا في الصحاري القاحلة، ولم تنتهِ رجله بحافر يغوص في الرمل كحوافر الخيل، والبغال والحمير؛ بل انتهت بخُفٍّ يقدر به على اجتياز الرمال دون أن يسوخ فيها؛ ولهذا أُطلق عليه سفينة الصحراء، فسبحان الله، سبحان ربي الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، ثم سخر رب العالمين ﷻ هذا الجمل وهو حيوان ضخم، للإنسان، بل إنه سُخر لصبي صغير أو لفتاة صغيرة يقوده الواحد من هؤلاء ويركبه وهو مستسلم له دون أن يُعارض أو يُخالف. وهذا مثل من الأمثلة الكثيرة المبثوثة في الكون، ولذلك قال رب العالمين ﷻ: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ٢٠ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴾ [الغاشية: ١٧-٢١].

على الإنسان -ولا شك- أن يتذكر لذلك إذا قُرئت عليه هذه الآيات، وإذا وقف على هذه الحقائق تذكر، فأدرك أن الذي خلق وأن الذي سوَّى، وأن الذي أحكم خلقه هو رب العالمين سبحانه وتعالى جل في علاه.

هذا، ونجد كل شيء في الخلق له حساب وتقدير، وميزان وترتيب؛ بحيث يتلاءم مع مكانه وزمانه، وبحيث يتناسق مع غيره من الموجودات القريبة منه والبعيدة عنه، فلا يعطِّل وظيفتها أو يعوق سيرها لما خُلقت له، وبحيث يتم بين المخلوقات كلها توازن شامل ينتظم به سير الوجود كله، فإذا كانت التسوية إعطاء كل شيء من الخلق والتصوير ما يؤدي به وظيفته على الوجه اللائق به؛ فإن التقدير أن يكون بالقدر الذي ينفع في نفسه ولا يضر غيره، ولا يصطدم بالمخلوقات الأخرى، وذلك يتم إذا ما وُضع في مكانه الملائم وزمانه المناسب، وبالكمّ الذي يُصلح ولا يُفسد، وعلى الكيفية التي يتحقق بها التناسق والتوازن بين وحدات الكون وأجزائه.

وهذا التقدير ظاهرة عامة في كل شيء، كما نبَّه القرآن الكريم على هذه الحقيقة في آيات كثيرة منه، أذكر هنا منها بعض هذه الآيات، وهي قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨]، كما قال جل في علاه: ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢]، كما قال -سبحانه- أيضًا: ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: ٣].

ولعظمته سبحانه وتعالى أشار في كتابه إلى أن كل ما يحدث في هذا الكون، وكل ما يقع فيه إنما هو بتقدير سابق يدل على سبق العلم، ويدل على الإحاطة والقدرة، فرب العالمين يتصف بصفات الجلال والكمال، ومن ذلك أنه -سبحانه- يعلم ما كان وما سيكون، وما لم يكون لو كان سوف سيكون، وقد قدَّر جميع الخلائق والموجودات قبل

وجودها فقال في كتابه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، وقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

فالماء مثلًا سوَّاه الله -تبارك وتعالى- بمعنى أنه أحسن خلقه، وهيَّأه لأداء وظيفته من السقي، والري، والتطهير، والتنظيف، ونحو ذلك، ولكن الماء الذي خلقه الله، وأسكنه في الأرض خلقه بقدر، وأنزله بقدر قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ [المؤمنون: ١٨]، ونحن نشاهد أحيانًا أن رب العالمين ﷻ جل في علاه- إذا أراد أن يُهلك قومًا بسبب كفرهم، وبغيهم، وطغيانهم أتاهم بما لا يوعدون، أو سلَّط عليهم شيئًا من خلقه كهذه البحار المتفجرة التي يُمكن أن تسيل من هنا، ومن هناك فتغمر أجزاء من الأرض، أو السيول التي تنزل في بعض الأماكن من لدن رب الأرباب سبحانه، وهي تنزل بقدر كما قال رب العالمين سبحانه، وهي وإن كانت تزيد في بعض الأحيان عن حاجة الإنسان، وتهلك بعض الإنسان والحيوان والنبات، وتعطل الطرقات وغير ذلك إن كل شيء من هذا بقدر رب العالمين، وأراده -جل في علاه- عقوبة للمنكرين الكافرين.

هذا؛ وقد جاء العلم الحديث بكشوفه ووسائله، فأماط اللِّثام عن الحكمة البالغة، والأسرار العجيبة، وما بين المخلوقات من مقادير وحدود، وضوابط وموازنات، إن في الفضاء الفسيح الذي لا نعرف له حدودًا ملايين الملايين من النجوم السابحة في أجوائه، وبعض هذه أكبر من الشمس بآلاف المرات وملايينها، كالشعرى الذي هو أثقل من الشمس بعشرين مرة، ونورها ضعف نور الشمس بخمسين مرة، وسهيل أقوى من الشمس بألفين وخمسمائة مرة، وهكذا.

ويقول الفلكيون: إن من هذه النجوم والكواكب التي تزيد على عدَّة بلايين نجم ما يمكن رؤيته بالعين المجردة، وما لا يُرى إلا بالمجاهر والأجهزة، وما يمكن أن

تُحس به الأجهزة دون أن تراها، هذه كلها تسبح في الفلك الغامض، ولا يوجد أي احتمال أن يتقرَّب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم آخر، أو يصطدم بكوكب آخر إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط بآخر في المحيط الهادئ يسيران في اتجاه واحد، وبسرعة واحدة، وهو احتمال بعيد، وبعيد جدًّا إن لم يكن مستحيلًا.

ومع هذا التباعد بين كل نجم وآخرُ، فقد وُضع كل نجم في مكانه؛ بحيث يتَّسق في آثاره وتأثراته مع سائر النجوم والكواكب، وتؤدِّي جميعها مهمتها المنوطة بها في بناء الكون وسير حركته، ولنأخذ الشمس والقمر والأرض وما بينهم من علاقات مثلًا لهذا التقدير المحكم والنظام الدقيق، الذي كان من آثاره ظهور الحياة الإنسانية على الأرض واستمرارها إلى اليوم، وستستمر إلى أن يشاء رب العالمين -سبحانه- إنهاء هذا العالم، وسيحدث هذا كما ذكر رب العالمين وأشار إلى ذلك في كتابه، وعندئذٍ سيحدث تغييرٌ كوني عظيم في كونه أشارت إليه بعض آيات القرآن الكريم، كالآيات الواردة في سورة الشمس مثلًا، أو الانفطار، أو الانشقاق.

إن هذه الشمس هي الوحيدة بين آلاف النجوم التي تصلح لجعل الحياة على الأرض ممكنة، وإن حجمها وكثافتها، ودرجة حرارتها، وطبيعة أشاعتها، ودرجة بعدها عنا؛ كل ذلك لازم لقيام حياتنا على كوكبنا، الذي هو الأرض، وكذلك وضع القمر وحجم الهواء والغازات وعالم النبات والحشرات، تُرى مَن الذي وضع كل هذه المخلوقات في مواضعها الصحيحة، وقدر أحجامها وأشكالها، وأبعادها ونسبها، وعلاقتها هذا التقدير المحكم العجيب.

هل عند الماديين الجاحدين من جواب لذلك يشفي صدور الناس عمومًا، وأهل الإيمان بصورة خاصة؟ كلَّا، ثم كلَّا.

أما نحن أهل الإيمان فجوابنا: إن الذي خلق ذلك وقدر ذلك وأحكم ذلك هو رب العالمين سبحانه، هو الإله الخالق المحيي المميت، هو الذي قال عن نفسه ﷻ: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

إنه باختلاف التوازن في أي شيء تحدث كارثة تندثر بها المدنية، وتتخبط بها البشرية إذا بقي أي شيء على قيد الحياة، تُرى كيف يتحقق كل هذا التقدير، وكيف يتم كل هذا التدبير إذا لم يكن هناك خالق أعلى، يقدر فيحسن التقدير، ويُدبِّر فيحسن التدبير.

دليل الفطرة والأخلاق والتاريخ

إن كان هناك من الأدلة ما هو مبثوث في الكون، وهو خارج عن دائرة الإنسان؛ فهناك أدلة أخرى ليست خارجة عن كيانه، ومنها الفطرة التي فطر الله -تبارك وتعالى- عليها الناس، والمقصود بالفطرة هنا هو ذلك الشعور الطبيعي، البصير، الغامر بأن فوق الكائنات المحدودة المتناهية، وما والاها غير محدود ولا متناهٍ، بأن فوق الكائنات المحدودة المتناهية ربًّا، وإلهًا غير محدود ولا، متناهٍ يهيمن على كل شيء، ويدبر كل أمر، يُرجى، ويُخشى، ويُعظم ويُقصد، ﷻ جل في علاه- وهو شعور ينبع من أعماق الإنسان، ويُستمد من كيانه كله، لا من عقله وحده، ولا من وجدانه بمفرده، شعور يجده الإنسان في نفسه بغير تعلم، ولا تلقين، ولا اكتساب.

وقد عبر الفيلسوف الشهير "ديكارت" عن هذا الشعور الفطري فقال: "إني مع شعوري بنقص في ذاتي أُحس في الوقت نفسه بوجود ذات كاملة، وأراني إلى

اعتقادي بأن هذا الشعور قد غرسته في ذاتي تلك الذات الكاملة المتحلية بجميع صفات الكمال، وهي الله".

وكلما كان الإنسان أسلم فطرة وأزكى نفسًا؛ رقّ حجابه، وتفتحت عين بصيرته، وارتفع عن جاذبية الطين، وحلّق في أجواء الروح؛ وحينئذ يشعر بأن وجود الله يملأ عليه أقطار نفسه ويغمر كيانه كله؛ فيحس بأنه غير محتاج إلى دليل على وجود ربه سبحانه، خارج عن ذاته وكيانه هو، بل يشعر أن وجود الله -تبارك وتعالى- أظهر من كل شيء ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

والقرآن الكريم قرر دليل الفطرة هذا في آيات كثيرة من كتاب رب العالمين ﷻ جل في علاه- في قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠].

وقد بيَّن النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه ((أن كل مولود يُولد على الفطرة))، والمراد بالفطرة هنا الإسلام، فهذا الإسلام الذي يُولد مع الإنسان يجعله يسلم بوجود رب العالمين ﷻ جل في علاه، فهو أمر قائم في النفس، ولذلك جاء في القرآن الكريم تساءل بعض الأنبياء والمرسلين لأممهم قائلين: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]، هل يمكن أن يوجد شك في هذا الخالق الذي فطر وأبدع السماوات والأرض ﷻ جل في علاه.

ويُروى أن أحد العلماء الصالحين الموقنين قيل له يومًا: إن فلانًا من علماء الكلام قد أقام على وجود الله ألف دليل، فقال: لأن في نفسه ألف شبهة، وهذا جواب من وضح الأمر في نفسه؛ بحيث لا يحتاج إلى إقامة برهان أو دليل على نحو ما قال الشاعر:

وليس يصح في الأذهان شيء ❖ إذا احتاج النهار إلى دليل

وسُئل واحد من السلف بما عرفت ربك؟ فأجاب: "عرفت ربي بربي، ولولا ربي ما عرفت ربي"، هذا ما نقصده إن الإنسان سواء أكان جاهلًا أم عالمًا لو جرَّد نفسه من آثار الوارثات المختلفة، ومحا من ذهنه كل ما يربطه بالمكان الذي يعيش فيه، والمذهب الذي ينتمي إليه، ثم يُفكر بعد ذلك في الكون وفي نفسه؛ لانتفع بفطرته وطبيعته انتفاعًا اضطراريًا؛ ليجد نفسه ساجدًا خاشعًا أمام ربه العلي العظيم الرحمن الرحيم.

إن الذي علم الإنسان أن رقم ١+١= ٢ بدون برهان ولا مقدمات، هو الذي علمه أن له إلهًا لا يُستغنى عنه، بدون حاجة إلى استدلال، ولا انتقال من معلوم إلى مجهول، ولا من مقدمات إلى نتائج، هذا الشعور الفطري قد يختفي في ساعات العافية والرخاء، والغنى الذي يطغي الإنسان، ويحجبه أحيانًا عن رؤية نفسه على حقيقتها، فإذا أُنزل بالإنسان شدائد قاهرة ذات الطلاء الكاذب الذي غشَّ الفطرة الأصلية، ورجع الإنسان إلى ربه ضارعًا داعيًا منيبًا إليه.

سأل رجل الإمام جعفر الصادق -رحمه الله تبارك وتعالى- عن الله، فقال له: "ألم تركب البحر؟ قال: بلى، قال له: فهل حدث لك مرة أن هاجت بك الريح العاصفة؟ قال: نعم، قال: وانقطع أملك من الملاحين ووسائل النجاة؟ قال: نعم، قال: فهل خطر ببالك وانقدح في نفسك أن هناك من يستطيع أن يُنجيك إن شاء؟ قال: نعم، قال جعفر: فذلك هو الله".

وإلى هذه الحقيقة يُشير القرآن الكريم في قول الحق الكبير المتعال جل في علاه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [يونس: ٢٢].

هذه في الحقيقة آية بينة، ودليل على أن هذه الفطرة القائمة في نفس الإنسان تتحرك عند الشدائد، وقد ذكر القرآن الكريم ذلك عن المشركين بأنهم إذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين رغم أنهم مشركون وهم في الأمان والبر، ولكن عندما تنزل بهم النازلة، أو تدور بهم الدوائر تتحرك الفطرة؛ لأنها كامنة في النفس، وبالتالي يدعون رب العالمين ﷻ جل في علاه- ولا يلتفون إلى غيره.

والقرآن الكريم يصور أصالة هذه الفكرة وشمولها لكل أفراد النوع الإنساني تصويرًا بليغًا يأخذ بمجاميع القلوب ويسوقها إلى ربها سوقًا حثيثًا، ويعرض ذلك في صورة ميثاق قديم بين الإنسانية وبين ربها على أن تؤمن به، وتعبده، وتوحده، فلنستمع إليه يقول -سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

وهذا يدل على أن رب العالمين -سبحانه- أخذ العهد والميثاق من جميع بني آدم، وهم في ظهر أبيهم أن يعبدوا الله -تبارك وتعالى جل في علاه، كما أنه أخذ العهد عليهم على أنه ربهم، ومالكهم، وخالقهم ﷻ جل في علاه. وهذا أمر فطري في النفس؛ لأن هذا من العهود والمواثيق التي أخذها رب العباد من الإنسان على نفسه، ولما كان هذا الشعور أمرًا فطريًّا كما تبيَّن؛ وجدنا أصل الإيمان قدرًا مشتركًا بين جميع الأمم، وفي مختلف الأقاليم، وفي شتى عصور التاريخ، وإن كان الكثيرون قد انحرفوا عن الإيمان الصحيح، وخلطوه بأوهام وأباطيل كدَّرت نقاءه، وأفسدت جوهره.

يقول الفيلسوف المعروف "هنري بيرجسون": "لقد وُجدت جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، ولكن لم توجد قط جماعات بدون ديانة".

ويقول المؤرخ الإغريقي القديم "بيرو كارت": "لقد وُجدت في التاريخ مدن بلا حصون، ومدن بلا مدارس، ومدن بلا قصور، ولكن لم توجد مدن بلا معابد".

والدارسون في تاريخ الأديان يؤكِّدون أن الإنسان لن يستطيع مهما بلغ من العلم والتمدن أن يستغني عن الإيمان والدين.

يقول الفيلسوف "رينان" في كتابه (تاريخ الأديان): "إنه من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبه، وأن تطلب حرية استعمال العقل والعلم والصناعة، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين، بل سيبقى حجة على بطلان المذهب المادي الذي يريد أن يحصر الفكري الإنساني في المضايق الدنيئة في الحياة الأرضية.

هذا فضلًا عن الوازع الأخلاقي المركوز في النفس الإنسانية، كما قال الفيلسوف الألماني "عما نويل كانت".

وجوهر هذا الدليل أن الكون بما فيه من خلق وتسوية، وما فيه من تدبير وبداية يدل على وجود الصانع القادر، ولكن لا يلزم من قدرته وصنعته أنه الإله الذي يصدر منه الخير والنعم، وتتجه إليه القلوب بالعبادة، والحب، والحمد والتعظيم، وإنما يثبت وجود هذا الإله بدلالة وعلامة في النفس الإنسانية لا يتأتى وجودها فيها بغير وجود إله، وتلك هي دلالة الوازع الأخلاقي، أو دلالة الواجب، أو دلالة الضمير.

فمن أين استوجب الإنسان أن يُدين نفسه بالحق كما نعرفه إن لم يكن في الكون قسطاس للحق يغرس في نفسه هذا الوجوب، ومن أين تقرَّر فطرة الإنسان أن الواجب الكريم لديه أولى به من إطاعة الهوى المحبب إليه، وإن لم يطلع أحد على دخيلة سره.

إن وجود هذا الوازع الأخلاقي في نفس الإنسان دليل على أنه هناك غارسًا غرسه فيها؛ ليستقيم سير الحياة، وينتظم أمر الجماعة؛ وذلك هو الله مصدر الخير والرحمة والجمال، ويُشير القرآن الكريم إلى هذا الدليل فيقول: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس: ٧، ٨].

وإلهام التقوى للنفس يعني: منحها الوازع الأخلاقي الذي يُقاوم دواعي الشكوى والفجور، ويعترض بعض الناس على هذا الدليل بأن وجود الأخلاق، أو الضمير، أو الشعور بالواجب؛ إنما هي عادة اجتماعية، رسخت في النفس بمضي الزمن حتى استحالت إلى رغبة مقبولة، أو مطلب محبوب، وينسى هؤلاء أن العادة الاجتماعية ليست بالتفسير الذي يُعلل نشأة الأخلاق، وإنما هي تكرير للمشاهدة كما رأيناها، فإذا سألهم سائل: لما نشأت العادة الاجتماعية؟ قالوا: للمصلحة الاجتماعية، ولكنهم لا يسألون أنفسهم لماذا كانت المصلحة الاجتماعية أمرًا مفروغًا منه، مقضيًّا بوقوعه؟

إن هذه الأدلة كلها العقلية تدل بوضوح على أن الذي خلق الخلق هو رب العالمين ﷻ جل في علاه، والأدلة كثيرة على وجود رب العالمين ﷻ والأعراب، أو العربي في البادية كان يعرف ذلك؛ لأن الفطرة كانت تدله على هذا الأمر؛ وأعني بالفطرة: الشعور الكامن في النفس الذي سبق أن ذكرته.

ولذلك قيل لأعرابي سُئل عن رب العالمين -سبحانه- كيف عرف الله -تبارك الله وتعالى؟ هذا سؤال وُجه إلى أحد الأعراب؛ كيف عرفت ربك؟ فأجاب قائلًا: "البعرة تدل على البعير، وأثر السير يدل على المسير؛ فكيف بسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج؛ أفلا يدل ذلك على العلي الكبير؟!"، لا شك أنه يدل. والإجابة عن كل ذلك: بأن الذي خلق هو رب العالمين -سبحانه- الخالق الذي لا يُخلق ﷻ جل في علاه.

سياق بعض الأدلة الشرعية على وجود الله - تبارك وتعالى

من هذه الأدلة إرسال رب العالمين ﷻ الأنبياء والمرسلين، وإنزال الله ﷻ عليهم الكتب، وتأييدهم بالمعجزات والخوارق التي يعجز عنها البشر عادة، ولا يقدرون على مثلها؛ لكونها لا تخضع للسنن الكونية، فالمعجزات والخوارق لا تخضع للسنن الكونية، وإنما هي بخلق الله وإيجاده -سبحانه.

وأود أن أفصل هذا الذي أشرت إليه آنفًا، وهو إرسال الله تعالى الأنبياء والمرسلين، وإنزاله الكتب عليهم إلى غير هذا؛ أفصل هذا فأقول: خطاب الله ﷻ لكافة عباده في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

إنني أدعو عموم أهل الإيمان وأقول لهم: والله ﷻ إن هاتين الآيتين اشتملتا على نداء الله تعالى للعباد، وبينت أن الله ﷻ أمر عباده بعبادته، ونهاهم عن الشرك به ﷻ، كما اشتملت الآيتين على التعريف به تعالى ربًّا خالقًا مدبرًا رازقًا، خلق البشرية ﷻ، وجعل لها الأرض فراشًا، والسماء بناءً، وأنزل من السماء ماءً، فأخرج لها به من الثمرات رزقها، وما به قوام حياتها، كما اشتملت الآيتان أيضًا على دليلين عقليين؛ الأول: دليل الحدوث، والثاني: دليل العناية، وقد سبق بيان كل منهما.

وفي قوله ﷻ من سورة النساء: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ ﴾ [النساء: ١]. ففي هذا النداء الإلهي يأمر الله تعالى البشرية كلها بتقواه، وهي عدم الخروج عن طاعته بترك أمره، أو بفعل

نهيه، ويذكرهم بأنه ربهم؛ أي: خالقهم، ورازقهم، ومدبر أمرهم -سبحانه، كما ذكرهم بأصل نشأتهم؛ فاشتمل هذا النداء الكريم على التعريف بالله تعالى بوصفه الخالق، كما اشتمل على دليل عقلي أيضًا سبقت الإشارة إليه ألا وهو دليل الحدوث.

وفي قوله ﷻ من سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ففي هذا الإخبار الإلهي تعريف بالله -سبحانه- بوصفه الرب الذي خلق الكون كله، علوه وسفليه، وهو يدبر أمره من فوق عرشه، وكما انفرد بالخلق والتدبير -سبحانه- انفرد بالأمر والعبادة والتشريع.

وفي قوله تعالى من سورة فاطر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣]. ففي هذا النداء تعرف الله تعالى إلى الناس بأنه ولي نعمتهم، نعمة الخلق والرزق، وطلب منهم أن يذكروا ذلك ليشكروه بعبادته وحده؛ لكونه لا يستحق العبادة سواه.

وفي قوله تعالى من سورة الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]. ولقد اشتمل هذا النداء الإلهي على التعريف بالله -تبارك وتعالى- بوصفه الخالق والمدبر -سبحانه- الذي أحاط بكل شيء علمًا، ومن مظاهر تدبيره للناس أن جعل حياتهم اجتماعية؛ ليتم التعاون فيما بينهم على تحقيق سعادتهم، ولو شاء لجعلهم يعيشون على نمط حياة البهائم والحيوانات، فلا

أسرة، ولا قبيلة، ولا شعب، وحينئذ لا مناص من أن يعيشوا عيش الحيوانات؛ فلا مدنية ولا حضارة، بل ولا إنسانية ولا كرامة آدمية.

وفي قوله ﷻ من سورة لقمان: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١٠، ١١]. ففي هذا الخبر الإلهي تعريف بالله تعالى بصفات الكمال الذي انفرد بها دون غيره، وهي خلق السماوات خلقًا محكمًا بما أودع فيها من قانون الجاذبية، فتماسكت أجرامها ولم تحتج إلى ما يدعِّمها من وسائل الدعم التي عرفها الناس كالأعمدة ونحوها، وإلقاؤه تعالى الجبال في الأرض لحفظ توازنها حتى لا تضطرب، ولا تميد، ولا تميل بأهلها فيهلكوا، كما أنه ﷻ نشر آلاف الدواب المختلفة نوعًا، وشكلًا، وخاصية، كما أنه -سبحانه- كما أشارت الآيات أنزل المطر من طبقات الجو فأنبت نباتات مختلفة، التي هي أصل غذاء تلك الدواب التي بثها رب العالمين ﷻ في الأرض، كما أن الإنسان أيضًا يستفيد من هذه المخلوقات والنباتات التي يُخرجها رب العباد ﷻ جل في علاه.

كما اشتمل آخر الخبر المذكور على تحدٍّ صريح لأولئك الذين يؤلِّهُون غيره تعالى من مخلوقاته، بأن يشيروا إلى شيء ما قد خلقته آلهتهم الباطلة المزعومة، كما اشتمل الخبر أيضًا على أدلة عقلية سبق الحديث عنها، وهي دليل الحدوث، ودليل العناية، ودليل النظام، ودليل الوجوب إلى غير ذلك.

على كلٍّ هذه الآيات التي سقتها وذكرتها الآن من القرآن الكريم هي في الحقيقة بعض الأدلة الشرعية الدالة على وجود الله -تبارك وتعالى، وهي تشير إلى أن الذي أوجد ذلك وخلق ذلك، والذي نسق كل هذه الكائنات، وهذه المخلوقات هو رب

العالمين ﷻ جل في علاه، ولذلك تعجب الله ﷻ من كفر الكافرين، وإلحاد الملحدين فقال ﷻ: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨، ٢٩].

حقًّا علينا فعلًا أن نعجب حقيقة من هؤلاء الذين يكفرون برب العالمين -سبحانه، والله ﷻ هو الذي أحياهم بعد أن كانوا موتى، ثم يميتهم بعد ذلك، ثم يحييهم، ثم أشار -سبحانه- في هاتين الآيتين إلى أنه خلق ما في الأرض للإنسان ليستفيد منه، هذا المخلوق الذي كفر بربه بعد ذلك، أو وقع بعض الناس في الكفر بعد هذا، وما كان له ذلك، ولذلك أقول هنا: بأن الإلحاد غاشية طارئة سرعان ما تزول، ولا يكون هناك ملحد إذا تأمل الإنسان وتفكر في هذه الكائنات التي أودعها رب العالمين ﷻ في هذا الكون، والأدلة على ذلك كثيرة، ويكفي ما ذكرته، وأشرت إليه.

أقسام التوحيد

عناصر الدرس

العنصر الأول : هل يصح تقسيم التوحيد ١٩٩
العنصر الثاني : توحيد الربوبية وصوره ٢٠٣
العنصر الثالث : توحيد الألوهية ٢٠٩

هـل يـصح تقـسيم التوحيـد

هذا سؤال مهم، وعنصر ضروري، ذلك أن بعض الفرق والطوائف لم يقولوا بتقسيم التوحيد، وذهبوا إلى أن تقسيم التوحيد أمرٌ مبتدع مخترع، لا أصل له، ولا أساس، وفي الحقيقة هذا قول جانبه الصواب، وقد دلّ القرآنُ الكريمُ بعد استقرائه على أن توحيد الله ﷻ ينقسم إلى ثلاثة أقسام.

لو تَتَبّعنا آيات القرآن الكريم سنجد أنها إما تتحدث عن توحيد الربوبية، وخلق الله ﷻ وإيجاده لكل ما في الكون، وإما حديث عن عبادة رب العالمين سبحانه، وأنه هو المستحق للعبادة وحده دون سواه، وإما حديث عن أسماء الله الحسنى، وصفاته الله -تبارك وتعالى- العلى، والمتتبِّع للقرآن سيجدُ ذلك لا محالة.

وعليه أقول: إنّ توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيده في ربوبيته:

وهذا النوع من التوحيد جُبلت عليه فِطَر العقلاء، كما قال تعالى عن مشركي العرب، الذين كانوا في مكة المكرمة، وقد واجههم نبينا ﷺ بدعوته، قال الله ﷻ عنهم: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧] بل إنهم كانوا يُقرُّون بأكثر من ذلك، كما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١].

فهم كما ذكرت الآية عنهم، أنهم يعتقدون أن الذي يرزق في السماء والأرض هو الله، والذي يملك السمع والأبصار هو الله، والذي يُحي ويميت هو الله،

والذي يُدبر الأمر هو رب العالمين جل في علاه. وهذا يدل بصراحة ووضوح على أن مشركي العرب، كانوا يُقرون ويؤمنون بهذا التوحيد؛ لأنه أمرٌ فطري في النفوس، وإنكار فرعونَ لهذا النوع من التوحيد، كما في قول الله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣] تجاهل من عارفٍ أنه عبد مربوب.

ففرعون عليه لعنة الله، كان يدرك تمامًا أنه ليس برب ولا إله، وأن الذي يُدبر الأمر هو رب العالمين ﷻ جلَّ في علاه، ولكنه في الحقيقة تظاهر بالإنكار، تظاهر بأنه هو الرب الإله، وأنه لا يوجد لهذا الكون رب إلا هو، ولذلك سؤاله الذي يُشمُّ منه رائحة التجاهل والإنكار لرب العباد في الحقيقة، إنّما هو تجاهلٌ ليس عن واقع حقيقي، بل إن فرعون كان يُدرك في قرارة نفسه أنه مخلوق مربوب، بدليل قول الله -تبارك وتعالى- فيما ذكره رب العالمين ﷻ من قول موسى # له: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

هكذا يقول موسى # لهذا الطاغية، أنت تعرف على وجه الحقيقة أن الذي أرسلني وبعثني، وأيَّدني بالمعجزات الباهرة القاهرة، هو رب السموات والأرض سبحانه، ولهذا قال الله -تبارك وتعالى- عنه، وعن الذين اتبعوه في ضلاله وانحرافه، قال عنهم: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤]، وهذا النوع من التوحيد -أعني به: توحيد الربوبية- لا ينفعُ صاحِبَه المُقِرّ به إلّا إذا أخلص الدين كلَّه لله، وصرف جميع أنواع العبادة لله وحده، دون سواه.

أما النوع الثاني من أنواع التوحيد فهو: توحيد الله -تبارك وتعالى- في عبادته، وحده دون سواه:

وضابط هذا النوع من التوحيد هو أن يُحقِّق العبد معنى لا إله إلا الله، وهي كما نُشاهد ونعرف ونعلم متركبة من نفي وإثبات؛ فمعنى النفي منها: خلع جميع

أنواع المعبودات، غير الله كائنة ما كانت في جميع أنواع العباداتهذا هو معنى النفي.

أما معنى الإثبات، فهو: إفراد الله -جل وعلا- وحده بجميع أنواع العبادات، وذلك بإخلاص العمل كله لله على الوجه الذي شرعه ربنا ﷻ على ألسنة رسله -عليهم الصلاة والسلام، وأكثر آيات القرآن الكريم في هذا النوع من التوحيد؛ لأنه هو النوع الذي وقع فيه الشقاق والنزاع والخلاف بين الرسل وأممهم، ولذلك قال مشركو العرب، عن النبي ﷺ وعن دعوته: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥].

ومن الآيات الدالة على هذا النوع من التوحيد، ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ ﴾ [محمد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، كما قال -سبحانه- في بيان هذا النوع من التوحيد: ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٨] فقد أمرَ اللهُ ﷻ في هذه الآية الكريمة أن يقول: إنما أوحي إليّ.

والوحي الذي جاء من عند الله ﷻ محصورٌ في هذا النوع من التوحيد؛ لشمول كلمة "لا إله إلا الله" لجميع ما جاء في الكتب، لأنها تقتضي طاعة الله بعبادته وحده، فيشمل ذلك جميع العقائد والأوامر والنواهي، وما يتبع ذلك من ثواب وعقاب، والآيات في هذا النوع من التوحيد كثيرة جدًّا.

أما النوع الثالث: فهو توحيد الله -تبارك وتعالى- في أسمائه وصفاته، وهذا النوع من التوحيد ينبني على أصلين:

الأصل الأول: تنزيه الله -جل وعلا- عن مشابهة المخلوقين في صفاتهم كما قال -تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

أما الأصل الثاني: فهو الإيمان بجميع ما وصف الله -تبارك وتعالى- به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ على الوجه اللائق بكمال الله وجلاله، مع قطع الطّمع عن إدراك كيفية الصفات؛ لأن رَبّ العالمين ﷻ لا تُدرك حَقِيقتُه، ولا يُحاط به -جل في علاه- لعظمته؛ فهو له صفات نثبتها كما وردت، ونعرف معناها اللائق بها على مقتضى ما تعرفه العرب من لغاتها، ثم بعد ذلك نضرب صفحًا عن الكيفية، ونقطع الطمع تمامًا عن محاولة إدراك كيفية الصفة، وما هو عليه ﷻ في نفس الأمر. لأن هذا من الغيب الذي يعلمه ربنا وحده، وقد قال عن نفسه في كتابه سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

هذه هي أقسام التوحيد: وهي إذن أقسام ثلاثة: وهي كما ذكرت وأشرت عليها أدلة من القرآن الكريم.

وعليه أقول: إنّ إنكار بعض الناس لهذا التقسيم، وقولُ البعض الآخر: إنه مُبتدعٌ لَا أصل له؛ قولٌ لا أصل له، لأن القرآن الكريم دَلّ على هذه الأنواع، بل إنّ رَبّ العالمين -سبحانه- جمع بين هذه الأقسام في آية واحدة، فقال -تبارك وتعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

فقوله سبحانه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [مريم: ٦٥] إثبات لتوحيد الربوبية، وقوله: ﴿وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ [مريم: ٦٥] إثبات لتوحيد العبادة أو الأولهية، ثم قوله بعد: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] إشارة إلى أسماء الله وصفاته، وأنه ﷻ لا كفء ولا نظير ولا شبيه، ولا مثيل له.

ثم إن هذا التقسيم لا بد منه ؛ لأنه إن لم يعرف الإنسان هذه الأقسام الثلاثة ، فقد يظن أنه عندما يُقر بفطرته أن الله خالقه وربه ومالكه ، إلى غير ذلك ، ثم عبد مع الله آلهة أخرى ، أنه بهذا قد حقق التوحيد. نقول له : لا. ولا بد أن تعرف هذه الأقسام الثلاثة ؛ حتى تعلم أيها العبد كيف تحقق التوحيد لرب العالمين سبحانه ، وأن الاقتصار على توحيد الربوبية فحسب ، لا يدخل العبد به في الإسلام ، بل لا بد من تحقيق نوعي التوحيد الألوهية ، والأسماء والصفات ، بألا يعبد إلا الله ، وأن يثبت لله ما ثبت له من أسماء وصفات ، على الوجه الذي يليق به ﷻ جل في علاه.

وهذه مسألةٌ مهمة لا بد من تقريرها والاعتراف بها ؛ لأنني أرى -والله أعلم- أنّ البدع الكائنة في الأمة اليوم من دعاء غير الله ، وتوجه بعض المخلوقين ببعض ألوان العبادات لغير الله ، كالذبح والنذر والطواف بالأضرحة ، والقبور ، والاستغاثة بالمخلوقين ، والاستعانة بهم ، وطلب المدد من غير الله ﷻ وغير ذلك. أرى أن هذا راجع إلى عدم فهم الفاعل لذلك لأنواع التوحيد ، وظَنّه أنّه إذا أثبت ربوبية رب العالمين -سبحانه- أنه بذلك قائم على التوحيد ، وأنه موحد برب العالمين ، ولو صدر منه ما يُخل بذلك.

توحيد الربوبية وصوره

أ- معنى توحيد الربوبية :

توحيد الربوبية هو اعتقاد أن الله ﷻ هو وحده ربُّ كلِّ شيء ومالكه ، وهو خالق كل شيء -سبحانه- فهو خالق العباد ، ورازقهم ، وهو ﷻ محييهم ومميتهم ، وأنه سبحانه النافع الضار ، المتفرِّد بإجابة الدعاء عند الاضطرار ، والأمر كله له سبحانه ، وبيده الخير كله ، وهو على كل شيء قدير. ليس له في ذلك شريك ، ويدخل في ذلك أيضًا الإيمان بقضاء الله وقدره ؛ لأنه من شئون الربوبية.

وهذا النوع من التوحيد يستلزم توحيد الألوهية. ومعنى يستلزم توحيد الألوهية: أن العبد الذي يُقِرُّ أنّ الله ربه، وخالقه، ومالكه، ورازقه، وأنه هو الذي أحياه وهو الذي يميته، وهو الذي يوصل النفع إليه، ويدفع الضر عنه، وأنه هو الذي ﷻ يفعل ما يشاء، ويحكم بما يريد، هذا العبد الذي يعتقد ذلك، هذا الاعتقاد يُلزمه أن يعبد الله وحده دون سواه، وإن لم يفعل فهو لم يدخل بهذا التوحيد -أعني: توحيد الربوبية- في الإسلام.

ولذلك قاتل الرسول ﷺ المشركين في مكة، وفي غيرها مع أنهم كانوا يُقِرُّون بأن الله -سبحانه- هو الخَالِق الرازق، المحيي المميت، المتصرف بالأمر كله، وأنه هو وحده الذي يفعل ذلك، وقد حكى الله -تبارك وتعالى- عنهم ذلك ومن هذا قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [العنكبوت: ٦٣]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١] فهم ينسبون الخلق، والإحياء، والإماتة، وتدبير الأمر كله من رزق وإنزال للمطر، وغيره، ينسبونه كله لله -تبارك وتعالى.

ومع ذلك حكم الله -تعالى- عليهم بالكفر، ودمغهم بالشرك فقال سبحانه: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦] أما إيمانهم بالله الذي أثبته الله لهم في هذه الآية فهو قولهم: إن الله خلقنا ويرزقنا ويميتنا، فهذا إيمان مع إشراكهم في عبادتهم غيره، فهم يعرفون الله، ويعرفون ربوبيته وملكه وقهره، وكانوا مع ذلك يعبدونه ويخلصون له أنواعًا من العبادات كالحج والصدقة، والذبح والنذر، والدعاء وكالاضطرار ونحو ذلك، ويَدّعون أنهم على ملة

إبراهيم # ، فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران : ٦٧].

وبعضهم كان يؤمن بالقدر ، وبعضهم يؤمن بالبعث والحساب ، كما قال زهير بن أبي سلمى :

يُؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ❖ ليوم الحساب أو يعجل فينقم

وقال عنترة :

يا عبل أين من المنية مهرب ❖ إن كان ربي في السماء قضاها

ومثل هذا يوجد في أشعارهم ؛ فوجب على كل عاقل عقل عن الله تعالى ، وفهم آياته أن ينظر ، ويبحث عن السبب الذي أوجب سفك دمائهم ، وسبي نسائهم ، وإباحة أموالهم ، مع هذا الإقرار والمعرفة ، وما ذاك إلا لإشراكهم في توحيد العبادة ، الذي هو معنى : "لا إله إلا الله".

وحتى أولئك الذين عبدوا الأصنام ، واتخذوها آلهة من دون الله تعالى ، لم يعتقدوا أن الأصنام مشاركة لله في الخلق ، وإنما اعتقدوا أنها تماثيل قوم صالحين من الأنبياء والصالحين ، فهم يتوسلون بها إلى الله ، كما حصل لقوم نوح الذين عبدوا ودًّا وسواعًا ، وقال الله -تبارك وتعالى- عنهم : ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح : ٢٣].

فإنّ هذه الأسماء أسماء قومٍ صالحين في قوم نوح ، لما ماتوا عكفوا على قبورهم ، ثم صوَّروا تماثيلهم ، ولمَّا طال عليهم الأمد ، ونسي الناس العلم ، ودعوة الأنبياء المرسلين إليهم ، عبدوا هذه الأسماء والصور ، والتماثيل التي أقاموها على أنماط وأشكال قوم صالحين ، ثم صارت هذه الأصنام بعينها مع غيرها هي المعبودة عند العرب ، الذين قالوا كما ذكر الله عنهم : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر : ٣].

وحتى أولئك الذين اعتقدوا بإلهين اثنين كالثنوية مثلًا، الذين قالوا بإله للنور، وإله للظلمة، أو إله للخير وإله للشر، لم يكونوا يعتقدون تساوي هذه الآلهة؛ فإله النور عندهم خير من إله الظلمة، وهذا ليس مثل ذاك، ولذلك الأمر كما ذكر الشيخ الطحاوي -رحمه الله- أنه لم يَعْلَم في العالم أجمع: أن هناك أُمّة ذُكرت أن لهذا الكون خالقين متماثلين من جميع الوجوه.

ولا أظن عاقلًا يوقن في قرارة نفسه بأن هناك خالقًا، أو مدبرًا لهذا الكون غير الله سبحانه، أو أن هذا الكون لم يخلقه الله تعالى؛ لأن الوحدة والتناسق في نظام هذا الكون دليل على وجود رب العالمين ﷻ ووحدانيته، وكما قال الشاعر:

وفي كل شيء له آية ❖ تدل على أنه الواحد

ولذلك جاءت الآيات القرآنية الكريمة توجِّه أنظارنا إلى هذا الكون وتناسقه؛ لتبين لنا أن وراء هذا كله قدرة الله -تبارك وتعالى- وإرادته، وأنا أدعو عموم المسلمين أن يتأملوا هذه الآيات الواردة في سورة النمل، وهي قول الحق -تبارك وتعالى:

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا
كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ
قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ
ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ
وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن
يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ
ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [النمل: ٥٩- ٦٤].

والجواب على كل سؤال ورد في هذه الآيات أإله مع الله؟. القول والجواب هو: أنه لا يوجد مع الله إله، ولا رب سبحانه وتعالى جل في علاه، ولهذا وجب أن نردد قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

ومن نور هذه المشكاة جاء حديث النبي صلى الله عليه وسلم ودعاؤه الذي يقول فيه: ((اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)). وتوحيد الرُّبوبية لا يتنافى مع ما جاء من تسمية المالك للشيء المتصرف فيه، ربًّا له، كأن نقول مثلًا: فلان ربُّ الدّار، أو رب البيت؛ فإن هذا يعني أنه هو صاحب هذا الشيء الذي جعل الله تعالى له حق التملك والتصرف في ذلك الشيء المملوك، وهو يصلحه وينميه، ويتعهده ويقوم برعايته.

ولا يتنافى ذلك مع أن الله سبحانه وتعالى هو رَبُّ كل شيء ومليكه، فهو إطلاق بمعنًى خاص، لا بأس به في الشرع، ولا في العقل، وإذا كان من البداهة والفطرة، أن يُقِرّ الإنسانُ بوجود الله سبحانه وتعالى ووحدانيته.

وبالتالي أقول: إنه من السخافة والضلالة والجهالة أن يغمض الإنسان عينه، أو يجعل عليها غشاوة؛ لئلا تبصر الحق وتهتدي إليه، أو أن يلغي عقله ويطمس على بصيرته، ويُخالِفَ فطرته؛ فينكر وجود الله -تبارك وتعالى، وينسب الخلق إلى ما أسماه بعضهم الطبيعة، أو التفاعل الذاتي، أو المصادفة، أو غير ذلك، كما ورد ذلك عن الملاحدة، وأضرابهم من السفهاء.

ب- صُور من الإخلال بتوحيد الربوبية:

أحمد الله ﷻ أولًا على أن الموجة الإلحادية التي اتَّسعت دائرتها في الشرق والغرب في القرن المنصرم، لا شك أنها قد انكمشت كثيرًا، ونحمد الله على ذلك؛ إلا أننا نواجه مشكلة في داخل الأمة الإسلامية؛ فبعض المسلمين في بقاع الأرض -وللأسف الشديد- يأتون بصور تخلُّ بتوحيد الربوبية، ومن ذلك زعمهم أن أحدًا من البشر كالأقطاب والأبدال، لهم نوع من القدرة والتصرف في هذا الكون، أو أن هذا الكون يُحفظ بهم، أو أنّ الأولياء في قبورهم يستطيعون أن ينفعوا أحدًا بشيء، كالشفاء من المرض، أو تيسير حاجة ما من حاجات الناس، ولذلك تراهم يطوفون حول قبورهم، ويدعونهم من دون الله، أو مع الله، ويستغيثون بهم ويستجيرون، ويقدمون لهم النذور والقرابين، ولا يبعد عن هؤلاء أولئك الذين يخضعون خضوعًا تامًّا لبعض الأشياخ.

ويقولون بأنه يجبُ علينا أن نكون كالميت بين يدي الغاسل، يعني: يكون الواحد منهم بين يدي شيخه كالميت بين يدي مغسله؛ فهؤلاء، وإن قالوا بأن الله هو الخالق الرازق المدبر لهذا الكون، المتصرف فيه؛ إلا أنهم في حقيقة أمرهم لم يقدروا الله ﷻ حق قدره، وعظموا هؤلاء الأموات أو المشايخ، أكثر مما يعظمون الله تعالى.

وعليه أقول: يجب علينا أن نحذر الوقوع في أي شائبة من شوائب الشرك، ولنحافظ على هذه العقيدة نقيَّة صافية، وليكن رَبُّ العالمين تعالى دائمًا وحده وجهتنا ومعبودنا، ولنقل ولنكرر مع أبي الأنبياء خليل الرحمن إبراهيم # : ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، ونقول أيضًا كما قال ربنا في كتابه عن نبينا ﷺ:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

توحيد الألوهية

أولًا: معنى توحيد الألوهية:

ما أعظم قدرة الله سبحانه، وما أجلى حكمته في هذا الخلق، إن هذا الوجود كله اتجهت إليه إرادة الله تعالى؛ فأوجدته، وأودعه الله -سبحانه- قوانينه التي بها يتحرك، والتي تتناسق حركة أجزائه فيما بينها، كما تتناسق حركته الكلية سواء بسواء، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

فتناسق حركة إرادة وأجزاء هذا الكون واضحة، وقال تعالى أيضًا مبينًا أنه وحده سبحانه هو الذي يفعل قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وبهذا يترتب توحيد الألوهية على توحيد الربوبية، كما أن توحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية، ومعنى أن توحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية، أنّ الذي يعبُد الله وحده، ويسجد ويركع له وحده، ويدعوه ويتوكل عليه وحده، يُوقِنُ يقينًا في قرارة نفسه أنّ اللهَ خَالِقُه ورَازِقُه، ولولا ذلك ما عبد الله وحده.

توحيد العبودية هو: إفراد الله ﷻ بالعبادة، بمعنى: أن يُعبد الله ﷻ وحده، ولا يُشرك معه غيره في عبادته؛ أيًّا كان هذا الغير، لأنه وحده المستحقّ أن يُعبد.

وهذا التوحيد مَبني على إخلاص العمل كله، والتوجه به لله -تبارك وتعالى- وحده، دون سواه. سواء كان هذا العمل من أعمال القلوب أو أعمال الجوارح، وهذا النوع من التوحيد هو الذي تضمنه قول الله -تبارك وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله سبحانه: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٢٣].

وأساس هذا التوحيد: أن نعلم أن هناك ألوهية وعبودية؛ فالله ﷻ هو الرّبُ القوي القادر، الغني الواسع، العزيز الحاكم، وهو الإله الحاكم المُشرع، الذي ينبغي أن يتوجه إليه جميع الخلق بالعبادة، وأما الإنسان فهو مخلوق لله -سبحانه- وهو عاجز ضعيف، رغم كل ما منحه الله من المواهب والملكات، وهو خاضع عابد بطبعه، إن لم يكن عابدًا لله تعالى؛ فإنه سيعبد غير الله، ويقع في عبودية غير الله تعالى، فهو إن لم عبدًا لله كان عبدًا لغير الله.

فالصلة بين العبد وربه -تبارك وتعالى- هي الصلة العبودية للربوبية، وتحقيق ذلك يكون بالتوجه إلى الله تعالى وحده بالأعمال والقصد، وهو توحيد الألوهية.

ب- أهمية هذا التوحيد، ومنزلته من الدين:

هذا التوحيد هو أول الدين وآخره، وباطنه وظاهره، وهو أول دعوة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- وآخرها. وهو معنى قول "لا إله إلا الله" وجميع رسل الله -تبارك وتعالى، عليهم الصلاة والسلام- جاءوا إلى أممهم بالدعوة إلى هذا التوحيد، قال الله تعالى مخبرًا عن نوح # : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٥ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٥- ٢٦] وقال عن هود # : ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [هود: ٥٠].

وتكرَّرت هذه الكلمة، وهذه الدعوة على لسان صالح وشعيب، وسائر الأنبياء والرسل -عليهم الصلاة والسلام، ثم ذكره الله -تعالى- قاعدة عامة في دعوة كل الرسل، فقال -تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ويُفهم من هذا كما نَصّت الآيات: أن تَوحيد العبادة هو ما جاء به جميع الأنبياء والمرسلين، ثم أمر الله تعالى نبينا محمدًا ﷺ أيضًا بهذا فقال: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الزمر: ١١- ١٢]، وقال سبحانه: ﴿ قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ﴾ [الزمر: ١٤].

وعندما بعث النبي ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن، قال له: ((إنك تأتي قومًا أهل كتاب، فادعهم إلى شهادة ألا إله إلا الله))، وفي رواية: ((أن يوحدوا الله)) وهذا يعني: أن هذا التوحيد هو نقطة الانطلاق في الدعوة إلى الله، وعلى كل داعية أن يكون كذلك، فيبدأ دعوته بالدعوة إلى إفراد الله بالألوهية والعبادة، ولأهمية هذا النوع من التوحيد.

ولأنه هو لب دعوة الرسل -عليهم السلام- وأن نزاع المشركين، إنما كان في هذا النوع في هذا كله، كانت العناية به في القرآن الكريم؛ فما من سورة من سوره إلا وقد جاء فيها الحديث عن التوحيد نصًّا أو دلالة، وقد سلك القرآن الكريم في بيان حقيقة هذا التوحيد ولوازمه، ومقتضياته مسالك شتى؛ فهو قد أمر به مباشرة، ثم ناقش شبهات المشركين ورد عليهم ما ادَّعوه من الأسباب التي أوقعتهم في الشرك، وبين حقيقة الشرك الذي وقع فيه المشركون، وأنه هو شرك العبادة، أو شرك الطاعة والاتباع، والتحليل والتحريم من دون الله تعالى.

ومن خلال هذه المناقشات رسم القرآن الكريم الصورة الصحيحة الصادقة للتوحيد، ومن هذه المناقشات مثلًا قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد: ١٦].

ثم ذكر ﷻ لعباده المؤمنين طريق العبادة الصحيحة التي ينبغي أن يكون المسلم عليها أو يقوم بها، ويوجه نظره إلى التفكر فيما بثه سبحانه من آيات ودلائل، تقوده إلى الخضوع لله ﷻ وحده كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠- ١٩١].

ثم ذكر ﷻ في كتابه ما أعدَّه الله لعباده المؤمنين من صور النعيم والثواب في الجنة، لمن يحقق هذا التوحيد، وبالمقابل رسم صورة قاتمة للعذاب المهين الأليم، لكل من يخالف هذا التوحيد؛ لأنه يكون في هذه الحالة قد أشرك مع الله غيره والله تعالى، يقول: ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وأما تحقيق هذا التوحيد: فإنه يكون بالتوجه لله تعالى وحده، وإفراده بكل أنواع العبادة، والبراءة من كل ما يُعبد من دون الله؛ فينبغي أن يتجه العبد بالعبادة كلها له سبحانه، سواء كانت عبادة اعتقادية أو قلبية، أو بدنية، أو مالية، وأن تخلص العبادات كلها لله -تبارك وتعالى- وحده دون سواه.

معنى العبادة وما يتعلق بها

عناصر الدرس

العنصر الأول :	معنى العبادة، وأركانها، وشروطها	٢١٥
العنصر الثاني :	أقسام العبادة	٢٢٦

معنى العبادة، وأركانها، وشروطها

أ. معنى العبادة:

اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال، والأعمال الباطنة، والظاهرة، فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصِلَةُ الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وجهاد الكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل، والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك كله من العبادة.

وكذلك حب الله وحب رسوله ﷺ من العبادة، كما أن خشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرّجاء لرحمته، والخوف من عذابه؛ كل ذلك من العبادة، ولا تَكونُ إلا لله وحده، وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له، التي خلق لها الخلق قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

إذن العبادة تشمل جوانب الحياة، وعن هذا المعنى الواسع، والمفهوم الشامل للعبادة في الإسلام، بما يشملُ الشعائر والمعاملات وغيرها، يقول أحد العُلماء: "إنّ تقسيم النّشاطِ الإنساني إلى عبادات، ومعاملات مسألة جاءت مُتأخرة عند التأليف في مادة الفقه، ومع أنه كان المقصود به في أول الأمر مُجرد التقسيم الفني، الذي هو طابَعُ التأليف العلمي، إلا أنه مع الأسف أنشأ فيما بعدُ آثار سيئة في التصور، تبعته بعد فترة آثار سيئة في الحياة الإسلامية كلها.

إذ جعل يترسب في تصورات الناس أن صفة العبادة: إنما هي خاصة بالنوع الأول من النشاط الذي يتناوله فقه العبادات؛ بينما أخذت هذه الصفة تبهت بالقياس إلى النوع الثاني، وتَقِلُّ وتضعف، إن لم تعدم من النّشاط الذي يتناوله فقه المعاملات، وهو انحراف عن المنهج الحق، ذلك أنّ العِبَادة تسع الحياة كلها.

فالإنسان يكون عابدًا لربه ﷻ ومولاه، عِندما يُخلص القصد والعمل لله؛ حتى ولو كان العمل الذي يقوم به من أمور الدنيا، فهو إن كان نافعًا ومفيدًا، ويعود عليه وعلى مجتمعه بالخير، ثم يفعله لله -تبارك وتعالى- يؤجر على ذلك، ويكون له فيه أجر، وهذه مسألة مهمة يجب أن يتنبه لها أهل الإيمان؛ حتى لا يفصلوا بين الشعائر التعبدية، وبين سائر نشاط الحياة الإنساني في جميع المجالات.

وأعداء الأمة أرادوا هذا الفصل، وصوروا للمسلمين أن العبادة تقتصر على الشعائر التعبدية التي يفعلها المسلمون في المسجد فحسب، أما بعد ذلك فهم في سائر مناحي الحياة لا علاقة لهم بالدين؛ سواء كان هذا في الشارع أو البيت، أو في المدرسة أو الجامعة، أو المصنع أو المتجر أو غير ذلك، وكل هذا ضلال وانحراف في معنى العبادة، فالعبادة اسم جامع كما ذكرت لكل ما يُحبه الله ويرضاه.

ب- أركان العبادة وأصولها:

هذه العبادة التي أمر الله -تعالى- بها، ووصف بها صفوة خلقه، فأضافهم إلى نفسه تكريمًا وتشريفًا، وهم عباد الرحمن يخضعون له خضوعًا مطلقًا، ويتذللون بين يديه حبًّا له، ورجاء لما عنده من الثواب، وخوفًا من العقاب.

هذه العبادة تتضمن معنى الذل، ومعنى الحب، فهي غاية الذل لله -تعالى- بغاية المحبة له؛ فمن خضع لإنسان مع بغضه له، لا يكون عابدًا له. ولو أحب شيئًا

ولم يخضع له لم يكن عابدًا له، كما يُحِبّ الرّجُل ولده وصديقه، ولهذا لا يكفي أحدهما في عبادة الله -تعالى، بل يجبُ أن يكون الله أحب إلى العبد من كل شيء، وأن يكون اللهُ أعظَمَ من كل شيء، بل لا يستحقُّ المَحَبّةُ والخضوع التام إلا الله ﷻ.

ومن هنا كانت العبادة تقوم على أركان ثلاثة، هي: المحبة، والرجاء، والخوف؛ فأركان العبادة إذًا ثلاثة: المحبة، والرجاء والخوف:

أما المحبة: وهي الركن الأول: فهي أصل دين الإسلام، وهي التي تُحدِّد صلة العبد بربه -تبارك وتعالى، وهي نعمةٌ لا يُدركها إلا من ذاقها، وإذا كان حُبُّ الله لعبد من عبيده أمرًا هائلًا عظيمًا، وفضلًا غامرًا جزيلًا؛ فإن إنعام الله على العبد بهدايته لحبه، وتعريفه هذا المذاق الجميل الفريد، الذي لا نظير له في مذاقات الحب كلها ولا شبيه، هو إنعامٌ هائلٌ عظيمٌ، وفضل غامر جزيل، وقد تواردت الآيات القرآنية الكريمة، والأحاديث النبوية الشريفة بهذه المعاني، فقال الله -تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ [مريم: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

وعن أنس > أنّ النّبي ﷺ قال: ((ثلاث من كن فيه، وَجَد بهنّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يُحب المرءَ لا يُحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يُقذف في النار)). وحب الله -تعالى- ليس مجرد دعوى باللسان، ولا هيامًا بالوجدان، إلا أن يصاحبه الاتباع لرسول الله ﷺ.

فلا بد أن يَتبع العبد النبي ﷺ وأن يسير وفق هداه، وأن يحقق منهجه في الحياة؛ لأن الإيمان ليس كلمات تُقال، ولا مشاعر تجيش، ولكنه طاعة الله والرسول ﷺ وعمل بمنهج الله الذي يحمله الرسول ﷺ، قال الله -تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

يقول الحافظ ابن كثير -رحمه الله: "هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادَّعى محبة الله، وليس هو على الطريقة المحمدية، بأنه كاذب في دعواه في نفس الأمر؛ حتى يتبع الشّرع المُحمدي، والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله، وأحواله. كما ثبت في الصحيح أنّ النبي ﷺ قال: ((من عَمِل عملًا ليس عليه أمرنا، فهو رد))" ولهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إيَّاه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض الحُكماء العلماء: "ليس الشأنُ أن تُحِب إنّما الشأنُ أن تُحَبّ"، وقال الحسن البصري -رحمه الله: "زعم قوم أنهم يحبون الله، فابتلاهم الله بهذه الآية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]".

هذا، والأحاديث النبوية كثيرة فيها إشارات لشروط هذه المحبة ومقتضياتها، وأثرها. ولكن بقي أن أُشير هنا تأكيدًا لما سبق إلى أن هذه المحبة ليست هي المحبة الطبيعية للشيء، ولا محبة الرحمة والإشفاق، كمحبة الولد أو الوالد لولده الطّفل، ولا محبة الإلف والأنس؛ كمحبة الإخوة لبعضهم، أو لمن يَجمعهم عمل واحد، أو صناعة واحدة، وإنّما هي المحبة الخاصّة التي لا تَصلُح إلا لله تعالى.

ومتى أحب العبد بها غيره كانت شركًا لا يغفره الله، وهي محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم، وكمال الطاعة، وإثابه سبحانه على غيره؛ فهذه المحبة

لا يجوز تعلقها أصلًا بغير الله، وهي التي سوَّى المشركون بين الله -تعالى- وبين آلهتهم فيها؛ حيث قال الله تعالى عنهم: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

فعِنْدما يتعَلّق قلب الإنسان بحب غير الله -تعالى- هذا النوع من الحب يكون قد وقع في الشرك، كما يُحب الأصنام والطواغيت، والهوى والشهوة، والقيم المادية والاجتماعية؛ فيخضع لها ويتخذها آلهة مع الله، أو من دون الله. هذا هو الركن الأول من الأركان العبادة.

أما الركن الثاني: فهو الرجاء:

محبة العبد لله -تعالى- تحمله على أن يرجو ما عند الله -تعالى- في الدار الآخرة من الأجر والثواب، والرّحمة والاستبشار، بجود الرّب -تبارك وتعالى- وفضله والثقة به؛ فهو عندئذ يبذل الجهد، ويقوم بالطاعة على نور من الله، يرجو ثوابه، أو يتوب إليه من ذنب؛ فهو يرجو مغفرته وعفوه، ويطمع في مزيد إحسانه، دون أن يُوقعه ذلك في شيء من الأمن من مكر الله وعقوبته؛ لأن الأمر كما قال الله: ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٩].

وعلى حسب المحبة وقوتها يكون الرجاء؛ فكلُّ مُحب راجٍ خائف بالضرورة؛ فهو أرجى ما يكونُ لحبيبه، أحب ما يكون إليه، ويترقى في هذا الرجاء صعدًا؛ فيرتقي من رجاء يبعث على الاجتهاد بالعبادة؛ لما يؤمنه من ثواب، إلى رَجاء يبلغ فيه موقفًا تصفوا فيه الهمة، بترك ما تسترده النفس، وتميل إليه، بلزوم الأحكام الدينية، ثم يتطلع إلى رجاء لقاء الخالق سبحانه وتعالى قال تعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقال ﷻ: ﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت: ٥]، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨]، وفي (صحيح مسلم) ((لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه)).

وعن أبي هريرة > أنّ رسولَ الله ﷺ قال: ((يقول الله -تعالى- أنا عِند ظن عبدي بي)) وهذا الرجاء له أثره في نفس المؤمن، حيثُ يتطلع لما عند الله تعالى من ثواب، وما ادَّخره الله لعباده المُؤمنين من ألوان النعيم الحسي والمعنوي، كما قال رب العالمين -جل في علاه- داعيًا أهل الإيمان إلى الطمع فيما عنده -سبحانه- بشرط الإيمان والعمل الصالح.

وإحسان الظن بالله أيضًا أمر ضروري، وآيات القرآن الكريم بعضها يدل ويشير إلى ذلك، ومنها قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [الحج: ٢٣، ٢٤] وآيات النعيم في القرآن الكريم كثيرة تجمع بين لوني النعيم، وتسمو بروح الإنسان وهمته ليسعى إليها بالطاعة والالتزام.

الركن الثالث والأخير من أركان العبادة: فهو الخوف:

والإسلام يوازن بين الخوف والرجاء، فلا يطغى منهما جانب على الآخر، فكما أن المسلم يعبد ربه -تبارك وتعالى- حبًّا له، ورجاء لثوابه، وطمعًا في جنته؛ فإنّه كذلك يعبُده خوفًا من عقابه، وحذرًا من ناره، دون أن يتبعه هذا الخوف إلى شيء من اليأس، أو القنوت، قال الله ﷻ محذارًا من اليأس والقنوات من رحمة رب العالمين سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧].

والمسلم لا يخافُ من غَير الله -تعالى- أن يُصِيبَه بما يشاء من مصيبة، أو مرض، أو فقر، أو قتل، أو نحو ذلك بقدرته ومشيئته. سواء ادَّعى أن ذلك كرامة لمن يخاف منه بالشفاعة، أو على سبيل الاستقلال. فهذا الخوف لا يجوز تعلقه أصلًا بِغيرِ اللهِ -تعالى؛ لأن هذا من لوازم الإلهية، فمن اتخذ مع الله ندًّا يَخافه فهو مشركٌ قال الله -تبارك وتعالى: ﴿ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٠، ٨١].

ثم تتوارد الآيات الكريمة، تنزع عوامل الخوف من الخلق على الرزق، أو الخوف من الأذى، أو النتائج المجهولة؛ فيقول رب العالمين -سبحانه- مبيِّنًا أنه لا يجب على العبد، ولا يجوزُ أن يخافَ شيئًا من ذلك؛ لأن هذا بيد الله سبحانه: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١]، فلا يخاف العبد من غير ربه ومولاه والأمر كما قال الله: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وكذلك يخاف المؤمن وعيد الله، الذي توعَّد الله به العصاة؛ فيكون ذلك الخوف طريقًا للجنة ونعيمها، كما قال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقال سبحانه: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

وإذا كان النعيم معنويًّا وماديًّا، فإن العِقَاب كذلك، وما نخاف منه، أو ما يُخوفنا الله -تعالى- به من العذاب يشمل النوعين كذلك: المعنوي والمادي، قال سبحانه: ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [الحج: ١٩- ٢٢].

وبهذا تَنْتَهي أركان العبادة الثلاثة: المحبة وهي الركن الأول، والرجاء. ثم الركن الثالث الخوف.

وأنقل هنا كلمات قالها الإمام ابن بالقيم -رحمه الله تبارك وتعالى- في أركان العبادة، ومكانة الخوف والرجاء بصورة خاصة، وضرورة التوازن بينهما بصورة عامة، مع تغييب أحدهما أحيانًا على الآخر، وذلك على حسب حال الإنسان، يقول الإمام ابن القيم -رحمه الله تبارك وتعالى: "القلب في سيره إلى الله ﷻ بمنزلة الطائر؛ فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه؛ فمتى سلم الرأس والجناحان، فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فُقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر".

ولكن السلف استحبوا أن يقوي في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوي جناح الرجاء على جناح الخوف، وقال بعض السلف: "أكمل الأحوال اعتدال الرّجاء والخوف، وغلبة الحُبّ؛ فالَمحَبّة هي المَركب، والرجاء حال، والخوف سائق، والله الموصل بمنِّه وكرمه". وهذا المعنى هو ما أشار إليه الحديث الشريف، وهو قوله ﷺ: ((إنّ الله خلق الرحمة يوم خلقه مائة رحمة، فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة؛ وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة؛ لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المسلم بكل الذي عند الله من العذاب؛ لم يأمن من النار)).

ولذلك قال بعض السلف: "من عَبَد الله بالحب وحده، فهو زنديق. ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري -يعني: خارجي، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ -يعني: من أهل الإرجاء، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن".

وبالتالي أقول: لا بد من المحبة والرجاء والخوف، وأن يوازن العبدُ بين الرّجاء والخوف بصورة خاصّة، ولو غلب أحدهما على الآخر في الحالات المختلفة كما أشار ابن القيم؛ ربما كان هذا حسنًا. وبهذا يتبين أن القائلين بأنه لا داعي للخوف والرجاء، وذهبوا إلى أن الله ﷻ يُحَبُّ لذاته لا طمعًا في رجائه، ولا خوفًا من عقابه، وقالوا بأن المحبة والعبادة للخوف والرجاء -يعني: معناها- أنها لسبب- ونحن ننزه أنفسنا عن ذلك، بأن الله يُحَبّ لذاته، دون أن يكون هناك سبب يدفع إلى هذه المحبة، كالخوف والرجاء.

أقول: هذا باطل؛ فالخوف والرجاء كما ذكرت من أركان العبادة، ولا بد منهما، وكان حالُ الأنبياء والمرسلين كذلك، والله ﷻ ذكر عن عبده زكريا # أنّه طَلب من ربه الولَد؛ فمَنّ الله -تبارك وتعالى- عليه به، ثم ذكر في الآيات أن ذلك كان بسبب عبادته لربه، مع محبته وخوفه منه وطمعه فيما عنده، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وحال الأنبياء كما نعلم هو أكمل الحالات، وبالتالي لا يحق لإنسان أن يقول هذا القول، وهو قول لا يَعْرفه أحدٌ من أهل السنة والجماعة، الذين عبدوا الله -تبارك وتعالى- وأحبوا ربهم ومولاهم ﷻ وحده دون سواه، وهو ما يَجِبُ علينا أن نكون عليه؛ فلنجمع بين المحبة وبين الخوف وبين الرجاء، نسلم في عبادتنا لرب الأرباب ﷻ جل في علاه.

جـ- شروط العبادة:

كما ذكرت حقيقة عبادة الله -تعالى- وأصلها: كمال المحبة لله، مع كمال الذل والخضوع لرب العالمين جل في علاه. فمن يُحب من لا يخضع له لا يكون عابدًا، وكذلك من يخضع ويذل لمن لا يحبه؛ فليس عابدًا له، وعبادة الله -تبارك وتعالى- لا تكون مقبولة، ولا مَرضِيّة له -جل وعلا- حتى تستكمل شروطها وأركانها، والعبادة لها شروط مهمة، يجب على كل إنسان أن يعلمها؛ لأن قبول العبادات متوقف على الإتيان بشرطي العبادة، وبهذا يظهر أن للعبادة شرطان ضروريان مهمان هما:

الشرط الأول: الإخلاص لله -تبارك وتعالى، وأعني بالإخلاص أن يقصد العبد بعبادته وجه الله -تبارك وتعالى- دون سواه، وهو شرط ضروري في العبادة؛ بل هو أمر ربّانيٌّ إلهيٌّ من رب العالمين -سبحانه، قال الله -تبارك وتعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥]. وقال الله ﷻ موجهًا الخطاب للنبي ﷺ وهو سيد الأولين والآخرين يقول الله له: ﴿ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٢، ٣].

قال علامة الهند الإمام المحدث صديق حسن خان -رحمه الله: "لا خلاف في أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله، وبناء على هذا الشرط؛ فمن أدَّى العبادة ونوى بها غير وجه الله، كأن يريد مدح الناس، أو يريد مصلحة دنيوية، أو فعلها تقليدًا لغيره، دون أن يقصد بعمله وجه الله -تبارك وتعالى، أو أراد بعبادته التقرب إلى أحد من الخلق، أو فعلها خوفًا من السلطان أو من غيره؛ فلا تُقبل منه، ولا يثاب عليها، وهذا مجمع عليه بين أهل العلم، وإن قصد بالعبادة وجه الله وخلط نيته رياء، حبط عمله أيضًا، ولا يُعرف عن السلف في هذا خلافًا".

إذن الشرط الأول من شروط العبادة: إخلاص العبادة كلها لله وحده، دون سواه.

أما الشرط الثاني من شروط العبادة، فهي: أن تكون موافقة لشرع الله -تعالى، يكون العبد فيها متبعًا للنبي ﷺ:

فلا بد أن تكون العبادة في وقتها وصفتها، ومُوافقة لما جاء في كتاب الله، وسُنّة رسول الله ﷺ، فلا يزيدُ في عبادته عملًا أو قولًا لم يرد فيهما، ولا يفعلها في غير وقتها، وكذلك لا يتعبَّد لله بعبادة لم ترد فيهما، وهذا هو مقتضى شهادة أن محمدًا رسول الله ﷺ، فلا يعبد الله -تبارك وتعالى- إلا بما شرعه على لسان نبيه ﷺ.

وقد أمرنا الله -تبارك وتعالى- بطاعته واتباعه، وعدم الخروج على سنته؛ فقال جل في علاه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ [النساء: ٥٩]، وقال سبحانه: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر: ٧]، وقال النبي ﷺ: ((من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه؛ فهو رد))، وفي رواية لمسلم في صحيحه: ((من عمل عملًا ليس عليه أمرنا؛ فهو ردٌّ)).

فالآية صريحة في وجوب اتباع النبي ﷺ، والحديث بروايتيه صريح في تحريم إحداث عبادة لم يأمر بها النبي ﷺ، ولم ترد في سنته، ولا شكّ أنّ تَحريم إحداث صفة لعبادة مشروعة، والنّهي عن ذلك يَدُلّ على وُجوب اتباع النبي ﷺ، وقد جمع الله ﷻ في آية بين ضرورة الإخلاص واتباع النبي ﷺ فقال: ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

هذه الآية ذكرت شرطي العبادة: الإخلاص، والاتباع؛ لأن معنى قول الله ﷻ: ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا ﴾ يعني: خالصًا صوابًا، كما ذكر أئمتنا

-رحمهم الله، وقد سُئل الإمام الحسن البصري -رحمه الله: "ما معنى خالصًا صوابًا؟ قال: خالصًا أن يكون لله، وصوبًا أن يكون وفق هدي رسول الله ﷺ".

والعبد إذا لم يأتِ بهذين الشرطين، لا شك أن ما يأتي به من عبادة لا وزن له، ولا قيمة؛ فلا بد كي يَقبل اللهُ عمل العبد أن يأتي بهذين الشرطين؛ فيُخلص العبادة لله وحده دون سواه، ويتوجه لرب العالمين ﷻ وحده، ثم تكون هذه العبادة في كيفيتها، وفي هيئتها، وفي زمانها؛ مطابقة وموافقة لهدي النبي الكريم ﷺ؛ لأنه هو الإمام، ولأنه هو القدوة، ولأنه هو الذي يُتَّبع وحده دون سواه.

أقسام العبادة

وأنواع العبادة كثيرة؛ وهي لا تَخرُج في جملتها عن خمسة أنواع:

النوع الأول: عبادات اعتقادية:

وهذه أساسها أن يعتقد العبد أن الله هو الرب الواحد الأحد، الذي ينفرد بالخلق والأمر، وبيده الضرُّ والنّفع، ولا يَشْفَعُ عنده أحدٌ إلا بإذنه، ولا معبود بحق غيره سبحانه، والدّلائل على ذلك من كتاب الله -تعالى- كثيرة للغاية تعز على الحصر، وقد سبق بعضها ومن ذلك أيضًا الاعتقاد والتصديق بما أخبر الله -تعالى- عنه من الإيمان بالملائكة والكتب، والرُّسل، واليوم الآخر، والقضاء والقدر في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى ذاكرًا بعض أصولِ الاعتقاد التي يجبُ على العَبدِ أن يعتقدها، وأن يُؤمن بها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ

﴿ ... رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦]. كما ذكر الله ﷻ الإيمان بعقيدة القضاء والقدر في آيات كثيرة من القرآن، كقوله سبحانه: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢٢].

النوع الثاني من أقسام العبادة: عبادات قلبية:

وهي الأعمال القلبية التي لا يجوز أن يُقصد بها إلا الله -تعالى- وحده، فمنها المحبة التي لا تَصلُح إلا لله تعالى وحده، وهي محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم فيحب العبد الله -تعالى، ويُحب الله عباده الذين يحبونه سبحانه، قال ﷻ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥].

ومن العِبَادات القلبية: التوكل: وهو الاعتماد على الله -تعالى- والاستسلام له، وتفويض الأمر إليه، مع الأخذ بالأسباب، قال الله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣]، ومن العبادات القلبية الخشية والخوف، قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ﴾ [يونس: ١٠٧].

ومن هذه العبادات القلبية: الرجاء فيما لا يقدر عليه إلا الله، فمن يدعو الأموات أو غيرهم راجيًا حصول مطلوبه من جهتهم، يقع في شرك أكبر، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٨] ومنها الإنابة والتوبة؛ فينبغي

على المؤمن أن يَقبل على الله، وأنْ يتوب إليه وحده دون سواه، ولا ينتظر ذلك من أحد سوى ربّه ومولاه، قال الله -تبارك وتعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ ﴾ [الزمر: ٥٤]. وقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا ﴾ [التحريم: ٨].

النوع الثالث من أقسام العبادات: عبادات لفظية:

وهي نطق بكلمة التوحيد، فمن اعتقد ما ذكر، ولم ينطق بهذه الكلمة العظيمة لم يحقن دمه، ولا ماله؛ فالنبي ﷺ يقول: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: "لا إله إلا الله" فإذا قالوها، وصلوا صلاتنا، واستقبلوا قبلتنا، وذبحوا ذبيحتنا؛ فقد حرُمَت علينا دماؤهم وأموالهم، إلا بحقها، وحسابهم على الله)).

ومن نطق بكلمة التوحيد، ولم يعتقدها بقلبه؛ حُقن ماله ودمه، وحسابه على الله، وحُكمه حكم المنافقين.

ومنها -أي: من العبادات اللفظية- الدعاء فيما لا يقدر إلا الله -تعالى- سواء كان طلبًا للشفاعة، أو غيرها من المطالب، قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٦]، ومنها الاستعانة فيما لا يقدر عليه إلا الله -تعالى- حيث قال سبحانه: ﴿ إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ ﴾ [الأنفال: ٩].

القسم الرابع من أقسام العبادات: عبادات بدنية:

كالصلاة والركوع والسجود، وهي لا تُصرف إلا لله قال الله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ﴾ [الكوثر: ٢]، وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الحج: ٧٧]،

ومن العبادات البدنية الطواف بالبيت حيث لا يجوز الطواف إلا به، قال تعالى: ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ [الحج: ٢٩]. وسائر أنواع العبادات البدنية كالصوم والحج؛ والآيات في ذلك كثيرة.

ومن العبادات البدنية: الجهاد في سبيل الله -تعالى- قال الله ﷻ: ﴿ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٧٤]، والآيات والأحاديث في ذلك تُوحي بأهمية هذه الفريضة ومكانتها، أعني: فريضة الجهاد في سبيل الله -تبارك وتعالى.

أما القسم الخامس والأخير من أقسام العبادة فهو: عبادات مالية:

وهذا يكون بإخراج جزء من المال؛ امتثالًا لما أمر الله -تعالى- به، وهي الزكاة. والزكاة فريضة عظيمة من فرائض الإسلام، أمر الله بها في كتابه، وهي من العبادات التي يجبُ أن يقوم بها العبد لله، إذا وُجد لديه من يُمكن أن يخرج منه شيئًا لربه ومولاه، والله ﷻ يقول: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة: ٤٣]. ومما يدخل في العبادة المالية أيضًا: النذر؛ قال الله تعالى: ﴿ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴾ [الإنسان: ٧].

النهي عن مظاهر الغلو ، وبيان معنى التوسل والوسيلة

عناصر الدرس

العنصر الأول : النهي عن مظاهر الغلو في الأنبياء والصالحين ٢٣٣

العنصر الثاني : معنى الوسيلة وأركانها ، والمشروع منها والمذموم ٢٤٠

النهي عن مظاهر الغلو في الأنبياء والصالحين

الإسلام جاء بالتوحيد الخالص، وحارب الشرك بجميع صوره، سواء كان ذلك متعلقًا بالشرك الأكبر أو الأصغر، وقد حذَّر الإسلام من الشرك بجميع أنواعه أشد التحذير، واتخذ لذلك وسائل شتَّى، أبرزها سدُّ كل المنافذ التي تهبُّ منها ريح الشرك؛ فالإسلام لم يقتصر في حربه للشرك على بيان جرمه وعظيم خطره وإثمه، وإنما سد كل الأبواب والمنافذ التي يُمكن أن يكون للشرك مدخل منها، ومن هذه المنافذ ما يأتي:

أولًا: الغلو في تعظيم النبي ﷺ:

من المعلوم أن النبي ﷺ هو سيد ولد آدم ولا فخر، ومع ذلك نَجِدُ أنّ النّبي ﷺ نهى عن الغلو في تعظيمه ومدحه؛ حتى لا يكون في الغلو فيه ﷺ منفذ من منافذ وقوع الشرك في هذه الأمة المحمدية، التي أرسى النبي ﷺ قواعد التوحيد فيها من خلال بعثته المباركة ﷺ.

ومن الأحاديث التي نهى هو نفسه ﷺ عن اللغو فيه: ما جاء في قوله ﷺ، والحديث أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما: ((لا تطروني، كما أطردت النصارى عيسى ابن مريم، إنّما أنا عبد؛ فقولوا: عبد الله ورسوله)) ﷺ، يقول هذا ﷺ ونحن هنا نُشير إلى أن القرآن الكريم قد اتفق مع ما قاله النبي ﷺ عن نفسه؛ فقد قال هو عن نفسه في الحديث السابق: ((إنّما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله)).

وهو يعني: أنه عبد لله، ولو نظرنا إلى آيات القرآن الكريم سنجدُ أنّ الله -تبارك وتعالى- أثنى على النبي ﷺ بشرفِ العبودية لربه ومولاه، في أشرف المقامات التي فيها رِفعة، ومكانة له ﷺ، وما كان هذا كذلك إلا لتأكيد معنى عدم الغلو في تعظيمه، ومدحه ﷺ.

ولنتأمل مثلًا ما جاء في قول الحق -تبارك تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ [الكهف: ١] فإنزال الكتاب نعمة عظيمة من الرب الكريم سبحانه وتعالى، والله عز وجل يعظم نفسه ويثني عليها بقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ [الكهف: ١]، ثم يشير بعد ذلك مباشرة إلى أنه حمد نفسه، وأثنى عليها؛ لأنه أنزل الكتاب على عبده، والمراد بعبده هنا هو النبي ﷺ.

ومثله ما جاء في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١] هذه معجزة عالية عظيمة للنبي ﷺ، وقد أتت بعد تكذيب المشركين له، وصَدّهم لدعوته، ووفاة زوجه خديجة >، وعمه أبي طالب وقد كان يدافع عنه، فجاء ربُّ العالمين سبحانه وتعالى فسَرّ بهذا الإسراء عن النبي ﷺ.

ولا شَكّ أنّه مُعجزة عظيمة، عِنْدَما يخْرُج ﷺ من مكة، حيثُ بيت المقدس في جزء من الليل، لا شك أنّ هذا إعجاز في ذلك الوقت بصورة خاصة؛ فلا طائرات ولا غير ذلك من وسائل المواصلات، ومع كل هذا الفضل والتكريم يَذكرُه رب العالمين سبحانه وتعالى بصفة العبودية قائلًا: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، كما قال جل في علاه: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ [الجن: ١٩]، وقال جل في علاه: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

وكان ﷺ إذا رأى أو سمع ما يؤدي إلى الغلو في شخصه زجر من قال ذلك أو فعله، ونبّهه إلى الحق والسداد، ومثاله من قال له: "أنت سيدنا" وكذلك من قال له: "ما شاء الله وشئت". وكما ورد في بعض الأحاديث إن صح "قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ".

ومثله: سجود معاذ > للنبي ﷺ على سبيل التحية والتكريم، وعندما فعل هؤلاء ذلك نهاهم النبي ﷺ عن الإعادة لمثل هذا؛ حتى لا يقع غلو من أصحابه فيه ﷺ.

ثانيًا: الغلو في الصالحين:

الغلو في الصالحين مما نهى عنه الإسلام، وحذّر منه، والغلو في شأن الصالحين مرضٌ ابتليت به الأمم السابقة، بل إنّ تعظيم القبور، والشرك الذي وقع في هذه الأمة وغيرها كان بسبب الغلو في الصالحين، كما سيأتي بيان ذلك -إن شاء الله تبارك وتعالى- عند بعض الأمم؛ فقد غلا قوم في شأن المسيح، حتى جعلوه ابنًا لله تعالى، أو ثالث ثلاثة. وقال بعضهم: إنّ اللهَ هو المسيح ابن مريم، وغلا قوم في أحبارهم ورهبانهم، فاتخذوهم أربابًا من دون الله.

بل إنّ أول شرك وقع في الأرض، كان سببه الغلو في الصالحين، ويدل على هذا ما جاء في (صحيح البخاري) عن ابن عباس } في الآية التي جاءت في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا﴾ [نوح: ٢٣- ٢٤] قال > : "هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا، وسموها بأسمائهم؛ ففعلوا، ولم تعبد حتى إذا هلك أولئك، ونُسي العلم عُبدت".

وقال بعض السلف: "لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد، فعبدوهم"، ومن هنا نعلم: أنّ غُلوّ بعض المسلمين فيمن يعتقدون صلاحهم، وولايتهم لله، وبخاصة أصحاب الأضرحة، والمزارات يؤدي إلى أنواع من الشرك؛ كالنذر لهم، والذبح لهم، والاستعانة بهم، والإحسان بهم على الله، ونحو ذلك، وهذا مُشاهدٌ عند الأضرحة، والموالد التي يعقدها الناس لأرباب هذه المزارات، والمقامات.

وقد يفضي بهم الغلو إلى الشرك الأكبر، وهو اعتقاد أنّ لهم سلطة وتأثيرًا في الوجود وراء الأسباب والسنن الكونية؛ فيدعون من دون الله، أو مع الله، وهذا هو الإثم العظيم، والضلال البعيد.

ولا شك أنّ من يقع في ذلك، ويعتقد أن لغير الله تأثيرًا في الكون والوجود، وراء الأسباب والسنن الكونية؛ يكون بلا شك قد أشرك من جعل له ذلك، مع الله -تبارك وتعالى- وهو شرك أكبر نعوذ الله منه، ولكن الغلو قد يؤدِّي إلى شيء من ذلك.

ثالثًا: النهي عن تعظيم القبور:

فالإسلام حذَّر أشد التحذير من تعظيم القبور، وبخاصة القبور التي فيها الأنبياء والصالحين، ولذلك نهى الشرعُ الحَكِيمُ عن جُملة أشياء تُفضي إلى تعظيم القبور، منها: اتخاذها مساجد. وقد روى مسلم في صحيحه، أن النبي ﷺ قال قبل أن يموت بخمس: ((ألا إنّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد؛ فإني أنهاكم عن ذلك)).

وعن عائشة وابن عباس } قالا: "لما نزل برسول الله ﷺ يعني: نزل الموت به؛ يعني: قال هذا الكلام وفي حالة الاحتضار، طفق يطرح خميصة له على

وجهه؛ فإذا اغتمَّ بها كشفها فقال وهو كذلك: ((لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)). يحذر ما صنعوا.

ومن الأمور التي نهى الإسلام عنها أيضًا حتى لا تُعَظّم القبور: الصلاة إليها. وقد جاء في الحديث: ((لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها)) أي: لا تجعلوا القبور في اتجاه القبلة، ومن ذلك إضاءتها وإيقاد السرج عليها، وقد جاء في الحديث: ((لعن الله زَوّرات القبور، والمتخذين عليها المساجد، والسُّرج)).

ومن تعظيم القبور أيضًا: البناء عليها وتجصيصها، وقد أخرج مسلم في صحيحه، عن جابر بن عبد الله } قال: "نهى رسولُ الله ﷺ عن تجصيص القبر، وأن يُقْعَد عليه، وأن يُبنى عليه بناء". ومن ذلك الكتابة على القبور؛ لحديث جابر أيضًا: "أنّ النبي ﷺ نهى أن تُجصص القبور وأن يكتب عليها".

ومن تعظيم القبور -وقد نهى عن ذلك الإسلام- تعليتها ورفعها، ولا شك أن الأُمّة ابتليت اليوم بتعلية المقابر، وبنائها بناء هندسيًّا مزخرفًا مزركشًا، وربما أودعوا فيها ما أودعوا من الإضاءات الجميلة، وسائر أنواع الرخام، وغير ذلك، والنبي ﷺ قد نهى عن كل هذا. ومن ذلك ما ذكرت من تعليت القبور ورفعها.

وقد جاء في حديث علي > : "أن النبي ﷺ بعثه وأمره أن لا يدع قبر مشرفًا إلا سواه". كما جاء في (سنن أبي داود): "نهي النبي ﷺ أن يزداد عليها أكثر من ترابها". ولهذا كان السلف يكرهون الآجر على قبورهم، يعني: هذه الحجارة التي يبني بها الناس اليوم، وهي الحجارة المحروقة التي تُعرف بطوب البناء.

كما نهى الإسلام أيضًا عن اتخاذ القبور عيدًا، فقد ذكر ﷺ كما روى أبو داود، عن أبي هريرة مرفوعًا: ((لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلوا عليَّ؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم)).

وروى أبو يعلى بسنده عن علي بن الحسين > : "أنه رأى رجلًا يجئ إلى فرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها ويدعو؛ فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثًا سمعته، عن أبي هريرة، عن جدي، عن رسول الله ﷺ قال: ((لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا؛ فإن تسلِيمَكُم يبلغني حيث كنتم)).

ومعنى اتخاذ القبر عيدًا: قصده الاجتماع والقعود عنده، ونحو ذلك، وقول رسولِ الله ﷺ هو أفضل قبر على وجه الأرض، فإذا نهى عن اتخاذه عيدًا، فقبر غيره أولى بالنهي كائنًا من كان، ويكفي أن يُصلى ويُسلم على الرسول الله ﷺ وقد أعلمنا أن صلاتنا عليه، وسلامنا عليه، تصله ﷺ حيث كنا.

ولا يظنُّ أحد أننا بهذا ننتقص من مكانة نبينا ﷺ ومن قدره، بل إننا نرفعه بذلك عندما نتبع أوامره ﷺ وقد سبق أن قلت: بأن قبره ﷺ هو أفضل قبر على وجه الأرض.

والحكمة في نهي الإسلام عن تعظيم القبور: أنه ذريعة إلى الشرك الأصغر والأكبر، كما رأينا في قوم نوح، وكما هو مشاهد إلى اليوم؛ فالغلو في قبورِ الصّالِحينَ يُصَيّرُها، أوثانًا معبودَة، ولهذا قال ﷺ: ((اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد، اشتدَّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)).

ومما يأسَفُ له كل مسلم غيور على دينه؛ أن ما حَذّر منه الرسول ﷺ قد وقع فيه كثير من أهل الإسلام؛ فقد اتخذوا قبور بعض الصالحين أعيادًا، وشيدوها وزخرفوها، وبنوا عليها المساجد والقباب، وأوقدوا عليها السُّرج والقناديل، ووقفوا لذلك الوقوف، ونذروا لها النذور، وطافوا بها كالكعبة، واستلموها كالحجر الأسود، وأوسعوا جدرانها لمسًا وتقبيلًا.

ومنهم -والعياذ بالله تبارك وتعالى- من يسجد لها، ويُعفر الخدود على ترابها، ويقف خاشعًا مستكينًا، يستغيث بأصحابها، يسأل أصحابها مشافهة قضاء

الديون، وتَفريجَ الكُرُبَات، وإغاثة اللهفات، وشفاء المرضى، والنصر على الأعداء، وبعضهم يقدم طلباته مكتوبة إلى صاحب القبر، وهذا من الشرك الصريح ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ولعل من يفعل ذلك يعتقد أن هذا الولي أو الصالح حي في قبره، وأنه يقرأ ما يقدم إليه، ثُمّ يقوم بالتنفيذ فيما طُلب منه.

وما يُقال في هذا يُقال في كل ما شرعه الله لعباده من الطاعات والكربات، يعبدوه بها تقربًا إليه تعالى وتزلفى، من صلاة وصيام وحج واعتمار، وصدقات وزكوات، واعتكاف وجهاد ورباط، وفعل خيرٍ من بر وصلة، وذكر ودعاء، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وتعليم علم وتعلمه، كل هذه العبادات وغيرها مما شرعه الله تعالى في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ فِعْلُه لغير الله تعالى يتنافى مع عقيدة المؤمن، القائمة على أساس التوحيد، الدالة عليها كلمة الإخلاص "لا إله إلا الله".

فالله ﷻ أمر بطاعته وحده، وطاعة رسوله ﷺ وطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ في الأمر والنهي، عبادة تعبد الله تعالى المؤمنين من عباده، فمن ترك طاعتهما غير مكره من أجل أحد من خلق الله كائنًا من كان رغبة فيما عنده، أو رهبة مما لديه؛ فقد أشرك، وتركه لطاعة الله تعالى، وطاعة رسوله ﷺ وهو غير مكره رغبة أو رهبة فيمن أطاعه؛ شرك. إذ الطاعة بالمعروف فقط، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ولكنّ قومًا رفضوا هذا، وأبوا إلا التوجه بهذه العبادات القلبية والبدنية، للأولياء والصالحين، باسم الوسيلة والشفاعة، والبركة، وكذلك باسم الولاية والكرامة ولا شك أن هذا من مزالق الشرك والعياذ بالله -تبارك وتعالى- وأخلص من ذلك

إلى القول: إنّ الإسلام قد حذَّر غاية التحذير من الشرك، وسَدّ كُلَّ المَنَافِذ المؤدية إليه، ومن ذلك الغلو في الأنبياء، أو الصالحين، أو التعظيم لأصحاب القبور وأربابها، أو للقبور، وغير ذلك، أو التوجه بأي لون من ألوان العبادة كالصلاة والصيام والذبح، والنذر، والخوف، والتوكل، والإنابة، والخشية، والرغبة وغير ذلك إلى غير الله -تبارك وتعالى.

معنى الوسيلة وأركانها، والمشروع منها والمذموم

أ. معنى الوسيلة لغة وشرعًا:

الوسيلة لغة: اسم فعله وسل إليه بكذا يَسِلُ وسيلة؛ فهو واسل -يعني: تقرب ورَغِبَ- ومِثْلُه توسل إليه بكذا توسلًا وتوسيلًا: إذا عَمِل عملًا تقرب إليه؛ فالمُتوسل والواسِلُ بمعنى واحد، فهي تعني الوَاسِطَة التي تُقَرّبُ العَبْد من طلبه، ويطلق لفظ الوسيلة على المنزلة عند الملك، وعلى الدرجة، وأُطلقت كذلك على أعلى درجة في الجنة.

وهِي التي قال فيها رسولُ الله ﷺ في الحديث الذي ذكر فيه أن الإنسان عليه أن يقول عندما يسمع المُؤذن، أن يقول مثلما يقول، قال ﷺ في الحديث: ((ثم سَلُوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبدٍ من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سَأَلَ لي الوسيلة؛ حلت له الشفاعة)). هذا معنى الوَسِيلَة في اللغة.

أما الوسيلة في الشرع: فهي العمل يقدمه المؤمن بين يدي رغبته؛ ليتوسل به إليها، يعني إلى الرغبة التي يريدها؛ فيفوز بمرغوبه، ويحصل على مطلوبه.

ب. أركان الوسيلة:

قلت: بأن الوسيلة هي التقرب إلى الله تعالى بعمل صالح طلبًا للقرب من الله ﷻ، ولحصولِ العَبد على حظوة لدى رب العالمين سبحانه، هذه الوسيلة الشرعية لها أركان ثلاثة، أو أنّ مَبْنَاها على ثلاثة أمور:

الأول: المُتوَسَّل إليه: وهو الله -تبارك وتعالى- ذو الفضل والإنعام.

والثاني: المتَوسِّل وهو: العبد الضعيف المحتاج الطالب للقرب من الله -تبارك وتعالى- والراغب في قضاء الله حاجة له.

والثالث: المُتَوسَّلُ به وهو: العَمَلُ الصّالِحُ المُتَقَرّب به إلى الله تعالى، أو هو الوسيلة المشروعة.

ولكي تكون الوسيلة مُجدية نافعة، يحصل بها القرب، أو تُقضى بها الحاجة لا بد من مراعاة ما يلي كشروط أساسية، لا بد من توافرها للواسل الذي يريد أن ينتفع بوسيلة ما:

الشرط الأول: أن يكون العبد الواسل إلى الله، مؤمنًا صالحًا.

الشرط الثاني: أن يكونَ العَملُ المتوسل به، مِمّا شَرَعَ الله تعالى لعباده أن يتقربوا به إليه سبحانه.

الشرط الثالث: أن يكون العمل المشروع قربة؛ موافقًا في أدائه لما كان الرسول ﷺ يؤديه عليه، فلا يُزاد فيه، ولا يُنقص عنه، ولا يُفعل في غير زمانه الذي شُرع له، ولا في غير مكانه الذي عُيِّن له وحده.

فلهذا لا يكون عمل غير المؤمن قربة ولا وسيلة أبدًا، كما لا تكون البدعة قربة إلى الله تعالى ولا وسيلة بحال من الأحوال، والوسيلة بهذا المعنى مشروعة،

مندوبٌ إليها في كل مكان وزمان، كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٣٥]، وقال ﷻ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء: ٥٧].

ففي الآية الأولى أمر فيه ترغيب للمؤمنين في طلب القرب من الله تعالى بفعل الطاعات الزائدة عن الفرائض والواجبات، وفي الآية الثانية إخبار عن نفرٍ من العرب كانوا يعبدون نفرًا من الجن، وأسلم النفر من الجن، وعبدوا ربهم، وتقربوا إليه بصالح الأعمال، والنفر من العرب لم يشعروا بإسلام أولئك النفر من الجن، وبقوا يعبدونهم، فأخبر تعالى عن حالهم منبهًا إلى خطئهم وضلالهم.

ج- المشروع والممنوع من الوسيلة: وفي بداية هذه النقطة أطرح هذا السؤال: هل كل وسيلة جائزة ومشروعة؟ أو هل الغاية تُبرِّر الوسيلة؟ وللإجابة على هذا السؤال أقول: ليست كل وسيلة جائزة ومشروعة، وإلا لكانت الغاية تبرر الوسيلة؛ فالوسيلة منها ما هو جائز، ومنها ما هو ممنوع، فالجائز منها: هو كلُّ وسيلة أذن فيها الشارع، ولا فرق في ذلك بين التوسل في الأمور الدنيوية، أو الأمور الأخروية، فلا بد من إذن الشارع في جواز الوسيلة، وإلا حُرّمت.

وقد يتم الاتفاق على جواز الغاية ومشروعيتها، ولكن ما مدى مشروعية الوسيلة إليها، وهذه بعض الأمثلة في أمور دنيوية توضح المراد: شَخصٌ يُريد أن يَحصُل على ثروة مالية، فبَحَث عن وسيلة تُحقق له الثراء، وهي غاية مقبولة، فرَأى قتل أخيه الغني الذي لا وارث له غيره فقتله. فهل هذه الوسيلة مشروعة؟ أو أنه سرق أو اختلس أو ارتشى ونصب، فهل هذه الوسائل جائزة؟ والجواب قطعًا: لا. لأنها مُحرمة، فإذا عمل وتعب وكدح، وحصل على المال المطلوب، وأدَّى حق الله فيه؛ فهي وسيلة مشروعة.

مثال آخر: رجلٌ خَطَب امرأة في نفسها فأبت الزواج منه، فرأى أن الوسيلة لقبولها أن يذهب إلى ساحر أو دجال يكتب له حرزًا، أو يجلب له ودعة، أو يُعلق له تميمة؛ ليحببه إليها حتى تتزوجه، فهل هذه الوسيلة جائزة؟ والجواب: لا. بل هي مُحرمة شرعًا. فإن سلك الطريق المستقيم الذي شرعه الإسلام في الخطبة والزواج، فهذه وسيلة مشروعة.

مثال ثالث: رجل مرض أخوه، فأراد أن يُعالجه فقيل له: اذهب إلى الضريح الفلاني واستشفع بصاحبه، وناده واستغث به؛ فإن أخاك يبرأ من مرضه، أو قيل له: ما عنده؟ فقال: الحصوة مثلًا. فقال: اسقه خمرًا أو بيرة، تُفتت الحصوة، ويبرأ من علته. فهل هذا أو تلك وسيلة صحيحة؟ بالطبع لا، فالأولى شركٌ، والثّانية معصية من الكبائر، وإنما إذا ذهب الطبيب المسلم الحاذق، الذي يُشخِّص الداء، ويصف الدواء؛ فتلك هي الوسيلة المشروعة، وهكذا.

فتلك أمثلة ذكرتها الآن للتوضيح والبيان، والمراد منه بيان أنه ليست كل الوسائل مشروعة، تُعمَّم فيها الآيات والأحاديث، وإنما الوسيلة منها ما هو مشروع، ومنها ما هو ممنوع، والمشروع منها: ما لا يكون بهوى أو مزاج أو تعصب، وإنما لما شرعه الله لعباده، وأذن لهم فيه، والممنوع منها هو غير ما شرعه الله من العبادات والقربات، وإن وقع فهو توسل باطل، وضار غير نافع.

ومن هنا تعيَّن بعد ذكر تلك الأمثلة في الأمور الدنيوية، أن أذكر جملة صالحة من أنواع الوسائل الشرعية والمباحة، في الأمور التعبدية النافعة للمتوسلين، ثم أتبعها بذكر جملة أخرى من الوسائل المُحرمة الباطلة، تعليمًا وتحذيرًا؛ حتى نوفِّي هذا البحث حقه، ولهذا سأذكر هنا الوسائل المشروعة، أما الممنوعة فهو ما يخالفها، أو يخرج عن المشروع كما هو معلوم.

ولقد شرع الله ﷻ لعباده وسائل كثيرة يتقربون بها إليه، وينالون الحظوة لديه، والمنزلة العالية عنده، وكَذلك يقضُون بها حاجاتهم، ويحصُلون على مرغوبهم، وينجون من مرهوبهم، وهذه الوسائل المشروعة أستطيع أن ألخصها فيما يلي:

أولًا: الإيمان:

وأعني بالإيمان: الإيمان بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر. وهو أفضل الأعمال وأشرف الوسائل؛ إذ هو إخلاص التوحيد، وصفاء العقيدة، وقد رضيه الله وسيلة إليه، وأثنى على المتوسلين به، كما جاء في قوله سبحانه: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، وقال -تبارك وتعالى- مبينًا صحة التوسل بالإيمان بالله ﷻ: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٦].

فهؤلاء الدّاعين دعوا رب العالمين سبحانه، متوسلين إليه طالبين أن يغفر الذنوب وأن يكفر السيئات، وأن يقي من عذاب النار؛ طلبوا ذلك عندما توسلوا أولًا بالإيمان برب العباد ﷻ جل في علاه.

ومن الوسائل المشروعة أيضًا: التّوسل بأسماء الله الحسنى، وبصفات الله العلى، كما قال الرب الكريم سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وفي الحديث: "أن النبي ﷺ سمع رجلًا يدعو متوسلًا بالإيمان بالله وبأسمائه الحُسنى يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله، لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكُن له كفوًا أحد، فقال ﷺ: ((والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطَى)).

وقال ﷺ: ((إن لله ملكًا موكلًا بمن يقول: يا أرحم الراحمين، فمن قالها ثلاثًا قال الملك: إن أرحم الراحمين قد أقبل عليك، فسله))، كما جاء في الحديث أيضًا: "سمِعَ النبي ﷺ رجلًا قائمًا يدعو ويقول: اللهم إني أسألك بأن الحمد لك، لا إله إلا أنت، يا حنانُ، يا منّان، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام؛ فقال ﷺ: ((لقد سألت الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى)).

ومن هنا كان لأي مؤمن أو مؤمنة أن يتوسَّل إلى الله تعالى بإيمانه في أي حاجة من حوائج الدنيا والآخرة أرادها، فيقول مثلًا: اللهم إني أسألك بإيماني بك وبرسولك، أو بأني أشهد أنك أنت الله الذي لا إله إلا أنت، وأن محمدًا عبدك ورسولك أن تغفر لي وترحمني، أو تقضي حاجتي في كذا، وكذلك يتوسل العبد بأسماء الله تعالى الحسنى، وكلها يُدعى به الرب -تبارك وتعالى- ويتوسل بها إليه، هو سبحانه يستجيب للداعين ويعطي السائلين، وهو البرُّ الرحيم الجواد الكريم.

ومن الوسائل المشروعة أيضًا العمل الصالح: وهذه الوسيلة لا بد أن تكون من العمل المشروع الموافق في أدائه لما كان الرسول ﷺ يؤديه، مع إخلاص نيته لله ﷻ، وهذا العملُ يتمثَّل في أداء الفرائض والواجبات، وفعل الطّاعات الزائدة عن ذلك والنوافل، وكذلك بتقوى الله ﷻ التي تتحقق بفعل المأمور وترك المنهي، وتترقى حتى درجة الإحسان، وبها تتحقق النجاة من العذاب، ويَحصُل العبد على كبير الثواب.

ومثال هذا العمل الصالح: الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، فرضًا ونفلًا كالسنن في الصلاة والصدقة، والتطوع في الحجّ والعمرة، والإكثار من صيام

النوافل والجهاد والرباط، وتلاوة القرآن الكريم، والذكر، والتسبيح، والتوبة، وعموم الطاعات، وفعل الخيرات، وكذلك ترك المحرمات. والدليل على مشروعية هذه الوسيلة في القرآن: ما جاء في قول الله -تبارك وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ٣٥].

وفي السنة: قال ﷺ: ((انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيتُ إلى غار فدخلوا، فانحدرت صخرة من الجبل، فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنّه لا يُنجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، قال رجل من هؤلاء: اللهم إنه كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق قبلهما أهلًا ولا مالًا -ومعنى الغبوق: هو الشراب الذي يُشرب بالعشي، ومعناه كنت لا أقدم عليهما في الشرب أحدًا- فنأى بي طلب الشجر يومًا -نأى يعني: بعد- فلم أَرُح عليهما حتى ناما، فحلبت غبوقهما فوجدتهما نائمين؛ فكرهت أن أغبق قبلهما أهلًا ولا مالًا، فلبثتُ والقدح على يدي أنتظر استيقاظهما حتى برق الفجر، والصبية يتضاغون عند قدمي -يعني: أولاده يصيحون من الجوع- فاستيقظا؛ فشربا غبوقهما. اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك؛ ففرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت شيئًا لا يستطيعون منه الخروج.

وقال الآخر: اللهمّ إنه كانت ابنة عمٍّ كانت أحب الناس إليَّ؛ فراوتها عن نفسها، فامتنعت حتى ألَمَّت بها سنة من السنين، فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تُخلِّي بيني وبين نفسها، ففعلت حتى قدرت عليها -وفي رواية: حتى وقعت بين رجليها. قالت: يا عبد الله، اتق الله ولا تَفُضّ الخَاتم إلا بحقه؛ فقمت عنها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرُج لنا منها فرجة؛ فُفرِج لهم.

وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيرًا بفرق أرز؛ فلما قضى عمله قال: أعطني حقي، فعرضت له فرقه، فرغب عنه -يعني: أنه أبى أن يأخذه- فلم أزل أزرعه حتى جمعت بقرًا، فجاءني بعد حين، فقلت: كل ما ترى من البقر من أجرك، فقال: اتق الله ولا تستهزئ بي، فقلت: إني لا أستهزئ بك، خُذ ذلك البقر، فأخذه فذهب به. فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك؛ فافرج لنا من بقي، ففرَّج الله ما بقي وخرجوا يمشون)).

وإذا علمت هذا، فاعلم أن التوسل المشروع الذي شرعه الله على لسان نبيه المتبوع، إنما هو التقرب إلى الله بما شرعه على لسان نبيه ومصطفاه ﷺ من علم، أو عمل قلبي أو بدني، أو ترك وكفٍّ عن عمل محظور؛ فيدخل فيه جميع الطاعات، وترك جميع المعاصي؛ امتثالًا لأمر الشارع، وهذه بعض الأدلة لجزئيات من العمل الصالح المُشار إليها مجملًا حول الصلاة مثلًا:

قال ﷺ لمن سأل عن أحب الأعمال إلى الله تعالى: ((الصلاة على وقتها)). فمن أراد المنزلة عند الله والظفر بمرغوبه بإذن الله تعالى، فليحافظ على الصلوات الخمس، وليحافظ على النوافل من الصلوات.

وعن الصيام قال ﷺ: ((ما من عبدٍ يصوم يومًا في سبيل الله تعالى، إلا باعد الله بذلك اليوم، وجهه عن النار سبعين خريفًا)). هذا في الصيام، وقال ﷺ أيضًا لمن سأله قائلًا: "يا رسول الله ﷺ دلني على عمل أدخل به الجنة، قال: ((عليك بالصوم؛ فإنه لا مثل له)).

كما جاء في الحج أيضا ذكر جزاء عظيم، ووعد كريم لمن أتى فريضة الحج، وقبلها رب العباد؛ فعن الحج قال ﷺ: ((الحَجُّ المَبرور ليس له جزاء إلا الجنة)). هذه أمثلة للوسيلة المشروعة التي يجبُ أن تكون موافقة لكتاب الله، ولفعل رسوله ﷺ.

أما الوسائل الممنوعة التي تقع على وجه على غير ذلك، كأن يتقرب المتوسل بعمله إلى غير الله -تبارك وتعالى- أو يتوسل مثلًا بالملائكة أو بالأنبياء، والصالحين، يتوسل بذواتهم أو بجاههم، أو يطلب من غير الله -تبارك وتعالى- ما لا يُطلب إلا من الله، هذا توسل ممنوع لا يجوز؛ فما خالف المشروع، فهو بلا شك ممنوع. وبهذا يتبيَّن لنا معنى التوسل والوسيلة، والممنوع، والمشروع من كل ذلك.

وبعد أن بيَّنت التوسل المشروع، أودُّ أن أحذر إخواني المسلمين من مغادرته إلى التوسل الممنوع، الذي لا يجوز؛ لأن العبد إذا تقرَّب بأعماله لغير الله ﷻ، أو صرف شيئًا من الأعمال إلى غير الله؛ فيكون بهذا قد أشرك هذا الغير مع الله ﷻ، وبالتالي لا يحصل على مرغوب طمع فيه وأراده؛ فإن أراد نجاحًا أو فلاحًا أو نجاة أو غير ذلك؛ فلن يتحقَّق له ذلك، لأنه صرف الأمر لغير من بيده الأمر، ألا وهو رب العالمين سبحانه وتعالى جل في علاه.

ولهذا فإنني أؤكد ضرورة: على ضرورة التوسل إلى الله ﷻ بالإيمان بالله سبحانه وتعالى وقد توسل به الصّالحون من عباد الله، وكذلك التوسل إلى الله بحسن الثناء عليه، ويكون ذلك بالتضرع إليه، بذكر شيء من أسماء الله الحسنى، والله ﷻ كما أشرت سابقًا، أمرنا أن ندعوه سبحانه بأسمائه سبحانه وتعالى الحسنى.

كذلك الأعمال الصالحة: أين نحن منها؟ أين نحن من الأعمال الصالحة؟ لماذا لا يجتهد العبد في عمل صالح يتقرَّب به إلى الرب سبحانه، ثم بعد ذلك يسأل الله ما يشاء، ونحن نعلم أن العبد إذا فعل لله، وتقرب بهذا العمل إلى الله، تداركته رحمة رب العالمين سبحانه وتعالى جل في علاه. ولنتأمل حديث الثلاثة الذين آواهم الغار، وكيف أن الله نجّاهم لما توسلوا إليه بأعمالهم الصالحة.

الرد على شبهات المتوسلة

عناصر الدرس

العنصر الأول : الشبهة الأولى حديث استسقاء عمر بالعباس - رضي الله عنهما - ٢٥١
العنصر الثاني : الشبهة الثانية حديث الضرير ٢٥٧
العنصر الثالث : الاستدلال ببعض الأحاديث الضعيفة في التوسل ٢٦٣

الشبهة الأولى: حديث استسقاء عمر بالعباس

تحدثت عن التوسل المشروع، وذكرت بأي شيء يكون التوسل، وتحدثت عن ذلك بتوضيح، وبضرب أمثلة متعددة، وحذرت في المقابل من التوسل الممنوع كأن يكون بالملائكة أو بالجن أو بالأنبياء أو بالأولياء والصالحين أو بدعائهم، أو بصرف بعض الأعمال لهم، غير أن قومًا خالفوا في ذلك وقالوا: بأنه يجوز التوسل بذوات الأنبياء وجاههم والأولياء والصالحين كذلك، وفي الحقيقة استدلوا على ذلك بأدلة أوردوها يدعم رأيهم الخاطئ، ويوهم العامة بصحته، ولا شك أنهم لبسوا على الناس كثيرًا في هذا الموضوع، سأسرد الشبهة التي قامت عند هؤلاء واستدلوا بها على التوسل الممنوع، ثم أتناولها بالرد.

الشبهة الأولى وقعت في حديث استسقاء عمر < بالعباس < ، وقد احتجوا على جواز التوسل بجاه الأشخاص وحرمتهم وحقهم بحديث أنس، وفيه أن عمر بن الخطاب < كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: "اللهم إنا كنا إذا أذنبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون"، وهم قد فهموا من هذا الحديث أن توسل عمر < إنما كان بجاه العباس < ومكانته عند الله ﷻ، وأن توسله كأنه مجرَّد ذكر منه للعباس في دعائه، وطلب منه أن يسقيه من أجله، وطلب منه.

فيفهمون من هذا الحديث أن توسل عمر < إنما بجاه العباس < ومكانته عند الله سبحانه، وأن توسله كأنه مجرد ذكر منه للعباس في دعائه، وطلب منه لله أن يسقيه من أجله، ولقد أقرَّه الصحابة على ذلك، فأفاد بزعمهم ما يدَّعون. وأما سبب عدول عمر < عن التوسل بالرسول ﷺ بزعمهم وتوسله بدلًا منه

بالعباس > ؛ فإنما كان لبيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل ليس غير.

هكذا زعموا وقالوا وفهموا، وفهمهم هذا خاطئ، ولا يُفهم من الحديث أبدًا أنه يدل على جواز التوسل بجاه العباس وبمكانته، وهذا التفسير مردود من وجوهٍ كثيرة أهمها: أن القواعد المهمة في الشريعة الإسلامية أن النصوص يفسر بعضها بعضًا، ولا يُفهم شيء منها في موضوع ما بمعزل عن بقيه النصوص الواردة فيه.

وبناءً على ذلك فحديث توسل عمر السابق إنما يُفهم على ضوء ما ثبت من الروايات والأحاديث الواردة في التوسل بعد جمعها وتحقيقها، ونحن والمخالفون متفقون على أن في كلام عمر "كنا نتوسل إليك بنبينا ... إلى آخره"، جاء في كلامه أيضًا: "وإنا نتوسل إليك بعم نبينا" نفهم جميعا كلامًا محذوفًا لا بد له من تقدير، وهذا التقدير إما أن يكون: كنا نتوسل بجاه نبينا، وإنا نتوسل بجاه عم نبينا على رأيهم هم، أو يكون: كنا نتوسل إليك بدعاء نبينا، وإنا نتوسل إليك بدعاء عم نبينا على، ما هو الصواب.

وما نراه نحن، ولا بد من الأخذ بواحد من هذين التقديرين لِيُفهم الكلام بوضوح وجلاء، ولنعرف أي التقديرين صواب لا بد من اللجوء إلى السنة؛ لتُبين لنا طريقة توسل الصحابة الكرام بالنبي الكريم ﷺ، فهل يا ترى كانوا إذا أجدبوا وقحطوا قبع كل منهم في مكانه، أو في مكان آخر، أو اجتمعوا دون أن يكون معهم رسول الله ﷺ، ثم دعوا ربهم قائلين: اللهم بنبيك محمد ﷺ وحرمته عندك، ومكانته لديك، اسقنا الغيث مثلًا، أم كانوا يأتون النبي ﷺ ذاته فعلًا ويطلبون منه أن يدعو الله تعالى لهم، فيحقق ﷺ طلبتهم، ويدعو ربه سبحانه، ويتضرَّع إليه حتى يُسقيهم رب العباد سبحانه.

أما الأمر الأول فلا وجود له إطلاقًا في السنة النبوية الشريفة وفي عمل الصحابة } ولا يستطيع أحد من الخلفيين أو الطرقيين أن يأتي بدليل يُثبت أن طريقة توسلهم كانت بأن يقولوا في أدعيتهم اسم النبي ﷺ، ويطلب من الله بحقه وقدره عنده ما يريدون، بل الذي نجده بكثرة وتطفح به كتب السنة هو الأمر الثاني؛ إذ تبيَّن لنا من خلال السنة أن طريقه توسل الأصحاب الكرام } بالنبي ﷺ إنما كانت إذا رغبوا في قضاء حاجة، أو كشف نازلة أن يذهبوا إليه ﷺ، ويطلبوا منه مباشرة أن يدعو لهم ربه؛ أي: أنهم كانوا يتوسلون إلى الله بدعاء الرسول الكريم ﷺ ليس غير، وأشير إلى ذلك ما جاء في قوله -تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤].

ومن أمثلة ذلك ما جاء قي حديث أنس الذي ذكر فيه مجيء الأعرابي إلى المسجد يوم الجمعة؛ حيث كان رسول الله ﷺ يخطب، وهذا الرجل ذكر للنبي ﷺ ما عرض له من ضنك وجدب للأرض، وللهلاك، وهلاك للماشية، وطلب من النبي ﷺ أن يدعو الله -سبحانه؛ لينقذهم مما هم، فيه فاستجاب له ﷺ، وهو الذي وصفه ربه بقوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]. فدعا ﷺ له ربه، واستجاب -سبحانه- دعاء نبيه، ورحم عباده، ونشر رحمته، وأحيا بلدهم الميت.

ومن ذلك أيضًا مجيء الأعرابي السابق نفسه أو غيره إلى النبي ﷺ وهو يخطب الجمعة التالية، وشكواه له انقطاع الطرقات، وتهدم البنيان، وهلاك المواشي، وطلب منه أن يدعو لهم ربه؛ ليُمسك عنهم الأمطار، وفعل ﷺ فاستجاب له ربه جل شأنه أيضًا.

ومن ذلك ما روته أم المؤمنين عائشة > حيث قالت: ((شكا الناس إلى رسول ﷺ قحوط المطر، فأمر بمنبر فوُضع له قي المصلى، ووعد الناس يومًا يخرجون فيه، قالت: فخرج رسول الله ﷺ حين بدأ حاجب الشمس فقعد على المنبر فكبر وحمد الله، ثم قال: إنكم شكوتم جدب دياركم واستأخار المطر عنكم -يعني: تأخر المطر عنكم- وقد أمركم الله أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيب لكم...)) إلى آخر الحديث.

فقد جاء فيه أنه ﷺ دعا الله سبحانه وتعالى وصلى بالناس فأغاثهم الله تعالى حتى سالت السيول، وانتلقوا إلى بيوتهم مسرعين، فضحك الرسول ﷺ حتى بدت نواجذه وقال:))أشهد على أن الله على كل شيء قدير، وأني عبد الله ورسوله)).

فهذه الأحاديث وأمثالها مما وقع زمن الرسول ﷺ وزمن أصحابه الكرام } تبين بما لا يقبل الجدال أو المماراة أن التوسل بالنبي ﷺ أو بالصالحين الذين كان عليه السلف الصالح هو مجيء المُتَوسِّل إلى المُتوسَّل به وعرضه حاله له، وطلبه منه أن يدعو له الله -سبحانه- ليحقق طلبه، فيستجيب هذا له، ويستجيب من ثمَّ الله سبحانه وتعالى.

وهذا هو ما بيناه من معنى الوسيلة، والمعهود في حياة الناس وفي استعمالهم، فإنه إذا كان للإنسان حاجة ما عند مدير أو رئيس أو موظف مثلًا؛ فإنه يبحث عمن يعرفه ثم يذهب إليه ويكلمه، ويعرض له حاجاته فيفعل، وينقل هذا الوسيط رغبته إلى الشخص المسئول فيقضيها له غالبًا، فهذا هو التوسل المعروف عند العرب منذ القديم، وما يزال، فإذا قال أحدهم: إني توسلت إلى فلان فإنما يعني: أنه ذهب إلى الثاني وكلمه في حاجته ليحدث بها الأول، ويطلب منه قضاءها، ولا يفهم أحد من ذلك أنه ذهب إلى الأول وقال له: بحق فلان الوسيط عندك ومنزلته لديك اقضِ لي حاجتي، وهكذا.

فالتوسل إلى الله ﷻ بالرجل الصالح أو بالولي أو النبي ليس معناه التوسل بذاته وبجاهه وبحقه، بل هو التوسل بدعائه وتضرعه واستغاثته به -سبحانه، وهذا هو بالتالي معنى قول عمر > : "اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقنا" أي: كنا إذا قلَّ المطر مثلًا نذهب إلى النبي ﷺ ونطلب منه أن يدعو لنا الله جل شأنه، ويؤكد هذا ويوضحه تمامًا قول عمر > : "وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا" أي: أننا بعد وفاة نبينا جئنا بالعباس عم نبينا ﷺ وطلبنا منه أن يدعو لنا ربنا -سبحانه- ليغيثنا؛ تُرى لماذا عدل عمر > عن التوسل بالنبي ﷺ إلى التوسل بالعباس > ، مع العلم أن العباس مهما كان شأنه ومقامه فإنه لا يُذكر أمام شأن النبي ﷺ؟

أما الجواب برأينا فهو: لأن التوسل بالنبي ﷺ غير ممكن بعد وفاته؛ فأنى لهم أن يذهبوا إليه ﷺ ويشرحوا له حالهم، ويطلبوا منهم أن يدعو لهم، ويؤمنوا على دعائه، وهو قد انتقل إلى الرفيق الأعلى ﷺ، وأضحى في حال يختلف عن حال الدنيا وظروفها مما لا يعلمه إلا الله -تبارك وتعالى، فأنى لهم أن يحظوا بدعائه ﷺ وشفاعته فيهم، وبينهم وبينه كما قال الله -عز شأنه: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

ولذلك لجأ عمر > وهو العربي الأصيل الذي صحب النبي ﷺ ولازمه في أكثر أحواله، وعرفه حق المعرفة، وفهم دينه حق الفهم، ووافقه القرآن في مواضع عدة، لجأ إلى توسل ممكن فاختار العباس > لقرابته من النبي ﷺ من ناحية، ولصلاحه ودينه وتقواه من ناحية أُخرى، وطلب منه أن يدعو ليهم بالغيث والسقي، وما كان لعمر ولا لغير عمر أن يدع التوسل بالنبي ﷺ ويلجأ إلى التوسل بالعباس وغيره لو كان التوسل بالنبي ﷺ ممكنًا.

وما كان من المعقول أن يقر الصحابة { عمر على ذلك أبدًا ؛ لأن الانصراف عن التوسل بالنبي ﷺ إلى التوسل بغيره ما هو إلا كالانصراف عن الاقتداء بالنبي ﷺ في الصلاة إلى الاقتداء بغيره سواء بسواء ؛ ذلك أن الصحابة { كانوا يعرفون قدر نبيهم ﷺ ومكانته وفضله معرفة لا يدانيهم فيها أحد، كما نرى ذلك واضحًا في الحديث الذي رواه سهل بن سعد الساعدي < : ((أن رسول الله ﷺ ذهب إلى بني عمر بن عوف ليصلح بينهم فحانت الصلاة، فجاء المؤذن إلى أبي بكر فقال : أتصلي بالناس فأقيم؟ قال : فصلى أبو بكر، فجاء رسول الله ﷺ والناس في الصلاة، فتخلص حتى وقف في الصف فصفق الناس، وكان أبو بكر لا يلتفت في الصلاة، فلما أكثر الناس التصفيق التفت فرأى رسول الله ﷺ، فأشار إليه رسول الله ﷺ أن امكث مكانك، فرفع أبو بكر يديه فحمد الله ﷻ على ما أمره به رسول الله ﷺ من ذلك، ثم استأخر أبو بكر حتى استوى في الصف، وتقدم النبي ﷺ فصلى ثم انصرف، فقال : يا أبا بكر ما منعك أن تثبت إذ أمرتك؟ قال أبو بكر : ما كان لابن أبي قحافه أن يصلي بين يدي رسول الله ﷺ)).

فأنت ترى أن الصحابة { لم يستيغوا الاستمرار على الاقتداء بأبي بكر < في صلاته عندما حضر الرسول ﷺ، كما أن أبا بكر < لم تطاوعه نفسه على الثبات في مكانه مع أمر النبي ﷺ له بذلك، لماذا؟

كل ذلك لتعظيمهم نبيهم ﷺ وتأدبهم معه، ومعرفتهم حقه وفضله، فإذا كان الصحابة { لم يرتضوا الاقتداء بغير النبي ﷺ عندما أمكن ذلك، مع أنهم كانوا بدءوا الصلاة في حال غيابه ﷺ عنهم، فكيف يتركون التوسل به ﷺ أيضًا بعد وفاته لو كان ذلك ممكنًا، ويلجئون إلى التوسل بغيره، وكما لم يقبل أبو بكر

أن يؤمَّ المسلمين؛ فمن البديهي أن لا يقبل العباس أيضًا أن يتوسل الناس به، ويدعوا التوسل بالنبي ﷺ لو كان ذلك ممكنًا.

ومن الحق أن أقول: إن جريان عمل الصحابة على ترك التوسل بذاته ﷺ عند نزول الشدائد بهم بعد أن كانوا لا يتوسلون بغيره ﷺ في حياته؛ لهو من أكبر الأدلة الواضحة على أن التوسل بذاته ﷺ غير مشروع، وإلا لنقل ذلك عنهم من طرق كثيرة في حوادث متعددة؛ ألا ترى إلى هؤلاء المخالفين كيف يلهجون إلى التوسل بذاته ﷺ لأدنى مناسبة لظنهم أنه مشروع، فلو كان الأمر كذلك؛ لنقل مثله عن الصحابة؛ مع العلم أنهم أشد تعظيمًا ومحبة له ﷺ من هؤلاء، فكيف ولم ينقل عنهم ذلك ولو مرة واحدة؟ بل صح عنهم الرغبة عنه إلى التوسل بدعاء الصالحين.

ولعلى بهذا قد استفضت في الرد على الشبهة الأولى.

الشبهة الثانية: حديث الضرير

والشبهة الثانية هي شبهة حديث الضرير؛ وحديث الضرير هذا ليس فيه حجة للمخالفين، بل هو عليهم، وسأسوقه الآن لأبين أنه ليس للمخالفين لنا والقائلين بالتوسل بذوات الأنبياء والصالحين وجاههم حجة بحال من الأحوال؛ أخرج الإمام أحمد وغيره عن عثمان بن حنيف > ((أن رجلًا ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يعافيني، قال: إن شئت دعوت لك، وإن شئت أخَّرت ذاك فهو خير)) وفي رواية: ((وإن شئت صبرت فهو خير لك، فقال: ادعُ، فأمره رسول الله ﷺ أن يتوضأ فيحسن وضوءه، ثم يصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: اللهم أني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد

إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى لي، اللهم فشفعه فيَّ وشفِّعني فيه، قال: ففعل الرجل فبرأ)).

هذا الحديث يرى المخالفون لنا أنه يدل على جواز التوسل في الدعاء بجاه النبي ﷺ، أو بجاه غيره من الصالحين؛ إذ فيه أن النبي ﷺ علَّم الأعمى أن يتوسل به في دعائه، وقد فعل الأعمى ذلك فعاد بصيرًا.

وأما نحن فنرى أن هذا الحديث لا حجة لهم فيه على التوسل المختلف فيه، وهو التوسل بالذات، بل هو دليل على نوع من أنواع التوسل المشروع الذي ذكرته؛ لأن توسل الأعمى إنما كان بدعائه ﷺ، والتوسل بالدعاء مشروع. والأدلة على ما نقول من الحديث نفسه كثيرة، وأهمها: أن الأعمى إنما جاء إلى النبي ﷺ ليدعو الله له، وذلك جاء صريحًا في قول هذا الرجل الأعمى: ((ادعُ الله أن يعافيني))، فهو قد توسل إلى الله تعالى بدعائه ﷺ؛ لأنه يعلم أن دعاءه ﷺ أرجى بالقبول عند الله بخلاف دعاء غيره، ولو كان قصد الأعمى التوسل بذات النبي ﷺ أو جاهه أو حقه؛ لما كان ثمَّة حاجة به إلى أن يأتي النبي ﷺ ويطلب منه الدعاء، بل كان يقعد في بيته ويدعو ربه بأن يقول مثلًا: اللهم إني أسألك بجاه نبيك ومنزلته عندك أن تشفيني، وتجعلني بصيرًا، ولكنه لم يفعل لماذا؟ لأنه عربي يفهم معنى التوسل في لغة العرب حق الفهم، ويعرف أنه ليست كلمة يقولها صاحب الحاجة، بل لا بد أن يشتمل على المجيء إلى من يعتقد فيه الصلاح والعلم بالكتاب والسنة، وأن يطلب منه الدعاء له.

أيضًا من الأدلة التي نفهمها من هذا الحديث على عدم التوسل بالذات والجاه أن النبي ﷺ وعده بالدعاء مع نصحه له ببيان ما هو الأفضل له، وهو قوله ﷺ: ((إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت فهو خير لك))، وهذا الأمر الثاني هو ما

أشار إليه ﷺ في الحديث الذي رواه عن ربه -تبارك وتعالى- أنه قال: ((إذ ابتليت عبدي بحبيبتيه -أي عينيه- فصبر عوضته منهما الجنة)).

ومما يدل أيضًا أنه لا حجة في هذا الحديث لمن ذهب فيه إلى أن التوسل كان بالذات، أو الجاه إصرار العمى على الدعاء، وهو قوله: ((فادعُ))، فهذا يقتضي أن الرسول ﷺ دعا له؛ لأنه ﷺ خير من وفَّى بما وعد، وقد وعده بالدعاء له إن شاء كما سبق في نص الحديث، والأعمى قد شاء الدعاء وأصر عليه، فإذن لا بد أنه ﷺ دعا له فثبت المراد. وقد وجه النبي ﷺ الأعمى بدافع من رحمته، وبحرص منه على أن يستجيب الله تعالى دعاءه فيه، وجهه إلى نوع من أنواع التوسل المشروع، وقد ذكرته آنفًا وهو التوسل بالعمل الصالح ليجمع له الخير من أطرافه، فأمره أن يتوضأ ويصلي ركعتين، ثم يدعو لنفسه، وهذه الأعمال طاعة لله تعالى يقدمها هذا الرجل بين يدي دعاء النبي ﷺ، وهو تدخل في قول تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥].

وهكذا، فلم يكتفِ الرسول ﷺ بدعائه للأعمى الذي وعده به، بل شغله بأعمال فيها طاعة لله تعالى وقربة إليه؛ ليكون الأمر مكتملًا من جميع نواحيه، وليكون أيضًا أقرب إلى القبول والرضى إلى الله تعالى.

وعلى هذا فالحادثة كلها تدور حول الدعاء كما هو ظاهر، وليس فيها ذكر شيء مما يزعمه المخالفون من التوسل بالذات أو الجاه، وقد غفل عن هذا بعض الناس وذهب إلى أن التوسل كان بالجاه، وهذا كلام لا يصح أبدًا، ويؤيد ذلك أن في الدعاء الذي علمه رسول الله ﷺ لهذا الرجل أن يقول: ((اللهم فشفِّعه فيَّ))، وهذا يستحيل حمله على التوسل بذاته ﷺ أو جاهه أو حقه؛ إذ أن المعنى: اللهم اقبل شفاعته ﷺ فيَّ؛ أي: اقبل دعاءه في أن ترد علي بصري، والشفاعة

لغة الدعاء، وهو المراد بالشفاعة الثابتة له ﷺ ولغيره من الأنبياء والصالحين يوم القيامة، وهذا يُبين أن الشفاعة أخص من الدعاء؛ إذ لا تكون إلا إذا كان هناك اثنان يطلبان أمرًا، فيكون احدهم شفيعًا للأخر بخلاف الطالب الواحد الذي لم يشفع غيره، قال في (لسان العرب): "الشفاعة كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره، والشافع الطالب لغيره يتشفَّع به إلى المطلوب يقال: تشفعت بفلان إلى فلان فشفعني فيه، فثبت بهذا الوجه أيضًا أن توسل الأعمى إنما كان بدعائه ﷺ لا بذاته ولا بجاهه".

ونقول أيضًا في الرد عليهم: إن مما علم النبي ﷺ الأعمى أن يقوله: ((وشفعني فيه)) أي: اقبل شفاعتي أي: دعائي في أن تقبل شفاعته ﷺ أي: دعاءه في أن ترد علي بصري، هذا الذي لا يمكن أن يُفهم من هذه الجملة سواه، ولهذا ترى المخالفين لنا يتجاهلونها، ولا يتعرضون لها من قريب أو من بعيد؛ لأنها تنسف بنيانهم من القواعد، وتجتثه من الجذور، وإذا سمعوها رأيتهم ينظرون إليك نظر المغشي عليه؛ ذلك أن شفاعة الرسول ﷺ في الأعمى مفهومة، ولكن شفاعة الأعمى في الرسول ﷺ كيف تكون؟ لا جواب لذلك عندهم البتة، ومما يدل على شعورهم بأن هذه الجملة تُبطل تأويلاتهم أنك لا ترى واحدًا منهم يستعملها فيقول في دعائه مثلًا: اللهم شفع فيَّ نبيك وشفعني فيه.

ثم إن هذا الحديث قد ذكره العلماء في معجزات النبي ﷺ ودعائه المستجاب، وما أظهره الله ببركة دعائه من الخوارق والإبراء من العاهات؛ فإنه ﷺ بدعائه لهذا الأعمى أعاد الله عليه بصره، ولذلك رواه المصنفون في (دلائل النبوة) كالبيهقي وغيره، وهذا يدل على أن السر في شفاء الأعمى إنما هو دعاء النبي ﷺ كما أننا نقول أيضًا: لو كان السر في شفاء الأعمى أنه توسل بجاه النبي ﷺ،

وقدره، وحقه كما يفهم عامة المتأخرين؛ لكان من المفروض أن يحصل هذا الشفاء لغيره من العميان الذين يتوسلون بجاهه ﷺ، بل ويضمون إليه أحيانًا جاه جميع الأنبياء والمرسلين، وكل الأولياء والشهداء والصالحين، ويضمون أيضًا إلى ذلك جاه كل من له جاه عند الله من الملائكة، والإنس، والجن أجمعين.

ولم نعلم ولا نظن أحدًا قد علم حصول مثل هذا خلال هذه القرون الكثيرة بعد وفاته ﷺ إلى اليوم.

إذا تبين هذا لطالب العلم والباحث للحقيقة، وإذا وضح هذا بعد ما ذكرت من الوجوه الدالة على أن حديث الأعمى إنما يدور حول التوسل بدعائه ﷺ، وأنه لا علاقة له بالتوسل بالذات؛ فحينئذٍ يتبين أن قول الأعمى في دعائه: ((اللهم إني أسألك وأتوسل إليك بنبيك محمد ﷺ)) إنما المراد به أتوسل إليك بدعاء نبيك؛ أي: على حذف المضاف، وهذا أمر معروف في اللغة كقوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴾ [يوسف: ٨٢] أي: اسأل أهل القرية وأصحاب العير، ونحن ومخالفونا متفقون على ذلك؛ أي: على تقدير مضاف محذوف، وهو مثل ما رأينا في دعاء عمر وتوسله بالعباس ﴿ ، فإما أن يكون التقدير: إني أتوجه إليك بجاه نبيك، ويا محمد إني توجهت بذاتك أو مكانتك إلى ربي كما يزعمون، وإما أن يكون التقدير: إني أتوجه إليك بدعاء نبيك، ويا محمد إني توجهت بدعائك إلى ربي كما نقول نحن ذلك ونذهب إليه، ولا بد من ترجيح أحد التقديرين من دليل يدل عليه.

فأما تقديرهم بجاهه فليس لهم عليه دليل، لا من هذا الحديث ولا من غيره؛ إذ ليس في سياق الكلام ولا في سياقه تصريح، أو أشارة بذكر الجاه، أو ما يدل عليه إطلاقًا، كما أنه ليس عندهم شيء من القرآن أو من السنة، أو من فعل الصحابة

يدل على التوسل بالجاه فبقي تقديرهم من غير مُرجح، فسقط من الاعتبار، والحمد لله.

أما تقديرنا فيقوم عليه أدلة كثيرة تقدمت في الوجوه التي ذكرتها آنفًا، وثمة أمر آخر جدير بالذكر، وهو أنه لو حُمل حديث الضرير على ظاهره وهو التوسل بالذات؛ لكان معطلًا لقوله ﷺ فيما بعد ((اللهم شفعه في وشفعني فيه)) وهذا لا يجوز كما لا يخفى؛ فوجب التوفيق بين هذه الجملة والتي قبلها، وليس ذلك إلا على ما حملناه من أن التوسل كان بالدعاء، فثبت المراد وبطل الاستدلال به على التوسل بالذات.

على أنني أقول: لو صحَّ أن الأعمى إنما توسل بذاته ﷺ فيكون حكمًا خاصًّا به ﷺ لا يشاركه فيه غيره من الأنبياء والصالحين، وإلحاقهم به مما لا يقبله النظر الصحيح؛ لأنه ﷺ سيدهم وأفضلهم جميعًا؛ فيمكن أن يكون هذا خاصًّا به ﷺ، وقد خصه الله ﷻ بكثير من الخير والفضل، كما صح بذلك الخبر عنه ﷺ.

وباب الخصوصيات لا تدخل فيها القياسات؛ فمن رأى أن توسل الأعمى كان بذاته لله؛ فعليه أن يقف عنده ولا يزيد عليه كما نقل عن الإمام أحمد، والشيخ العز بن عبد السلام -رحمهما الله تعالى، هذا هو الذي يقتضيه البحث العلمي مع الإنصاف، وبالتالي يظهر لنا بوضوح أنه لا حجة لهم في هذا الحديث الذي استدلوا به؛ وهو حديث الضرير على التوسل بذات أو بجاه النبي ﷺ، ومن ثمَّ جواز التوسل بذات وجاه الأنبياء والصالحين.

وقد ظهر واضحًا جليًّا أن التوسل هنا كان بدعاء النبي ﷺ، وقد أوضحت ذلك فيما مضى بما لا مزيد عليه، والحمد لله رب العالمين.

الاستدلال ببعض الأحاديث الضعيفة في التوسل

إن هؤلاء يحتجون على توسلهم المبتدع بأحاديث كثيرة، إذا تأملنا هذه الأحاديث نجدها تندرج تحت نوعين اثنين:

الأول: ثابت النسبة إلى رسول الله ﷺ ولكنه لا يدل على مرادهم، ولا يؤيد رأيهم كحديث الضرير، وقد تقدَّم الكلام على هذا النوع.

أما النوع الثاني: وهو المقصود هنا: فهو الأحاديث التي لم تثبت إلى رسول الله ﷺ، وبعض هذه الأحاديث يدل على مرادهم، وبعضهم لا يدل على مرادهم، وهذه الأحاديث التي لا تصح كثيرة، ولذلك سأكتفي هنا بذكر ما اشتهر منها، فأبدأ بالحديث الأول في ذلك وهو الحديث الذي ورد عن أبي سعيد الخدري > مرفوعًا، وفيه: من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك، وأسألك بحق ممشاي هذا، فإني لم أخرج أشرًا ولا بطرًا.. إلى أن قال: أقبل الله عليه بوجهه.

هذا الحديث رواه الإمام أحمد في (مسنده) واللفظ له كما رواه ابن ماجه، وقد خرجه شيخنا الألباني -رحمه الله تبارك وتعالى- في (سلسلة الأحاديث الضعيفة)، وإسناد هذا الحديث ضعيف؛ لأنه من رواية عطية العوفي عن أبي سعيد الخدري، وعطية ضعيف كما قال الإمام النووي في (الأذكار)، والإمام ابن تيمية في (القاعدة الجليلة)، والذهبي كذلك -رحمه الله تبارك وتعالى- في (الميزان)، فقال الذهبي في كتابه (الضعفاء) عن عطية هذا: "مجمع على ضعفه". وقال الحافظ الهيثمي -رحمه الله- في غير موضع من كتابه (مجمع الزوائد): "وقد أورده أبو بكر بن المحب البعلبكي في (الضعفاء والمتروكين)"، وقال عنه الحافظ

ابن حجر: "صدوق يخطئ كثيرًا، كان شيعيًّا مدلسًا"، وقد أبان ابن حجر -رحمه الله- عن سبب ضعفه فقال: "الأول ضعيف؛ لأن حفظه ضعيف"، ونصَّ على هذا بقوله فيه: يخطئ كثيرًا، أما السبب الثاني الذي ضُعِّف فيه هذا الرجل، وهو عطية العوفي تدليسه؛ فقد كان مدلسًا -رحمه الله تبارك وتعالى.

أذكر أيضًا حديث آخر احتج به هؤلاء على جواز التوسل بالذات والجاه، وهذا الحديث هو الحديث الذي جاء عن بلال > وفيه قال: ((كان رسول الله ﷺ إذا خرج إلى الصلاة قال: بسم الله آمنت بالله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم بحق السائلين عليك، وبحق مخرجي هذا؛ فإني لم أخرج أشرًا، ولا بطرًا...)) إلى آخر الحديث.

وهذا الحديث أخرجه ابن السني في (عمل اليوم والليلة) من طريق الوازع بن نافع العقيلي عن أبي سلمه بن عبد الرحمن، عن جابر بن عبد الله > ، وهذا الحديث سنده ضعيفٌ جدًّا وآفته الوازع بن نافع العقيلي؛ فإنه لم يكن عنده وازع يمنعه من الكذب، وقد بيّن ذلك الإمام الألباني -رحمه الله- في (سلسلة الأحاديث الضعيفة) ولذلك لما قال النووي في (الأذكار): "حديث ضعيف أحد رواته الوازع بن نافع العقيلي، وهو متفق على ضعفه، وأنه منكر الحديث" قال الحافظ بعد تخريجه: "هذا حديث واهٍ جدًّا أخرجه الدارقطني في (الأفراد) من هذه الوجه، وقال: تفرد فيه الوازع، وهو متفق على ضعفه، وأنه منكر الحديث، والقول فيه أشد من ذلك؛ فقد قال فيه الإمام ابن معين -رحمه الله والنسائي: ليس بثقة، وقال أبو حاتم وجماعة: متروك الحديث، وقال الحاكم: يروي أحاديث موضوعة".

وعلى هذا فلا يجوز الاستشهاد بهذا الحديث ولا بغيره؛ لأن هناك أحاديث على مثل هذه الأحاديث التي ذكرتها، وهذه الأحاديث الضعيفة لا يمكن أن يُستدل

بها على التوسل بالمخلوقين أبدًا، وإنما يعود الأمر فيها إلى أنها أحاديث ضعيفة لا يُستدل بها على شيء في مسائل الاعتقاد أبدًا، لأن مسائل الاعتقاد لا تثبت إلا بالكتاب، وأعني بالكتاب القرآن الكريم وبصحيح سنة النبي ﷺ.

وأقول بعد هذا: ومع كون الحديثين الذي ذكرتهما ضعيفين فهما أيضًا لا يدلّان على التوسل بالمخلوقين أبدًا، وإنما يعودان إلى أحد أنواع التوسل المشروع الذي تقدَّم الكلام عنه وهو التوسل إلى الله تعالى بصفة من صفاته ﷻ؛ لأن فيهما التوسل بحق السائلين على الله، وبحق ممشى المصلين.

وهنا أتساءل ما هو حق السائلين على الله تعالى، لا شك أنه إجابة دعائهم، وإجابة الله دعاء عباده صفة من صفاته ﷻ، وكذلك حق ممشى المسلم إلى المسجد هو أن يغفر الله له، وأن يُدخله الجنة، ومغفرة الله تعالى ورحمته وإدخاله بعض خلقه ممن يُطيعه الجنة؛ كل ذلك صفات له -تبارك وتعالى.

وبهذا تعلم أن هذا الحديث وغيره من الأحاديث الذي يحتجُّ به هؤلاء الذين يبيحون التوسل الممنوع ينقلب الأمر عليهم، ويصبح بعد فهمه فهمًا جيدًا حُجة لنا عليهم، وهذا بحمد الله وتوفيقه، وبالتالي أقول على طالب العلم ألا يغترَّ بشيء من هذه الشبهات، وإذا عرضت عليه شبهة عليه أن يرجع إلى أهل العلم، وأن يرجع أيضًا إلى ما استقرَّ في شريعتنا من التوسل الصحيح بأسماء الله الحسنى، وصفات الله العلى، وبالإيمان بالله ﷻ وبالأعمال الصالحة، وبدعاء الصالحين الأحياء.

الاستشفاع والشفاعة

عناصر الدرس

العنصر الأول : بيان معنى الاستشفاع وحكمه في الدنيا ٢٦٩
العنصر الثاني : الشفاعة في الآخرة وأنواعها ٢٧٦

بيان معنى الاستشفاع وحكمه في الدنيا

لا بد ضرورة من الحديث عن هذا الموضوع ؛ لأن موضوع الاستشفاع والشفاعة مما اشتبه أمره على كثير من المسلمين حتى وقع من وقع منهم في أمور عظيمة من الباطل ، وذلك بسبب عدم الفهم الدقيق لمعنى الاستشفاع والتشفّع والشفاعة ، ولذلك نجد بعض الناس يدعو غير الله ، ويستغيث بغيره ﷻ ، ولا يحسب أو يظن أن هذا اعتداء على حق رب العالمين -سبحانه- ، وأنه باستغاثته بغير الله قد دعا أو توجه إلى غير ربه ومولاه ، بل إن الأنكى من ذلك والأشد أنه لا يعدُّ ذلك خطأ في العبادة ، أو لونًا من ألوان الشرك ، وإذا قيل له في ذلك وأنكر عليه أحد من الناس ، أجاب قائلًا : هذا ليس بدعاء لغير الله ولا شرك في عبادته ، وإنما هو استشفاع وتشفُّع فقط.

أولًا : بيان معنى الاستشفاع وحكمه في الدنيا :

أ- معنى الاستشفاع :

ما معنى هذه الكلمة؟ وما المراد بها؟ الاستشفاع والتشفع والشفاعة ؛ هذه الكلمات الثلاث مدلولها واحد ومعناها لا يختلف ، وهو أن يطلب إنسان من آخر التوسط له عند ذي ملك أو سلطان ؛ ليقضي له حاجته في إعطائه ما هو في حاجة إليه ، أو في التجاوز عن ذنب اقترفه ، أو جريمة ارتكبها ؛ هذا هو معنى الاستشفاع ؛ أن يأتي إنسان ويبحث عن شخص آخر له صفة اعتبارية ، أو مكانه كبيرة في دنيا الناس ، أو صاحب جاه ، أو غير ذلك ؛ ويطلب منه أن ييسر له شيئًا من حاجاته ، أو أن يضع عنه أمرًا كان يمكن أن يقع به بسبب ذنب اقترفه ؛ هذا هو معنى الاستشفاع والتشفع والشفاعة.

وهذه الكلمات الثلاث مشتقة من لفظ الشفع الذي هو خلاف الوتر، ومعنى الوتر الفرد، وتوضيح ذلك أن صاحب الحاجة كان واحدًا فضمَّ إليه الواسطة فأصبح شفعًا أو زوجًا، وهو من استشفع به وطلب شفاعته، فكان معه شفعًا؛ أي: اثنين بعد أن كان فردًا، ومن هذا المعنى أُخذت كلمات الاستشفاع والتشفع والشفاعة.

ب- حكم الاستشفاع في الدنيا:

ما حكم هذا الاستشفاع في الدنيا؟ يعني: أن يطلب إنسان من آخر أن يتوسط له في مسألة ما لتقضى حاجته؛ الحكم في ذلك أنه لا بأس باستشفاع أحد بآخر عند ذي منصب أو مال أو سلطان ليشفع له عنده برفع حاجته إليه؛ حيث عجز هو عن رفعها إليه لخموله، أو قصوره، أو لأنه لا يؤبه به في دنيا الناس، فليست لديه حظوة أو مكانة؛ فيذهب هذا الإنسان إلى آخر له من المكانة والحظوة والرفعة في دنيا الناس ما يمكنه أن يقضي حاجته هذا الرجل الذي ذهب إليه، هذا جائز ومباح.

والدليل على ذلك ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا ﴾ [النساء: ٨٥].

وأودُّ أن أؤكد هنا أن هذه الشفاعة أو هذا الاستشفاع إن وقع وهو الأمر المباح يكون في أمر من أمور الدنيا، وإذا شفع الشافع أُجر على شفاعته ولو لم تقضَ حاجة من شفع له؛ يعني: لو أن إنسانًا شفع في آخر ولم يصل إلى ما يريد أو إلى مبتغاة، فيؤجر هذا الشافع على هذه الشفاعة؛ وذلك لقول النبي ﷺ في حديث أبي موسى > : ((اشفعوا تُؤجرُوا)) ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء.

وجواز الاستشفاع الذي قلت عنه الآن مشروط بأن يكون في حق ضاع، أو حق يُخشى ضياعه، أو في شيء مباح ينتفع به، والاستشفاع الجائز في الدنيا إنما هو لمصلحة العباد في أمر يحتاجون إليه، وهو مباح، أو حق لهم ثم لا يتمكن الواحد منهم أن يحصل عليه، ولكن إذا وقع الاستشفاع في غير ذلك كأن يكون في إثم ومعصية، وذلك مثلًا عندما يكون في إسقاط حق من الحقوق، أو في تعطيل حدٍّ من الحدود؛ فلا يجوز هذا الاستشفاع بحال من الأحوال، بل إن من فعل ذلك يكون آثمًا؛ لأنه في هذه الحالة يكون من المتعاونين على الإثم والعدوان، ورب العالمين ﷻ قد نهى عن ذلك في كتابه، وذلك عندما أمرنا بالتعاون على البر والتقوى، ونهانا عن التعاون على الإثم والعدوان، فقال -جلّ في علاه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

ولقول الرسول ﷺ ((إذا بلغ الحد السلطان، فلعن الله الشافع والمُشفَّع)).

وهذا أمر يجب أن ينتبه إليه الشافع فلا يشفع في معصية أو إثم، أو في إسقاط حد من حدود رب العالمين ﷻ جل في علاه، ومن هنا غضب النبي ﷺ على أسامة بن زيد عندما جاء ليشفع في المرأة المخزومية حتى لا تُقطع يدها، ولما فعل ذلك غضب النبي ﷺ، وأعلن هذا القرار الذي سُطر في السنة النبوية، وعلينا أن نرفعه للعالم أجمع، وأن نُعلِمهم حقيقة هذا الدين وعدل هذا الإسلام، جاء أسامة ليشفع في حد من حدود الله أجابه ﷺ بقوله: ((أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة، والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)).

وبعد هذا البيان أودُّ أن أوضح ما وقع فيه البعض من المسلمين؛ وذلك عندما قاسوا قياسًا خاطئًا فوقعوا في أمر عظيم، عندما جهل الواحد منهم ربه -

سبحانه- فلم يعرفه، ونتج عن ذلك أن قاس الله ﷻ على بعض خلقه، وهذا قياس خاطئ لا يصح، قاسوا الله ﷻ على الضعفاء المخلوقين، فاستشفعوا عنده بالأولياء والصالحين من أموات المسلمين، وطلبوا منه الشفاعة لديه، ولذلك لا نستغرب أن نسمع من أحد المسلمين أن يقول: يا سيدي فلانًا اشفع لي عند ربي في قضاء كذا وكذا، ويا مولاي فلانا توسَّلت بك إلى ربي فادعُ الله أن يفعل بي كذا وكذا، ولما يأتِ إنسان وينكر عليهم ذلك يقولون: إن الذي لا يستطيع أن يدخل على السلطان يطلب له واسطة.

وهؤلاء في الحقيقة جمعوا بهذا التصور بين أمرين عظيمين كبيرين من المنكرات الآثمة الباطلة في ذلك، الأمر الأول: هو دعاء غير الله تعالى وهو شرك أكبر، أما الأمر الثاني: هو قياس الخالق على المخلوق، وتشبيهه به؛ حيث طلبوا له واسطة كما تُطلب للمخلوق من ذوي السلطان، وغاب عن هؤلاء أو جهلوا أن المخلوق لضعفه يخفى عليه أمر الإنسان، فالناس أو الإنسان لا يعرف الناس وما عندهم بصورة عامة، وإن عرف عن البعض شيئًا غابت عنه أشياء؛ ولذلك هذا المخلوق لخفاء أمر الناس عليه يحتاج إلى من يُعلمه بأمرهم وحالهم، وينبههم إلى ما يحتجون إليه، بخلاف الرب الكريم -تبارك وتعالى- فإنه عليم بأحوال عباده، لا يخفى عليه من أمرهم شيء، فما هو في حاجة إلى من يُعلمه بأحوال عباده، أو ينبهه إليها.

وإذا كان المخلوق قد يعجز عن رفع حاجته إلى من يقضيها له من سلطان وغيره، فيضطر إلى البحث عن واسطة يشفع له؛ لرفع حاجته إلى من يقضيها، فإن الأمر بالنسبة لرب العالمين للكبير المتعال جل في علاه، يختلف تمام الاختلاف؛ إذ العبد مع الله تعالى يمكنه أن يرفع إليه حاجته مباشرة وبدون واسطة لعلمه ﷻ الواسع المحيط الذي لا يعزب عن علمه شيء؛ يعلم أحوال عباده، وهو ﷻ قريب منهم، ومطلع على حركاتهم وسكناتهم، وما توسوس به في أنفسهم بخلاف

المخلوقين؛ فإنهم لجهلهم بأحوال الناس وعجزهم عن كفايتهم يحتاج طالب الحاجة منهم إلى واسطة ترفع حاجته إليهم؛ ليعلموها وتُؤثر عليهم ليقضوها، وهذا المعنى بلا شك منتفٍ مع الله -تبارك وتعالى.

ومن هنا قبح بالعبد جدًّا أن يستشفع على ربه بأحد من خلقه، وحسن به أن يسأل ربه مباشرة وبغير واسطة، ولِما لا يسأل ربه ومولاه وربه -سبحانه- هو الحي الكبير السميع العليم القريب من عباده وخلقه، وفي ذلك يقول -سبحانه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال -تبارك وتعالى- في كتابه: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].

فهنا يأمر رب العباد ﷻ عباده أن يتوجهوا إليه وحده بالدعاء فحسب، وقد ذكر في الآية الأولى أنه قريب إلى من دعاه، وأنه يجيب دعوته، وذلك كما جاء في قوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾.

وقد ذكر بعض أهل العلم كلامًا جميلًا حول هذه الآية قال فيه: "إن الناظر في كتاب الله ﷻ يجد أن أي سؤال وجه إلى النبي ﷺ في القرآن الكريم، أي سؤال ورد إليه يفتتحه الله في كتابه بقوله مخاطبًا النبي ﷺ "قل"، وأضرب أمثلة لذلك، فمثلًا قال الله -تبارك وتعالى: ﴿ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى ﴾ [البقرة: ٢٢٠] فنجد أن الله ﷻ هنا افتتح الجواب بقوله: ﴿ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

مثلًا ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٩]. ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ [الأنفال: ١] ﷺ".

والشاهد من ذلك أن كل سؤال ورد في القرآن الكريم للنبي ﷺ افتتح الله جوابه بقوله له: "قل".

أما لما كان السؤال عن رب العالمين سبحانه وتعالى جل في علاه- فلم يأتِ الله هنا بكلمة "قل"، حتى لا يظن ظانّ أن النبي ﷺ وهو من هو؛ هو أشرف البشر ﷺ رفع الله ذكره، وله مكانة عالية عند ربه، ومع ذلك لما جاء السؤال عن الله لم يقل الله له: "قل"؛ حتى لا يظن إنسان ما بأن النبي ﷺ وهو واسطة في البلاغ أنه واسطة في العبادة، أو في الدعاء والطلب بين الخالق والمخلوق، ولذلك قال مباشرة: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ١٨٦]. ولم يقل: "فقل إني قريب" على نمط الآيات التي جاء فيها لفظ السؤال سابقًا، وقد أشرت إلى بعض هذه الآيات.

فإن قيل: كيف جاز لنا إذن أن يقول بعضنا لبعض: يا فلان ادع الله تعالى لي بكذا، أليس هذا هو عين ما نفيتموه من مسألة الاستشفاع بالأولياء؟ قلنا: إن هذا ليس من ذاك أبدًا، وذلك لأمرين:

أولهما: أن هذا قد أذن فيه الشارع إذ ثبت بما لا مجال للشك فيه أن أصحاب الرسول ﷺ كانوا يطلبون منه ﷺ أن يدعو الله تعالى لهم، كما ورد أن الرسول ﷺ قد طلب من عمر رضي الله عنه وهو ذاهب إلى العمرة أن يدعو الله تعالى له، وإن كان هذا الحديث قد أخرجه أبو داود والترمذي فيه ضعف، كما ذكر بعض أهل العلم، ولكن الآيات القرآنية تدل عليه، ومن هنا أصبح المسلمون لا يتردَّدون في أن يطلب أحدهم من أخيه أن يدعو الله تعالى له بخير، ولقد أرشدنا القرآن الكريم إلى ذلك فقال -جل في علاه: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾ [الحشر: ١٠].

بل إن نوحًا # وهو أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض ﷺ دعا ربه بدعوة شملت البر والفاجر جميعًا من أهل الإيمان؛ فقال كما ذكر الله عنه: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [نوح: ٢٨].

ثانيهما: يعني الأمر الثاني الذي نستدل به على جواز الاستشفاع بالدعاء، وليس بدعاء الأولياء أو الأنبياء والصالحين هو طلبنا الدعاء من عبد صالح حيٍّ يسمعنا ويرانا، هو أننا عندما نطلب الدعاء من إنسان ما فإنما نطلبه من شخص حي يتحرك يسمع طلبك، ويقدر على أن يدعو الله تعالى لك؛ فهو كطلبك منه أن يناولك شيئًا، أو يعطيك أمرًا، أو أن يقدم لك طعامًا أو شرابًا أو مالًا أو متاعًا أو يعينك على ما يشقّ فعله عليك، وهذا وبدون شك جائز؛ ولذلك نقول إذن: أي مانع من أن نقول للمؤمن صالح حي يصوم ويصلي، ويسمعنا ويرانا، ويقدر على أن يدعو الله لنا، أي مانع أن نقول له: ادعُ الله تعالى لنا يا فلان بكذا، أو اسأل الله تعالى لنا كذا وكذا؛ رجاء أن يستجيب الله تعالى له فينا فتقضى حوائجنا أو نحصل على خير من خيري الدنيا والآخرة.

وهذا بخلاف الاستشفاع بأموات المسلمين من أولياء وصالحين؛ إذ هم أموات، والميت غير مكلف بعبادة ولا دعاء، ولا يسمع من يناديه، ولا يعرف من يستشفع به، فنداؤه وطلب الدعاء منه والاستشفاع به ضلال عقلي، وخطأ فكري، وفساد ديني يبرأ منه الإسلام وأهله، وهذه أقل أحواله؛ وإلا فهو شرك في عبادة الله تعالى، وفاعله من المشركين بالله والعياذ بالله والله -تبارك وتعالى- أعلمنا وأخبرنا في كتابه أنه وحده هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه.

الشفاعة في الآخرة وأنواعها

أ- حكم الشفاعة في الآخرة:

سبق القول عن حكم الاستشفاع في الدنيا، ولكن الشفاعة في الآخرة تختلف اختلافًا كبيرًا عن الاستشفاع والشفاعة في الدنيا؛ وذلك لأن الأمر يومئذٍ لله وحده دون سواه، وليس لأحد غير الله تعالى من شيء كما قال ربنا في كتابه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩- ٢٢].

فليس إذن لأحد غير الله تعالى أمر يوم القيامة، وأنا أؤكد على ذلك؛ لأنه إذا جاز الاستشفاع في الدنيا بأمر مشروع بأحد من الخلق ممن يقدر أن يقوم لك بذلك، لأن الله ﷻ قد منّ عليه أو أعطاه؛ فأمر الآخرة يختلف غاية الاختلاف؛ لأنه إذا وُجد ملك اليوم في الدنيا، وهذا الملك وإن أطلق عليه ذلك، فملكه حتى في الدنيا جزئي أو ناقص، ولكن في الآخرة فالناس كلهم بين يدي الله سواء، هو الذي يسألهم ويحاسبهم، وهو الذي يتفضل عليهم، ولا يستطيع أحد أن يتقدم بين يديه إلا إذا أذن الله له.

أنواع الشفاعة، والمثبت منها والمنفي:

الشفاعة في الدار الآخرة تنقسم يوم القيامة إلى قسمين:

الأول: شفاعة منفية تمامًا لا حقيقة لها، ولا واقع، ولا وجود.

الثاني: شفاعة ثابتة واقعة لها حقيقة ووجود.

أما الشفاعة المنفية: فهي شفاعة الآلهة التي عُبدت من دون الله أو مع الله -تبارك وتعالى، فهذه شفاعة لا وجود لها البتة، فبعض الناس عبدوا غير الله، واتخذوا لهم آلهة دون رب العباد -جل في علاه، وظن هؤلاء أن الآلهة التي عبدوها من دون الله، أو مع الله تملك شيئًا من الشفاعة، وقد نفى رب العالمين -سبحانه- في آيات كثيرة ذلك، وهذا كقوله -سبحانه: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ ﴾ [الزمر: ٤٣، ٤٤].

فنفى الله ﷻ شفاعة هذه الآلهة، وأخبر في كتابه أن الشفاعة له وحده دون سواه، كما قال -تبارك وتعالى: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٤].

ومن الشفاعة المنفية أيضًا: الشفاعة في الكفار والمشركين، إذ لا شفاعة لكافر كما قال الله ﷻ: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ [المدثر: ٤٨]، وقال أيضًا: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: ١٢٣]، والمراد بالنفس هنا الواردة في قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا ﴾ المراد بها نفس الكافرين والمشركين، كما قال رب العالمين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال -تبارك وتعالى: ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨]، والمراد بالظالمين هنا المشركين؛ لأن كلمة الظلم إذا أُطلقت انصرفت إلى الشرك.

وأنا هنا أتحدث عن نفي الشفاعة في المشركين والكافرين، أودُّ أن أشير إلى ما سيقع من شفاعة لأبي طالب، وقد مات على الشرك قطعًا إلا أن له شفاعة بصورة استثنائية لا تقع لغيره، وذلك بدليل ما جاء في (صحيح مسلم) ((أن النبي ﷺ سُئل: هل نفعت عمك بشيء؛ فإنه كان يحوضك ويمنعك؟ قال: نعم، هو في ضحضاح من نار يبلغ قدميه يغلي منه دماغه، ولولا أنا؛ لكان في الدرك الأسفل من النار)). هذه الشفاعة تقع لمشركٍ واحد، ويلاحظ أنها لن تُخرجه من النار إلى الجنة؛ لأن الله ﷻ حرَّم الجنة على الكافرين والمشركين.

ومن الشفاعة المنفية أيضًا: الشفاعة بدون إذن الله تعالى أو بدون رضاه، فالشفاعة بدون إذنه ورضاه شفاعة منفية لا تحدث أيضًا أبدًا، وذلك لقوله - تبارك وتعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ولقوله - سبحانه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ولقوله أيضًا: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

هذه هي الشفاعة المنفية؛ وقد ذكرت صورها.

أما الشفاعة المثبتة الواقعة: والتي سأذكر أدلّتها إن شاء الله -تبارك وتعالى- فهي أيضًا تنقسم إلى قسمين:

الأول: شفاعات النبي ﷺ.

أما القسم الثاني: فشفاعات غيره من الأنبياء والملائكة، والأولياء، والشهداء، والصالحين من عباد الله.

فالقسم الأول: وهي شفاعات النبي ﷺ، فهو في الشفاعات الخاصة به التي لا يُشاركه فيها أحد ﷺ، وهناك شفاعات أخرى يشترك فيها معه الأنبياء،

والملائكة، والأولياء. وسأوضح ذلك إن شاء الله تعالى الآن، وأبدأ بشفاعاته الكثيرة ﷺ الشفاعات الخاصة به، وأبدأ بأعظم شفاعة والتي أطلق عليها الشفاعة العظمى: وهي الشفاعة في فصل القضاء، وهي المقام المحمود الذي ذُكر للنبي ﷺ في القرآن الكريم في قول الله -تبارك وتعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ [الإسراء: ٧٩].

وقد ذكر جمهور المفسرين أن المقام المحمود هو الشفاعة العظمى التي تكون للنبي ﷺ، وهي خاصة به، كما سيأتي ذكر ذلك في حديث الشفاعة، وهو في (الصحيحين) وغيرهما.

أيضًا مما هو خاص به ﷺ ما ذكرته آنفًا من شفاعته في عمه أبي طالب، فهو يشفع فيه شفاعة، ولكن لا تُخرجه هذه الشفاعة من النار إلى الجنة، ولكن الشفاعة تخفِّف عنه العذاب في يوم الدين.

أيضًا شفاعة النبي ﷺ في أناس من أمته، وقد جاء ذلك في الحديث، وقد ورد فيه ((أن الله ﷻ يقول للنبي ﷺ أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن)).

كذلك شفاعته ﷺ في أهل الأعراف الذين استوت حسناتهم بسيئاتهم، وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم ﴿ وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٦].

وهناك شفاعات أخرى يشارك فيها النبي ﷺ الأنبياء، والملائكة، والعلماء، والأولياء، وسائر أهل الإيمان ممن يُؤذن لهم في الشفاعة، وذلك كالشفاعة في أهل الكبائر، وقد ثبتت في الحديث عن النبي ﷺ ((لكل نبي دعوة مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يُشرك بالله شيئًا)).

وهذه الشفاعة أنكرتها الخوارج والمعتزلة، ولكنها ثابتة، وتكون للنبي ﷺ ولغيره كما ذكرت؛ فالملائكة لهم شفاعة كما قال الله ﷻ: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢٦].

وأما شفاعة الأنبياء والعلماء والشهداء فهي ثابتة بعموم القرآن وخصوص السنة، ففي القرآن الكريم قال الله تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴾ [المدثر: ٤٨]، وهي بمفهومها أثبتت وجود الشفعاء، وقال تعالى: ﴿ لَّا يَمۡلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحۡمَٰنِ عَهۡدٗا ﴾ [مريم: ٨٧]، وقال -جل في علاه: ﴿ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فهذه الآيات تدل على وجود شفعاء بمنطوقها وبمفهومها، وقد ورد في السنة ((يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء))، بل إن الأعمال الصالحة التي يفعلها العبد تشفع فيه يوم القيامة، فعن الصيام والقرآن مثلًا، قال ﷺ: ((الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة؛ يقول الصيام: أي يا رب منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن: أي يا رب منعته النوم بالليل فشفعني فيه، قال: فيشفعان))، وقال ﷺ كما في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم: ((اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه)).

أودُّ أن أذكر فوائد حول الشفاعة:

الفائدة الأولى: أن هذه الشفاعات الثابتة للأنبياء، والعلماء، والشهداء مقيدة بإذن الله تعالى وبرضاه عن المشفوع فيه، وذلك بارتضاء قوله وعمله، ولا تكون لمن مات على الشرك أو الكفر.

الفائدة الثانية: أن الذي يملك الشفاعة هو الله ﷻ وحده كما قال: ﴿ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا ﴾ [الزمر: ٤٤]، فمن أرادها فليسألها من ربه ومولاه، ومن أراد

شفاعة النبي ﷺ فليسألها من الله تعالى وليقل: اللهم شفع فيَّ نبيك ﷺ أو: اللهم ارزقني شفاعة نبيك ﷺ.

الفائدة الثالثة: الذي يطلب الشفاعة يؤدِّي من العمل ما يوجبها ويقتضي تحقيقها، ومن ذلك الإخلاص لله -تبارك وتعالى- في العبادة ونفي الشريك عنه تعالى للحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره ((من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله ﷺ؟ فقال: من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه، أو من نفسه)).

ومن الأسباب والأمور التي تتحقق بها الشفاعة وتقع إن شاء الله تعالى كثرة الصلاة؛ لما صحَّ عنه ﷺ أنه سأله أحد الصحابة مرافقته في الجنة فقال: ((فاعني على نفسك بكثرة السجود))، ومن ذلك أيضًا الصلاة على النبي ﷺ وسؤال الوسيلة له؛ وذلك للحديث ((إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة من الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلَّت له الشفاعة)).

وفي نهاية هذا البيان سأذكر هذا الحديث الصحيح في الشفاعة، وهو في البخاري ومسلم وغيرهما، وورد من روايات متعددة عن أبي هريرة وأنس وغيرهما، والجميع رواه عن النبي ﷺ وأكتفي هنا بذكر حديث أبي هريرة > وفيه يقول: ((أُتي الرسول ﷺ يومًا بلحم فرُفع إليه الذراع، وكانت تعجبه، فنهس منها نهسة فقال: أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون ممَّ ذلك، أو بم ذلك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين في صعيد واحد فيُسمعهم الداعي وينفذ فيهم البصر، وتدنو الشمس حتى يبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس: ائتوا آدم،

فيأتون آدم # فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك؛ ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوح # فيقولون: يا نوح أنت أول رسل الله إلى الأرض، وسماك الله عبدًا شكورًا، اشفع لنا عند ربك؛ ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة ودعوت بها على قومي، نفسي نفسي اذهبوا إلى إبراهيم ﷺ.

فيأتون إبراهيم فيقولون: أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلى ربك؛ ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم: إبراهيم إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وذكر كذباته، نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى.

فيأتون موسى # فيقولون: يا موسى أنت رسول الله فضلك الله تعالى برسالاته وبتكليمه على الناس، اشفع لنا إلى ربك؛ ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإني قتلت نفسًا لم أومر بقتلها، نفسي نفسي اذهبوا إلى عيسى.

فيأتون عيسى # فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمت الناس في المهد، وكلمة منه ألقاها إلى مريم، وروح منه، فاشفع لنا إلى ربك؛ ألا ترى ما نحن

فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم عيسى # : إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر له ذنبًا، نفسي نفسي اذهبوا إلى محمد ﷺ.

قال النبي ﷺ : فيأتونني، فيقولون : يا محمد أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدم لك من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك ؛ ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجدًا لربي، ثم يفتح الله تعالى علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه لأحد قبلي، ثم يقول : يا محمد ارفع رأسك، سل تعط، اشفع تُشفع، فيرفع رأسه ﷺ)).

ولا شك أنه عندئذٍ يشفع للناس جميعًا في هذا الموقف ؛ لأن هؤلاء القوم طلبوا منه ذلك، ثم يقول ﷺ أيضًا طالبًا الشفاعة لأمته : ((يا رب أمتي أمتي، فيقال : يا محمد أدخل الجنة من أمتك ما لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، والذي نفسي بيده أن ما بين المصرعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى)).

والأحاديث الواردة في الشفاعة كثيرة للغاية، أكتفي بما ذكرت.

التبرك والولاية

عناصر الدرس

العنـــــصر الأول : معنى التبرك وحكمه ٢٨٧

العنـــصر الثـــاني : معنى الولاية وما يتعلق بها ٢٩٢

معنـــى التــــبرك وحكمــــه

معنى التبرك:

إن التبرك كالتوسل والتشفع، وهو من المسائل أيضًا التي فهمها الناس فهمًا خاطئًا كما جهل بعض الناس حقيقتها، وقد أوقع هذا الجهل الكثير من المسلمين في أخطاء كبيرة أضرت بالمعتقد الإسلامي وأساء إلى الحياة الإسلامية أيما إساءة؛ فباسم التبرك وتحت شعاره عُبدت الأشجار والأحجار وانتهكت الحرمات وضيعت الفرائض وأسقطت الواجبات؛ كما أنه باسم التوسل والاستشفاع ذبح لغير الله تعالى واستغيث بغيره ﷻ.

وبالجملة فإنما وقع من الشرك في هذه الأمة أيام جهلها بكتاب ربها وسنة نبيها ﷺ وبُعدها عنهما إنما كان في الغالب عن طريق التوسل والتشفع والتبرك؛ ولهذا لاحظ واضع هذا المنهج أنه يجب أن تبحث هذه المسائل في عقيدة المؤمنين؛ ليكون المسلم على علم كامل وبينة تامة من التوسل والاستشفاع والتبرك.

التبرك: مصدر تبرك بالشيء يتبرك به تبرُّكًا إذا تيمن به، والتيمن بالشيء هو طلب اليمن، وهو البركة، والبركة هي النماء في الخير والزيادة فيه، ويطلق لفظ البركة على كل كثرة في الخير، واشتقاقها من بروك البعير وهو استناخته في موضع ولزومه فيه؛ فالخير الدائم الثابت في الشيء والنامي فيه هو البركة.

والبركة في عرف الشرع والدين: ما يجعله الله تعالى من الخير في الشيء الذي يباركه، والله -تبارك وتعالى- قد أخبر وأعلمنا في كتابه أنه بارك في أرض الشام، أي: جعلها مباركة؛ كما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧١] كما أخبر أنه بارك الأرض

أيضًا التي حول المسجد الأقصى، وقد جاء هذا في قوله: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ [الإسراء: ١]؛ كما أخبر ﷻ أنه جعل كتابه مباركًا فقال: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ الآية ٩٢٩ سورة ص، والمعنى كثير خيرهما دائم لهما ثابت فيهما واخبر عيسى # عند تكلمه في المهد أن الله تعالى جعله مباركا أينما كان فقال ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٣١، ٣٢].

ومن الأدعية المأثورة في البركة والنماء: ما جاء عن النبي ﷺ أنه كان يدعو فيقول: ((وبارك لي فيما أعطيتني)).

وعلى هذا؛ فطلب البركة والتماسها أمر مستحسن شرعا لأنه من طلب الخير والتماسه ومن ذا يرغب على طلب الخير أو يكون له غنًا عن بركة الله؛ ولكن بم يكون التبرك؟ وكيف يكون؟.

وللإجابة عن ذلك لا بد أن انتقل للنقطة التالية؛ وهيالمشروع والممنوع من التبرك وبيان حكمه:

التبرك يكون بما علم شرعًا أن فيه بركة وأذن الشارع في طلبها منه والتماسها فيه، وذلك كبيت الله الحرام، وماء زمزم الذي قال فيه الرسول ﷺ كما في (صحيح مسلم) وغيره: ((ماء زمزم طعام طعم وشفاء سقم)) وكالمساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا لها، وككل المساجد التي بنيت باسم الله وتقام فيها عبادة الله من صلاة وغيرها ويذكر فيها الله وحده دون سواه؛ وكالأراضي المقدسة من الحجاز والشام، وكمجالس العلم والذكر وقراءة القرآن، ومجالسة الصالحين ومرافقتهم في أسفارهم وطلب دعائهم.

وأما كيف يكون التبرك؟: فإنه يكون إن كان ببيت الله تعالى مثلًا فبزيارته للحج والعمرة وبالطواف به واستلام ركنيه، وهو عمل مشروع أمر رب العباد به، وليس القصد من التبرك بالبيت هنا أن يتبرك الإنسان بحجارة البيت أو غيرها، وقد ورد عن أمير المؤمنين عمر > أنه عند تقبله للحجر الأسود قال: "اللهم أني أعلم أنك حجر تضر ولا تنفع؛ ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك".

وكذلك أيضًا الدعاء مبارك عند البيت، وإن كان التبرك بماء زمزم مثلًا؛ فيكون بالشرب منه والدعاء عند ذلك، وإن كان بالمساجد الثلاثة فبالسفر إليها للصلاة فيها والاعتكاف بها؛ وإن كان بسائر المساجد فبالصلاة فيها والعبادة بها من ذكر وتسبيح وقراءة قرآن وطلب علم؛ وإن كان بالأراضي المقدسة فبالإقامة بها على حسن سيرة وكمال أدب، والحياة فيها والموت بها -إن استطاع الإنسان- والدفع فيها لورود الخبر عن النبي ﷺ في المدينة النبوية: ((من استطاع منكم أن يموت في المدينة فليفعل)).

ومن ذلك أيضًا: مجالسة الصالحين من أهل العلم والإيمان والتقوى، وأخذ العلم عنهم وسماع نصائحهم، والعمل بإرشادهم وتوجيهاتهم، والرغبة في الحصول على دعائهم... هذه كلها مسائل مشروعة ينال الإنسان بها نماءً وزيادة وخيرًا وبركة.

حقائق مهمة:

الحقيقة الأولى: وهي أن التبرك لم يعد كونه مشروعًا، وأقصى درجات حكمه أن يكون مستحبًّا لا غير.

الحقيقة الثانية: إن كان التبرك -وهو طلب بركة ما- قد يؤدي إلى فعل مكروه أو ارتكاب محرم؛ فإنه يجب تركه ويتعين عدم فعله؛ لأن درء المفاسد مقدم على جلب المنافع، ويشهد لهذا فعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب > وهو -كما هو معلوم- أحد الخلفاء الراشدين الموصى شرعًا بإتباع سنتهم؛ فإنه قد ورد في حديث العرباض بن سارية > : ((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور)).

الشاهد أننا نجد أمير المؤمنين عمر > لما رأى رغبة الناس عند المرور بالحديبية في طريقهم إلى مكة في النزول تحت شجرة بيعة الرضوان للتبرك بها أمر بقطعها؛ حسمًا لمادة الفساد؛ إذ لو تركت لعبدت كما عُبد غيرها من أشجار كثيرة باسم التبرك، وفي كل زمان ومكان في عهد نوح # إلى ساعتنا هذه. ولذلك أؤكد في الحقيقة الثانية التي أذكرها هنا أن البركة إذا كانت تؤدي إلى فعل مكروه أو ارتكاب محرم يمكن أن يتوصل بها إلى لون من ألوان الشرك وجب تركها؛ ونستدل على ذلك بفعل أمير المؤمنين عمر > .

الحقيقة الثالثة: أن ما يفعله جهال المسلمين اليوم من شد الرحال إلى زيارة قبل فلان وفلان، أو ضريح من سيد أو صالح، وإقامة الحفلات حولها والموالد، والنزول بساحتها والعكوف عندها، والإقامة هناك الليلة والليلتين باسم التبرك؛ كل هذا باطل منهي عنه ولم يشرع فعله المسلمين؛ وإنما هو من محدثات الأمور وضلال الابتداع، وقد أدى إلى الشرك -والعياذ بالله تعالى- لأن المكان الذي لم يذكر له الشرع أن فيه بركة لا يفعل الإنسان عبادة عنده متعمدًا أن ينال بركة هناك، ومن أعلمه أن في هذا المكان بركة؟! بل يجب لو تعلق أحد من الناس ببقعة ما ألا يعبد الله عندها حسمًا لمادة الشركة؛ كما جاء في الحديث: "أن رجل نذر أن يذبح إبلًا ببوانة -قرية من القرى- فعلم بذلك النبي ﷺ فسأله: ما العلة

في أنه نذر أن يذبح في هذا المكان بعينه، وسأله هذه الأسئلة: ((هل فيها عيد من أعياد الجاهلية يقام؟ قال: لا، قال: هل فيها صنم من أصنام الجاهلية يعبد؟ قال: لا))، عندئذ قال له: ((فأوفِ بنذرك)) ومن المفهوم أنه لو كان هناك شيء من ذلك لمنعه ﷺ.

وقد أدى اعتقاد بعض الناس بأن في قبور الأولياء والصالحين بركة لا توجد عند غيرهم؛ ولذلك أقاموا هناك وعقدوا الموالد والاحتفالات... أدى ذلك إلى الشرك والوقوع فيه -والعياذ بالله- فكم تسمع هناك من مستغيث بأصحاب تلك الأضرحة، وكم ترى حولها من مستجير بها، وداعٍ ضارعٍ لها، وباكٍ خاشع لها، وكم تجد من قطعان البقر والغنم تساق إليها وتذبح قربانًا لها، كل ذلك تحت شعار التبرك وعنوان التوسل والتشفع؛ ألا فلا تبرك ولا توسل ولا تشفع إذا كان ذلك يؤدي إلى الشرك والكفر.

الحقيقة الرابعة: أن العبد الصالح الذي تقدم إلى أن يجوز التبرك بزيارته والانتفاع به وبعمله وبإرشاده وتوجيهه ونصائحه وبالتالي بدعائه... هذا العبد الصالح ينبغي أن يكون من أهل العلم والإيمان والتقوى؛ وإلا فلا تشرع زيارته ولا التبرك به؛ لعدم وجود البركة في غير أهل العلم والإيمان والتقوى.

الحقيقة الخامسة: إذا كان الرجل يدعي الولاية ويدعو الناس إلى الاعتراف له بها، ويستغل ذلك لفائدته الشخصية من جلب منافع خاصة به من جاه أو مال أو ما إلى ذلك من الحظوظ النفسية والدنيوية؛ فإن مثل هذا الرجل دجال لا بركة عنده ولا خير فيه؛ فلا تحل زيارته ولا مجالسته ولا احترامه فضلًا عن التبرك به؛ وذلك لفقد موجبات البركة عنده وهو العلم والإيمان والتقوى، وأنا لا أعني هنا بالتبرك بذات الشخص الصالح أو الولي أو العالم؛ وإنما أعني بالبركة التي فيه أو

عنده: أن يذهب الإنسان عدنه ليستفيد من علمه؛ فينال بركة العلم والصلاح والتقوى بإذن رب العالمين ﷻ، جل في علاه.

معنـى الولايـة ومـا يتعلـق بهـا

معنى الولاية، والفرق بين ولاية العبد وولاية الرب:

معنى الولاية: الولاية في اللغة مصدر ولي الشيء يليه وليًا وولايةً: إذا دنا منه هو قرض أو قام به وملك أمره، أو نصره وأحبه، ويصاغ من فعل ولي المفاعلة فيقال: ولاه يواليه موالاه إذا صادقه وناصره؛ فهو موالٍ له ضد معادٍ له؛ كما يصاغ من التولية؛ فيقال: تولاه تولية إذا صار له وليًّا، ومنه اشتق لفظ الولي الذي هو ضد العدو، هذا معنى الولاية في عرف اللغة.

وهذا المعنى لا يختلف عن المعنى في الدين كثيرًا؛ إذ كلا المعنيين يدور على القرب والحب والنصرة والقيام بالأمر لصالح الولي، وضد الولاية: العداوة، وهي تدور على البعد والبغض وإرادة الشر والهزيمة والهلاك للشخص المعادي، على عكس الولاية... وبناء على هذا؛ فولاية الله تعالى للعبد أن يهديه إلى الإيمان به وإلى معرفته وطاعته ومحبته ونصرة دينه؛ فيعمل العبد بذلك، ويقرب به من ربه ﷻ حتى يحبه الله تعالى؛ فإذا أحبه قربه وتولى أموره ونصره وحفظه؛ فكان بذلك وليه؛ كما قال الله -تبارك وتعالى-: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وولاية العبد للرب -تبارك وتعالى-: أن يؤمن العبد بربه سبحانه، وأن يتقرب إليه بطاعته، وأن يوافق الله ﷻ في محابه ومكارهه، ويوالي من يوالي، ويعادي من يعادي، وينصر دين الله ﷻ وينصر أولياءه، وبذلك يقول العبد وليًّا لله -

تبارك وتعالى- قال الله ﷻ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

الحالة الجامعة بين الله تعالى الولي الحميد وبين العبد المؤمن التقي:

الحالة الجامعة في الولاية: هي الموافقة في الحب والبعد، والقرب والمناصرة، والموالاة والمعاداة؛ فالله ﷻ يحب عبده المؤمن، ويحب الإيمان، وينصر أهل الإيمان، ويوالي أولياؤه وأحبابه، وكذلك المؤمن يحب من أحبه الله -تبارك وتعالى- ويوالي من والاه الله ﷻ وينصر من نصره الله، ويعادي من عاداه الله، هذه هي الحال الجامعة في الولاية بين العبد وبين الرب.

أصل الولاية وشرطها: إن أصل الولاية الإيمان والتقوى، وشرط الولاية الموافقة التامة في الحب والبغض، والمولاة والمعادة، ومتابعة الرسول ﷺ في كل ما جاء به ودعا إليه من أصول العقائد والعبادات والآداب والأخلاق، متابعة يتجرد فيها العبد لله ويخلص له فيها؛ إذ لا تتم محبة الله للعبد إلا بشرط المتابعة للرسول ﷺ وذلك لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]؛ وهذا لأن المتابعة في سبيل طهارة الروح وزكاة النفس، ومن طهرت روحه وزكت نفسه بالإيمان والعمل الصالح والبعد عن الشرك والمعاصي كان أهلًا لحب الله تعالى ومولاته ﷻ على العبد أن يوالي ربه ومولاه والله ولي كل مؤمن.

الفرق بين الولايتين؛ ولاية الله للعبد وولاية العبد لله ﷻ:

لا شك أن هناك فرقًا بين ولاية الله تعالى للعبد وبين ولاية العبد لله ﷻ تجب ملاحظته: وهو أن الله تعالى لا يوالي عن افتقار للعبد واحتياج إليه؛ وإنما يوالي

إكرامًا للعبد وإنعامًا عليه؛ وذلك لغناه ﷻ عن كل ما سواه، وافتقار كل ما عداه إليه، وهذا من معاني اسمه الصمد، وقد نفى الله تعالى في كتابه العزيز أن يكون له ولي من الذل فقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا﴾ [الإسراء: ١١١] وأما العبد فإنه إذا وفقه الله ﷻ لذلك يوالي ربه لفقره وحجاته إلى ربه؛ إذ هو دائمًا في حاجة إلى نصرة ربه ومعونته ومحبته ورضاه وإدنائه منه وتقربه إليه؛ إذ لا يسعد العبد إلى في جوار مولاه، ولا ينعم إلا إذا تغمده ربه برحمته وخلع عليه فضلًا منه ورضوانًا؛ فالمنة إذًا لله تعالى على موالاته لعبده وقبوله له وليًّا؛ وأما العبد فلا منة له بحال، ولو أذاب نفسه في طاعة الله وأوقف كل حياته عليه؛ وحتى لو لم يبقَ له همٌّ ولا هوى سوى الله ﷻ.

الولي و مراتب الأولياء:

الولي وجمعه أولياء يكون اسم فاعل بمعنى المتولي غيره، ويكون اسم مفعول بمعنى الذي يواليه غيره ويتولاه؛ فالله -تبارك وتعالى- وهو الولي الحميد، ولي عبده المؤمن، بمعنى: أنه هداه للإيمان ووفقه للطاعات وأدناه منه وقربه إليه، وأحبه ونصره؛ فهو مولاه ووليه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦] والمؤمن ولي الله تعالى بمعنى أن الله هداه وتولاه، وبمعنى أن المؤمن والى الله تعالى فأمن به واتقاه وأحبه وأطاعه، ووافقه في محابه ومساخطه؛ فوالى من يوالي وعاد من يعادي، وأحب من أحب وما أحب، وكره ما كره ومن كره؛ فكان بذلك عبده ووليه؛ قال تعالى في إثبات هذه الولاية وذكر كرامتها: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس ٦٢-٦٤].

وبالجملة ؛ فإن ولي الله من عباده هو مؤمن أكرمه الله تعالى بهدايته ؛ فآمن بالله تعالى واتقاه، وتقرب إلى الله بالصالحات ووافق ربه فيما يحب وما يكره من الذوات والصفات، ووالى من يوالي وعادى من يعادي ؛ فوالاه الله تعالى بذلك وتولاه، وأكرمه بكرامات ؛ فكان إذا دعاه استجاب له، وإن استعاذه أعاذه، وإن سأله أعطاه ؛ ولذلك كان المعادي لولي الله هو المعادي في الحقيقة أيضًا لله ﷻ لأنه عادى من تابع أوامره واجتنب نواهيه ؛ لهذا السبب خصوصًا فكأنه عادى من أصدر هذه الأوامر والنواهي ؛ ولهذا ورد في الحديث القدسي : عن أبي هريرة > فيما يرويه عن النبي ﷺ : ((يقول الله تعالى : من عادى لي وليًّا فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب عبدي بمثل ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ؛ فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، وإن سألني لأعطينه، وإن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن ؛ يكره الموت وأنا أكره مساءته، ولا بد له منه)).

مراتب الأولياء :

للأولياء مراتب، ذكر بعض العلماء أنها أربعة، والذاكر أو الذي ذكر أربع مراتب في الحقيقة جعل العليا مرتبتين عليا وعالية ؛ ولذلك أنا سأجمع بينهما هنا وأقول بأن المراتب ثلاثة :

مرتبة عليا - وتدخل فيها العالية : وهي مرتبة الأنبياء والمرسلين، وهؤلاء أيدهم رب العالمين بمعجزات عظيمة، وهذه المعجزات كانوا يوظفونها في الدعوة إلى الله -تبارك وتعالى- فكانت معجزات تقوم بها الحجة لله تعالى على العباد.

وهذه المرتبة تدخل فيها المرتبة العالية وهي مرتبة السابقين المقربين من أتباع الرسل -عليهم السلام- وهم متفاوتون فيها تبعًا للقرب من الله ﷻ كما أن الأنبياء والمرسلين بينهم تفاوت في تساوي الدرجات وعلو المنازل.

أما المرتبة الثانية فهي الوسطى: وأهلها هم أهل الإيمان والتقوى من أصحاب اليمين المقتصدين.

وهناك مرتبة يطلق عليها مرتبة الدنيا أو دانية: وهي مرتبة أهل الضعف في الإيمان والتقوى وهؤلاء هم الظالمون لأنفسهم، وهم المذكورون في قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر: ٣٢-٣٥].

والشاهد من ذلك في الآية الكريمة أن الله -تبارك وتعالى- ذكر ثلاثة أصناف من الناس هم الظالمون لأنفسهم، والمقتصدون، والسابقون بالخيرات، وحكم على جميعهم بأنهم يدخلون الجنة ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ فدل ذلك على أن أهل الإيمان والتقوى هم كذلك أولياء الله تعالى وإن ظلموا أنفسهم بترك بعض الواجبات أو بفعل بعض المحرمات؛ غير أن درجاتهم دون درجة السابقين ولم تصل إلى درجة المقتصدين فهم في منزلة دون وذلك لضعف إيمانهم وتقواهم.

وأود أن أؤكد أن أعلى المراتب مرتبة الأنبياء والمرسلين، ويلاحظ هنا أن أهل هذه المراتب على اختلافهم متفاوتون في العدد قلة وكثرة؛ فأهل المرتبة العليا أقل

عددًا ممن يأتي بعدهم، وأهل المرتبة التي تلي ذلك أقل عددا من المرتبة الدنيا، وأعني بذلك: المرتبة الوسطى أقل من العليا، والدنيا أقل من الوسطى، وهذا أمر ظاهر لا يحتاج إلى أكثر من تبينه إليه.

ويلاحظ أن الأولياء من غير الأنبياء والمرسلين لا عصمة لهم؛ فهؤلاء الأولياء من أصحاب المرتبة العالية قد يخطئون ويغلطون؛ غير أن الغالب في أحوالهم الحفظ مما يدنس شرف الولاية ويخل بمقامها وإن وقع شيء منهم يسير وإن أحدثوا ذنبًا لعدم عصمتهم أحدثوا له توبة على الفور ويقبلها إن شاء الله -تبارك وتعالى- رب العالمين، بعد أن يوفقهم لهذه التوبة، فيسلم بذلك مقامهم من التداعي والسكوت وتسلم منزلتهم من النزول والهبوط؛ ولذلك فإني أستغرب بعد هذا بأن هناك فرقًا بين الأنبياء والمرسلين وغيرهم من أهل الدرجات العليا من السابقين، يستغرب الإنسان قول من يقول: إن الأولياء أفضل من الأنبياء، ولا شك أن هذا كلام باطل، لا شك؛ فالأنبياء معصومون من الكبائر محفظون بحفظ رب العالمين سبحانه وتعالى، جل في علاه- وله ولاية خاصة أعظم قدرًا من غيرهم، وهي مأخوذة من الآية الكريمة: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

وهذه الولاية الخاصة لا شك أنها تزيد عن غيرها من الولايات التي تكون لسائر السابقين المقربين؛ ولذلك نحن نقول ونكرر بأن كل مؤمن ولي لله -تبارك وتعالى- غير أن هؤلاء الأولياء يتفاوتون فأعلاهم قدرا الأنبياء والمرسلون ثم بعد ذلك السابقون ثم المقربون، ثم يأتي بعد ذلك المقتصدون الظالمون لأنفسهم؛ ولا شك أن يجب على العبد ولي لله عز وجل حتى مع ضعفه وغلبه حتى لا يكون وليًّا للشيطان لأن الناس ينقسمون إلى قسمين إلى أولياء للرحمن وإلى أولياء للشيطان.

طرق الوصول إلى الولاية:

طرق الوصول إلى الولاية كثيرة، وولاية الله ﷻ ومحبته غاية يسعى إليها كل مؤمن، وللوصول إلى هذه الغاية لا بد للإنسان أن يسلك الطريق الذي يوصل إليها، و الطريق إلى الولاية هو في الحقيقة طريقين اثنين لا ثالث لهما:

الطريق الأول: وهو طريق الاجتباء والاصطفاء، وهو المذكور والمشار إليه في قول الله تعالى ﴿ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣].

الطريق الثاني: فهو طريق الإنابة، وهو المذكور في كمال الآية وتمام الآية السابقة: ﴿ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣] قال العلامة الشيخ صديق حسن خان -رحمه الله-: والاجتباء الاختيار، والمعنى: يختاره لتوحيده والدخول في دينه، واجتباء العبد تخصيصه إياه بفيض إلهي لتحصل له أنواع النعم؛ بلا سعي منه.

وقال أيضًا في تفسير قوله تعالى من ينيب أي: يوفق لدينه ويستخلص لعبادته من يرجع إلى طاعته أو يقبل إلى عبادته.

معنى الاجتباء:

لا شك أن الله سبحانه هو المالك المتصرف في الكون، وأنَّ له أنْ يختار من عباده من يشاء، وأن يصطفي وأن يفضله على غيره من الخلق، وقد اصطفى الله ﷻ آدم ونوحًا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين كما جاء في الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٣] فمن آل إبراهيم من كان نبيًّا ورسولًا، ومنهم من كان وليًّا ولم يصل إلى درجة النبوة،

وهم بقية الصالحين من آل إبراهيم ومن آل عمران، ومنهم مريم بنت عمران التي ثبتت لها الولاية ولم تثبت لها نبوة ولا رسالة.

ومضمون هذه الطريقة أن الله ﷻ له أن يختار من عباده من يلهمه الصلاح والتقوى والعلم... وما إلى ذلك من خصائص أوليائه؛ فيبادره بذلك قبل أن يصل إلى مرحلة التكليف والاختيار التي قال الله ﷻ فيها: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣].

وأما بالنسبة لمعنى الإنابة: فمن المعلوم أن الهداية درجات وأن جميع درجات الهداية إنما هي نعمة من الله ﷻ على العباد؛ فمن نعمه ﷻ على عباده أن يوفقه بالإيمان، والمؤمنون بعد أن يشتركوا جميعًا في الإيمان ينقسمون إلى ثلاثة أقسام وضحتها آية سورة فاطر كما أشرت إليها أيضًا سورة الواقعة: وهم السابقون بالخيرات في الدنيا إلى الجنة في الآخرة، والمقتصدون في الدنيا وهم أصحاب اليمين في الآخرة، والظالمون لأنفسهم في الدنيا بتقصيرهم أو قصورهم، وهم أقل الدرجات ولايةً في الدنيا ومنزلة في الآخرة.

وقد يقول قائل: ألا يستحق أهل الظلم لأنفسهم العذاب عقوبة ظلمهم؟:

فأقول: إن الظالم قد يعذب إن لم يغفر رب العالمين له؛ ولكنه بعد أن يعذب وبعد أن يطهر من ذنوبه بالعذاب يكون مصيره إلى الجنة؛ ولهذا حكمت عليهم الآية الواردة في صورة فاطر بأنهم في الجنة كما قال سبحانه فيها: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ [فاطر: ٣٣].

والسابقون الذين سلكوا الطريق إلى الله بعد الإيمان بأداء الفرائض واجتناب النواهي، وأكثروا من النوافل، وابتعدوا من المتشابهات، والتزموا بالورع هم أعلى درجات الولاية بعد الأنبياء.

وسلوك هذا الطريق لا بد فيه أن يبتدئ بالتعلم وقراءة القرآن وحفظ الحديث الشريف ومعرفة الحلال والحرام ونحو ذلك من العلوم الضرورية والكمالية، هذا أمر لا بد منه؛ فلا يصير العبد وليًّا لله، ولا في مرتبة عالية عند ربه ومولاه إلا إذا سار وسلك طريق العلم بالله ﷻ وعمل بمقتضى هذا العلم، ولا عبرة بقول من يقول: إنه لو يُشغلُ بقراءة القرآن ولا بالتأمل في تفسيره ولا يكتب الحديث ولا يكتب غير ذلك... كل هذا في الحقيقة لا شك أنه كلام باطل وخطأ لا يقبله الشرع ولا العقل؛ فإذا انطوى الإنسان عن الجهل وانعزل عن العلم ولم يتعلم على أيدي العلماء ولم يقم بالصالحات الباقيات، وابتعد عن حلقات الدرس وممارسة الحياة وفق منهاج الله ﷻ لا يمكن بحال أن يكون وليًا لله -تبارك وتعالى.

فمن زعم أن الولي هو الذي يلبس ثيابًا رثة ويجلس عند أبواب المساجد أو عند الأضرحة والقبور ويقول بأنه قد انقطع لله دون أن يتعلم ودون أن يطلب العلم ويقوم بالعبادة حقًّا لربه ﷻ ومولاه؛ فهو في الحقيقة من المحرومين وليس وليًّا لرب العالمين ﷻ، جل في علاه- فولاية الله ﷻ ينالها العبد بإيمانه بالله وتقواه؛ ومن التقوى أن يقوم العبد بأداء ما افترض الله -تبارك وتعالى- عليه، وأن ينتهي عما نهى رب العالمين ﷻ عنه، ولو كان العبد مقصرًا في بعض الواجبات فهو أيضًا من أولياء الله على قدر حاله وينال من الدرجات بقدر تقصيره.

الكرامة

عناصر الدرس

العنـــــــــصر الأول : معنى الكرامة، وأنواعها ، وماهيتها ٣٠٣

العنــــصر الثـــاني : الفرق بين الكرامات وغيرها مع ذكر نماذج للكرامات ٣٠٧

معنى الكرامة، وأنواعها، وماهيتها

معنى الكرامة:

الكرامة الاسم من كرُمَ، والجمع كرامات، وهي ما يكرم الرب -تبارك وتعالى- به عباده من أنواع الإفضالات؛ ولذلك فالكرامة أنواع متعددة وهذا ما يدفعني إلى أن أتحدث عن أنواعها في نقطة مستقلة.

أنواع الكرامة:

الكرامة نوعان عامة وخاصة:

فالعامة: هي ما كرم الله به بني آدم، وفضلهم به على غيرهم من هذه المخلوقات الأرضية، ومن ذلك اعتدال القامة والخلق في أحسن تقويم، والعقل والمنطق وتدبيرا لمعاش وإصلاحه، وتسخير الكون له، والانتفاع به إلى غير ذلك من الإفضال والإنعام، وفي بيان ذلك يقول رب العالمين سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٠].

أما النوع الثاني من أنواع الكرامة: فهي الكرامةُ الخاصة، وهي أفضلها، وأعني بها ما يُكْرِمُ به الله تعالى بعض عبادهم من هدايتهم إلى الإيمان، وتوفيقهم إلى طاعته تعالى بفعل المأمورات، وترك المنهيات، فهذه الاستقامة على الإيمان والطاعة من أعظم الكرامات، وأهْلُهَا هم أصحاب اليمين الذين ذكرهم رب العالمين ﷻ في قوله: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴾ [الواقعة: ٢٧].

وفي قوله -جل وعلا- ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴾ [البقرة: ٩٠، ٩١] وهم المقتصدون المذكورون في قوله ﴿ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٢]، وهم المبشرون بالجنة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأحقاف ١٣، ١٤].

وأخص من هذه الكرامة كرامةُ الإيمان والاستقامة: وهي ما يكرم الله تعالى به بعض عباده زيادة على الإيمان، والتقوى من الورع، والتقليل من المباحات، والإكثار من نوافل العبادات من صلاة وصدقات، ورباطٍ وجهاد وصيام وحج، وهؤلاء هم الموصوفون بالمقربين السابقين في قوله تعالى ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ [الواقعة ١٠ : ١٤].

وفي قوله تعالى: ﴿ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ۝٣٢ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴾ [فاطر: ٣٢، ٣٣]، وهم المعنيون بقول الله تعالى في حديث البخاري ((من آذى لي وليًّا؛ فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بمثل ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافلِ حتى أُحِبَّهُ)) إلى آخر ما جاءَ في الحديث.

فهؤلاء في أعلى مرتبة من مراتب الولاية؛ إذ يُعرفون باستقامتهم واستجابة ربهم لهم فيما يسألونه، ويطلبونه، فلو سألوه زوال الجبل لزال بإذنه سبحانه، ولو أقسموا عليه تعالى لأبرهم، وهم الذين يظهر الله تعالى على أيديهم ببركة دعائهم خوارق العادات كتكثير القليل وشفاء العليل، وكإكساب المعدوم، والإنقاذ من الهلاك المحتوم، أو خوض البحار وعدم الاحتراق بالنار ونحو ذلك.

ماهية الكرامة :

ماهية الكرامة هي ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص لا يدعي النبوة، ويعتمد كثير من الناس على الكرامات كشاهد يثبت وصول صاحبها إلى درجة عظيمة في الولاية لله ﷻ ولكن هذا المسلك أدى إلى الخلط بين الأولياء الحقيقيين الذين تحصل لهم كرامات حقيقة، وبين الأدعياء الدجالين الذين يظهرون بعض المخاريق الشيطانية على أنها كرامات، وهي ليست كذلك.

وقد نشأ هذا الخلط من اشتراك الكرامة مع غيرها في خرق العادة، وقد اختُلف في جواز خرق العادات من عدمه على أراء كثيرة الراجح منها أن خرق العادة جائز، فكل ما خُرق لنبي من العادات يجوز أن يُخرق لغيره من الصالحين، بل ومن السحرة والكهان أيضًا، لكن الفرق أن هذه تقترن بها دعوى النبوة وهو التحدي والإعجاز، فهذه تكون معجزة للأنبياء، وإن كانت قبل النبوة فهي الإرهاص، وإن كانت غير مقرونة بالتحدي خالية من دعوى النبوة فهي الكرامة الخاصة بالأولياء، أو تكون بمعنى المعونة لعامة المؤمنين.

قال ابن تيمية -رحمه الله- ما حاصله: "إن كرامات الأولياء ومعجزات الأنبياء من جنسٍ واحدٍ بلا ريب، ولكن كرامات الصالحين لا تبلغ مثلَ معجزات الأنبياء والمرسلين، كما أنهم لا يبلغونَ في الفضيلة والثواب إلى درجاتهم، ولكن قد يشاركونهم في بعضها، كما قد يشاركونهم في بعض أعمالهم، والمعول عليه في الشهادة على صدق الأنبياء في نبوتهم معجزاتهم الكبرى وهذه لا يظهر مثلها على يدي أحد، سواء كان من المعارضين أم الموالين.

أما التوابع والنوافل التي لا يُعتمد عليها استقلالاً في الشهادة على صدق الأنبياء، فيجوز أن يظهر مثلها على يدي الأولياء كرامةً لهم، ودلالةً على صدق النبي

الذي اتبعوه، وهذا لا يطعن في صدق الأنبياء بل يؤيده، أما ما يُروى من أمور كبار حدثت على يد بعض الصحابة { ، كما صارت النار بردًا وسلامًا على أبي مسلم الخولاني ونحو ذلك، فقد خرجها ابن تيمية على أنها ليست مجرد كرامات لهؤلاء الصحابة، بل هي معجزات النبي المتأخرة عنه بمنزلة الإرهاصات التي تتقدم مبعثه".

وبهذا يكون ابن تيمية -رحمه الله- قد وضع قواعد واضحة للتمييز بين المعجزة والكرامة، فالمعجزة شيءٌ عظيمٌ لا يحدث إلا لنبي دلالة على صدقه، أما الكرامات: فإنها وإن كانت من جنس المعجزات لأن مصدرها واحد هو الله ﷻ ولأنها خارق حقيقي للقوانين والنواميس الكونية بقدرة الله، وليست بلا شك كالسحر والشعوذة، كما سيأتي التفريق بينهما إن شاء الله -تبارك وتعالى. إلا أن الكرامة من التوابع والنوافل التي لا تصل إلى حد المعجزات الكبرى.

ويُشارك ابن تيمية رحمه الله -تبارك وتعالى- المعتزلة في القول بأن ما حدث من أمور كبيرة على يد الصحابة، إنما هو من المعجزات الخاصة بنبي هذه الأمة، وإن جرى على يد تابعه، فلا يصح ضمه إلى جملة الكرامات، إلا أن المعتزلة تعمم ذلك في كل ما يحدث من خوارق للأولياء، وتتخذ من ذلك ذريعةً لمنع الكرامات، أما ابن تيمية -رحمه الله- فيخصصه بما كان منها في درجة المعجزات التي جرت للأنبياء فعلاً، ولقد ردَّ ابن تيمية على المعتزلة إنكارهم للخوارق عدا المعجزات؛ لأن هذه موجودة مشهورة لمن شهدها، متواترةٌ عند كثير من الناس أعظم مما تواترت عندهم بعض معجزات الأنبياء.

الفرق بين الكرامات وغيرها مع ذكر نماذج للكرامات

الفرق بين الكرامات وغيرها من أنواع السحر والشعوذة:

يستتبع موضوع البحث في الكرامة من جهة ثبوتها ومنزلتها بالنسبة للمعجزة، أن نميز بينها وبين السحر والشعوذة، وسأكتفي له بما بذله الإمام ابن تيمية رحمه الله من جهد مشكور لإظهار الفرق بين الكرامة وبين السحر والشعوذة بشكل لم أجد له مثيلاً في الدقة الوضوح عند غيره، فابن تيمية -رحمه الله- يتخذ من النبوة أساسًا للتمييز بين ما يُسمَّى معجزات وكرامات، وبين ما يُسمى سحرًا، أو شعوذة وكهانة، فآياتُ الأنبياء وبراهينهم، ومنها كرامات الصالحين لا توجد إلا مع النبوةِ والإيمان بها، ولا توجد مع ما يناقضها أبدًا.

أما خوارق الكهان والسحرة والمشعوذين، فلا توجد إلا مع ما يناقض النبوة؛ لأن السحر والكهانة والشعوذة تناقض النبوة بلا شك، والناس رجلان رجل موافق للأنبياء، ورجل مخالف لهم، فالمخالف مناقض، وإذا كان كذلك فيُقال: جنس آيات الأنبياء خارجةٌ عن مقدور البشر، بل وعن مقدور جنس الحيوان.

وأما خوارق مخالفيهم كالسحرة والكهان؛ فإنها من جنس أفعال الحيوان مقدور لجنس الحيوان أو الجان أو الإنسان، فآيات الأنبياء، وكرامات الأولياء مما لا يختص غير الرب -تبارك وتعالى- بالقدرة عليه؛ لأن فيه خرقًا حقيقيًّا للقوانين الكونية قد يصل إلى تغيير جنس إلى جنس آخر، أما خوارق الكهان وغيرهم فهي لا تصل إلى هذا الحد، بل لا تتعدى ما هو في مقدور الإنس أو الجن، فهي إما تصرف في أعراض الحي بالحركة، أو الموت، أو المرض، أو إخبار بأمور غائبة

عمن أخبر بها بينما هي لا تكون غيبًا بالنسبة لمن حضرها من الجن الذين ينقلونها مع الكذب فيها، وأما ما يخبر به الرسل من الأمور البعيدة والكبيرة المفصلة، فهذا لا يقدر عليه جنس ولا إنس.

والحاصل: أن ابن تيمية -رحمه الله- ينبه إلا أن خوارق السحرة والكهان والمشعوذين ليست في الحقيقة إلا أمورًا مقدورة لبعض المخلوقات دون البعض الآخر، بينما لا تكون آيات الأنبياء وما في حكمها ككرامات الصالحين من هذا القبيل مطلقًا، وأخيرًا يمكن أن يُقال: إن الكرامات مسألة دينية لا يقف في سبيلها اعتراض، ولا إبطال، فقد كان العمدة في إبطالها التباسها بالمعجزات فكان في إثباتها تشويش على معجزات الأنبياء، وطعن في صدق دعواهم، أو اشتباهها بالسحر والكهانة، ولكن بما حققه الإمام ابن تيمية -رحمه الله- اندفع هذا الإشكال بشكل حاسم، وفوق هذا كله انتفاء المانع من الكرامات فقد ثبت مما يشبه التواتر كرامات كثيرة لكثير من الصالحين في العصر الأول وما يليه عن الثقات الذين لا يتطرق إلى روايتهم الشك ولا التكذيب.

نماذج من الكرامات عند أهل الحق:

ذكر ابن تيمية -رحمه الله- في رسالته (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) كثيرًا من الروايات الصحيحة التي تذكر أنواعًا من الكرامات للأولياء والصالحين ومنها ما حدث للأنبياء والمرسلين من معجزات هي لهم من الله كرامة، فإن كانت مقترنةً بالتحدي فهي المعجزة قولاً واحدًا، وأما إن كانت غير مقترنة بالتحدي والإعجاز فهي وإن كانت في ظاهر الأمر معجزة إلا أنها إلى الكرامة أقرب؛ إذ ليس فيها تحدٍّ أو إعجاز، كما هو شأن المعجزة؛ وذلك لأنها تبعًا لولاية النبي؛ إذ من المعلوم أن كل نبي ورسول ولي، وليس كل وليٍ نبيًّا أو رسولًا.

فالرسول نبي وولي، ورسالته متضمنة لنبوته، ونبوته متضمنة لولايته، وإذا قدروا مجرد إنباء الله إياه بدون ولايته لهذا، فهذا تقدير ممتنع فإنه حالة إنباءه إياه ممتنع أن يكون إلا وليًّا لله، ولا تكون مجردة عن ولايته، ولو قُدرت مجردة لم يكن أحد مماثلًا للرسول في ولايته، فأفضل أولياء الله هم أنبياؤه وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم، وأفضل المرسلين أولو العزم، وأفضل أولي العزم محمد ﷺ خاتم النبيين وإمام المتقين وسيد ولد آدم أجمعين.

ومن الكرامات والمعجزات ما حدث للنبي ﷺ وذلك كتسبيح الحصى في كفه وإتيان الشجر إليه وحنين الجزع إليه، وتكثير الطعام والشراب مرات كثيرة، كما أشبع في الخندق العسكر من قدر طعام وهو لم ينقص، كما جاء في حديث أم سلمة المشهور.

وروى العسكر في غزوة خيبر من مزادة ماء ولم ينقص وهم نحو ثلاثين ألفًا، ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة ﷺ مرات متعددة حتى كفى الناس الذين كانوا معه، كما كانوا في غزوة الحديبية نحو: ألف وأربعمائة أو خمسمائة، كما أنه ﷺ رد عينَ أبي قتادة حين سالت على خده فرجعت أحسن عينيه، ولما أرسل محمد بن مسلمة لقتل كعب بن الأشرف فوقع، فانكسرت رجله، فمسحها فبرئت بإذن الله، وأطعم من شواء مائة وثلاثين رجلاً، كلًّا منهم حزَّ له قطعة وجعل منها قطعتين فأكلوا منها جميعهم، ثم فضل فضلة ومثل هذا كثير.

ومثال ما حدث أو كما حدث للنبي ﷺ من معجزات أكرمه الله بها حدث لبقية إخوانه من الأنبياء، فقد امتن الله ﷻ على خليل الرحمن إبراهيم # بالنجاة من النار، كما أكرمه الله ﷻ بإنجاب الولد بعد أن بلغ من الكبر عتيًّا، وكانت زوجه أيضًا عقيمًا لا تلد، كما أكرم الله ﷻ زكريا # بالولد بعد كبر سنه،

ومع عقم زوجه أيضًا، وما أكرم الله به يونس # بإخراجه من بطن الحوت وما منَّ الله به على يوسف # فنجاه الله من كيد إخوته، ومن مكر امرأة العزيز، ومن كيد نسوة المدينة، فصرف الله عنه السوء والفحشاء، كما أكرم الله ﷻ غير هؤلاء الأنبياء بكرامات عظيمة، فقد أكرم الله -تبارك وتعالى- مريم وساق إليها من الأرزاق التي ساقها بغير حساب، وقد تساقط الرطب الجني عليها بشيء يسير من الأسباب وقد أنطق الله عيسى # في المهد ليبرئها من اتهام اليهود.

وما حدث لأهل الكهف من آيات كانت عجبًا، وقد بعثهم الله ﷻ بعد نومهم بسنين عددًا، ومنه ما وقع لعُزير إذ دخل القرية الخاوية على عروشها فحدثت له آية عجيبة كما جاء ذكر ذلك في القرآن مفصلاً وكرامات الصحابة والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثيرة جدًا، وذلك مثل ما حدث لأبي بكر > لما ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته وجعل لا يأكل لقمةً إلا رَبَا من أسفلها فشبعوا، وصارت أكثر مما هي قبل ذلك فنظر إليها أبو بكر وامرأته، فإذا هي أكثر مما كانت، فرفعها إلى رسول الله ﷺ وجاء إليه أقوامٌ كثيرونَ فأكلوا منها وشبعوا.

وما حدث لعمر > لما كان يخطب على منبر رسول الله ﷺ بالمدينة فإذا به يقول يا سارية الجبل، يا سارية الجبل، وهو بهذا يوجه قائد معركة يُقال له سارية، وقد سمع سارية صوته، وانحاز بالجيش إلى الجبل، فكان في ذلك نصرهم، وانهزام أعدائهم من المشركين، ورجع سارية، فأخبر عمر والصحابة بما سمع من صوت عمر > وعمر > قال فيه النبي ﷺ ((قد كان في الأمم قبلكم محدثون؛ فإن يكن في أمتي أحدٌ فعمر منهم)).

وقال ﷺ: ((لو لم أُبعث فيكم لُبعث عمر))، وفي حديث آخر أخرجه الترمذي ذكر فيه النبي ﷺ: ((أن الله ضرب الحق على لسان عمر وقلبه))، وأيضًا قال:

((لو كان نبي بعدي لكان عمر))، وكان علي بن أبي طالب < يقول: ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر، وقال ابن عمر } : ما كان عمر يقول لشيء إني لأراه كذا إلا كان كما يقول.

وهذه الأمور الصادقة التي أخبر بها عمر بن الخطاب < وما جاء عنه هي في الحقيقة من الأمور التي أكرم الله ﷻ بها هؤلاء الصحب الكرام وعلى رأسهم أبي بكر وعمر؛ لأن أفضل هذه الأمة بعد نبيها أبي بكر، ويليه بن الخطاب } .

وكم من مرة يوافق عمر < القرآن، وقال عثمان الخليفة الثالث الزاهد التقي النقي < : لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله ﷻ ودخل عليه < رجلان فقال: ما لي أرى في أعينكما أثر الزنى، وقد نظرا إلى امرأة أجنبية قبل الدخول عليه، ثم قالا: أوحي بعد رسول الله ﷺ؟ قال: لا، ولكني سمعت النبي ﷺ يقول: ((اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)) وقد تقدم الحديث الصحيح الذي في البخاري وغيره، وفيه يقول رب العزة: ((لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأُعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت، وأكره مساءته، ولا بد له منه)).

كما أن علي بن أبي طالب < أوتي من الكرامات ما أوتي ومن ذلك ما أعطاه الله إياه من قوة في فتح حصن خيبر، وقد كان بعينيه رمد فبرأ منه بإذن الله، وما قاله ﷺ: ((إن لله رجالاً لو أقسموا على الله لأبرهم)).

وقال ﷺ أيضًا ذاكرًا بعض الكرامات: ((كانت امرأة تُرضع ولدها فرأت رجلاً على فرسٍ فارهٍ، فقالت: اللهم اجعل ولدي مثل هذا، فالتفت إليه

الطفل وهو يرضع، وقال اللهم: لا تجعلني مثله فنطق الرضيع كرامة للولد والوالد)).

وفي قوله ﷺ كما جاء في حديث جريج العابد وأمه، وذلك عندما قالت أمه: اللهم لا تمته حتى تُرِيَهُ وجوهَ المومسات فاستجاب الله لها كرامة منه تعالى لها، وقال ولدها جريج لما اتهموه بأن ولد البغي منه قال للولد الرضيع: من أبوك؟ فقال: راعي الغنم، فنطق الرضيع كرامة لجريج العابد. وقال عن نفسه: وهو يبتسم أصابتني دعوة أمي.

وقال ﷺ كما في أصحاب الغار الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة فدعوا الله، وتوسلوا إليه بصالح أعمالهم، فاستجاب الله لهم، وفرجها عنهم حتى خرجوا سالمين كرامة لهم، وقوله ﷺ في حديث الراهب والغلام من هذا الباب، إذ جاء فيه: أن الغلام رمى الدابة التي كانت قد منعت الجماهير من المرور بحجرٍ، فماتت ومر الناس، فكانت كرامة للغلام.

كما أن الملك حاول قتل الغلام بشتى الوسائل، فلم يفلح حتى رماه من جبل شاهق ولم يمت، وقذفه في البحر فخرج منه يمشي؛ فكان ذلك كرامة للغلام المؤمن الصالح.

ومن أمثلة الصحابة { : أيضًا أن الملائكة كانت تسلم على عمران بن حصين > وأن سلمان الفارسي وأبا الدرداء { كانا يأكلان في صحفة فسبحت الصحفة أو الطعام فيها، وهذا ما يشهد له قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وأن خبيبًا > كان أسيرًا عند المشركين بمكة، فكان يؤتى بعنب يأكله، وليس بمكة من عنب وقتئذٍ، ويشهد لهذا ما جاء في قول الله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧].

نماذج من الأحوال الشيطانية والفرق بينها وبين الكرامات:

تحدثت وأشرت إلى شيء من معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء، وهذه الكرامات التي ذكرت بعضها تختلف عن الأحوال الشيطانية، ومن الأحوال الشيطانية حال عبد الله بن صياد الذي ظهر في زمن النبي ﷺ وكان من ظن بعض الصحابة أنه الدجال، وتوقف النبي ﷺ في أمره حتى تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجال، لكنه كان من جنس الكهان، فقال له النبي ﷺ: ((قد خبأت لك خبئًا، فقال: الدخ الدخ، وقد كان خبأ له سورة الدخان، فقال له النبي ﷺ: اخسأ فلن تعدو قدرك)).

يعني إنما أنت من إخوان الكهان، والكهان كان يكون لأحدهم القريب من الشياطين يخبره بكثير من المغيبات بما يسترقه من السمع، وكانوا يخلطون الصدق بالكذب، كما هو في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره أن النبي ﷺ قال: ((إن الملائكة تنزل في العنان، وهو السحاب فتذكر الأمر قُضي في السماء، فتسرق الشياطين السمع فتوجه إلى الكهان، فيكذبوا معها مائةَ كذبة من عند أنفسِهم)).

وفي الحديث الذي رواه مسلم عن عباس } قال: ((بينما النبي ﷺ في نفر من الأنصار إذ رُمي بنجم فاستمعه، فقال النبي ﷺ: ما كنت تقول في هذا في الجاهلية إذا رأيتموه؟ قالوا: كنا نقول: يموت عظيم ويولد عظيم، فقال رسول الله ﷺ فإنه لا يُرمى بها لموت أحد أو لحياته، ولكن الله -تبارك وتعالى- إذا قضى أمرًا سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء، والذين يلونهم، ثم الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء، ثم يسألون أهل السماء السابعة، وحملة العرش ماذا قال ربنا؟ فيخبرونهم، ثم يستخبروا أهل كل سماء حتى يبلغ

الخبر أهل السماء الدنيا، وتخطف الشياطين السمع، فيُرمون، فيقذفونه إلى أوليائهم فما جاءوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يزيدون)).

وفي رواية: قال معمر: قلت للزهري: أكان يُرمى بها في الجاهلية؟ قال: نعم، ولكنها أغلظت حين بُعث النبي ﷺ.

والأسود العنسي الذي ادعى النبوة كان له من الشياطين من يخبره ببعض الأمور المُغيبة، فلما قاتله المسلمون كانوا يخافون من الشياطين أن يخبروه بما يقولوه فيه حتى أعانتهم عليه امرأته لما تبين كفره، فقتلوه.

وكذلك مسيلمة الكذاب كان معه من الشياطين من يخبره بالمغيبات ويعينه على بعض الأمور، وأمثال هؤلاء كثيرون كالحارث الدمشقي الذي خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان، وادعى النبوة، وكانت الشياطين يخرجون رجليه من القيد، وتمنع السباح أن ينفذ فيه، وتُسبِّحُ الرخامة إذا مسحها بيده، ويقول بأنها هي الملائكة، وإنما في الحقيقة كانوا جنًّا، ولما أمسكه المسلمون ليقتلوه طعنه الطاعن بالرمح فلم ينفذ فيه، فقال له عبد الملك: إنك لم تسمِّ الله، فسمى الله فطعنه فقتله.

وهكذا أهل الأحوال الشيطانية تنصرف عنهم شياطينهم إذا ذُكر عندهم ما يطردها كمثل آية الكرسي فإنه قد ثبت في الحديث الصحيح في حديث أبي هريرة > :
((لما وكله النبي ﷺ بحفظ زكاة الفطر فسرق منه الشيطان ليلة بعد ليلة، وهو يمسكه فيتوب هكذا يظهر له فيطلقه، فيقول له النبي ﷺ: ما فعل أسيرك البارحة؟ فيقول: زعم أنه لا يعود، فيقول له ﷺ: كذبك، وإنه سيعود، فلما كان في المرة الثالثة قال الشيطان لأبي هريرة: دعني حتى أعلمك ما ينفعك، ثم قال له: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي؛ فإنه لن يزال عليك من الله

حافظٌ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فلما أخبر النبي ﷺ قال: صدقك، وهو كذوب)).

لما أخبر أبا هريرة النبي ﷺ قال: ((صدقك وهو كذوب)) وأخبره بأنه شيطان، ولهذا إذا قرأها الإنسان عند الأحوال الشيطانية بصدق أبطلتها بإذن الله -تبارك وتعالى- وأود بعد هذا، وأنا أذكر بعض النماذج من الأحوال الشيطانية أن أذكر بعض الفروق بين كرامات الأنبياء وما يشبهها، وما يأتي به الكهان والسحرة من أحوال شيطانية؛ لأن بينهما بعض الفروق ومنها:

أن كرامات الأولياء سببها الإيمان والتقوى، والأحوال الشيطانية ما نهى الله عنه ورسوله ﷺ، كما أنها تحصل بما يحبه الشيطان وبالأمور التي فيها شرك كالاستغاثة بالمخلوق، أو تكون بما يُستعان به على ظلم الخلق وفعل الفواحش، فهذه تكون من الأحوال الشيطانية لا من الكرامات الرحمانية، ومن هؤلاء من يستغيث بمخلوق إما حي أو ميت، سواء كان ذلك الحي مسلمًا أو نصرانيًا أو مشركًا، فيتصور الشيطان بصورة ذلك المُستغاث به، ويقضي بعض حاجة ذلك المستغيث فيظن أنه ذلك الشخص، أو هو ملك على صورته، وإنما هو شيطان أضله لما أشرك بالله تعالى كما كانت الشياطين تدخل الأصنام وتكلم المشركين، هكذا كانت الشياطين تفعل بهؤلاء.

ومن هؤلاء من يرى أشخاصًا في اليقظة يدعي أحدهم له أنه نبي أو صديق أو شيخ من الصالحين، وهو شيطان أتى إليه ليفسد عليه دينه، وهذه الأحوال الشيطانية تحصل في الحقيقة لمن خرج عن الكتاب والسنة، من خرج عن الكتاب والسنة تحصل له هذه الأحوال الشيطانية، والجن كما هو معلوم فيهم الكافر، والفاسق، والمخطئ، وإذا كان الإنس كافرًا أو فاسقًا أو جاهلاً دخل الجني فيه،

وعاونه على مسائل شيطانية وذلك كالإقسام بالجن دون الله تعالى، وبعض الناس -كما سمعنا- قد يكتب أسماء الله، أو يكتب بعض كلام الله ﷻ بالنجاسة، أو يكتب غير ذلك من الأمور الشرعية كالأحاديث النبوية وغيرها ويلقيها في المزابل وهذا بسبب الشيطان.

إذًا الكرامات من اللهِ ﷻ والشعوذةُ من الجن والشياطين، ومن فسق من الإنس استفاد منه الجن وجعله يعبده من دون الله، فظهر بهذا أن كرامات أولياء الله لا بد أن يكون سببها الإيمان والتقوى بخلاف ما يأتي به الكهان، فهي تكون مصاحبة للفسق والعصيان.

الفرق بين الولي الصادق والدعي الكاذب:

لأنه مما يتعلق بتمييز الكرامة عن غيرها من خوارق العادات التمييز بين الولي الذي يجوز أن تحدث له الكرامة وبين من هو أعلى منه منزلة، وهو النبي، أو من يدعي مثل منزلته كذبًا وبهتانًا، وهو المشعوذ، والساحر وغيرهم، فأما الفرقُ بين النبي والولي من جهة الخارق الذي يجري على يد كل منهما، فقد علمنا: أن النبي تجري على يده المعجزات، وهي نوعان كما سماها ابن تيمية معجزات كبرى وهي دليل صدقه، ونوع من التوابع والنوافل سماها معجزات صغرى.

أما الولي فتحدث على يديه الكرامات، وقد تشتبه بالمعجزات الصغرى ولكن النبي يختص بالعصمة دون الولي، فالمعجزة للنبي دليل على عصمته من الخطأ فيما أُرسل من أجله، وهو التشريع، أما الولي: فكرامته إنما تدل على صدق النبي الذي آمن به هذا الولي اتبعه في شريعته ولا تدل بحال على عصمته، ويمكن أن يخطئ الولي في بعض أعماله أو عباداته أو توجيهاته؛ لأنه لم يُرسل ويُصطفى

من الله ﷻ لهذا الغرض كالنبي، وإنما هو مجتهد فيه، أما النبي فقد اصطفاه ﷻ من عباده لهذا الغرض.

وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله: وكرامات الصالحين تدل على صحة الدين الذي جاء به الرسول ﷺ ولا تدل على أن الولي معصوم، ولا على أنه يجب طاعته في كل ما يقوله" ومن هنا ضل كثير من الناس من النصارى وغيره، فإن الحواريين مثلاً كانت لهم من الكرامات، كما تكون الكرامات لصالح هذه الأمة فظنوا أن ذلك يستلزم عصمتهم، كما يستلزم عصمة الأنبياء فصاروا يوجبون موافقتهم في كل ما يقولون، وهذا خطأ، والحقيقة: أن بعض المسلمين وقع فيما وقع فيه النصارى من الخطأ، ولهذا نجد بعض الصوفية قد يرفعون الولي إلى مرتبة تصل إلى مرتبة النبي وهذا في الحقيقة لا يكون أبدًا.

ثم أخيراً أقول: إن تمييز الولي الصادق الذي قد تُجرى على يديه الكرامات من الدعي الكاذب الذي يموه على الناس، ويخدعهم، إنما يكون بحسب صلاحه وتقواه، ومن ذلك أننا نجده يقوم بالفرائض والنوافل، ويتقي الكبائر والصغائر، ويتصف بالصفات الكريمة، ويستديم عليها، أما الكهان والمشعوذون والسحرة؛ فيكونون على خلاف ذلك حيث يشتهر الواحد منهم بالفسق والفساد والضلال وغير ذلك.

ومن هنا أقول إن ما يجري على يد هؤلاء وأمثالهم لا يُعتد به، ولا يكون من باب الكرامة في شيء، ولا في حال من الأحوال، فالكرامة للأولياء والأحوال الشيطانية للسفهاء والدجالين.

وبهذه الكلمات أيها الأحباب الكرام أنهي معكم هذا اللقاء، ومسك الختام الصلاة والسلام على خير الأنام ﷺ والسلام عليكم ورحمة الله.

توحيد الأسماء والصفات

عناصر الدرس

العنصر الأول : معنى توحيد الأسماء والصفات ٣٢١

العنصر الثاني : منهج السلف الصالح في الأسماء والصفات، وأنواع الصفات ٣٢٦

معنى توحيد الأسماء والصفات

معنى توحيد الأسماء والصفات مع ذكر بعض الأمثلة:

ما مفهوم الأسماء؟ وما المراد بها قبل الصفات؟

أقول وبالله التوفيق: يُراد بتوحيد الأسماء الأسماء الحسنى لله ﷻ والتي سمى الله بها -تبارك وتعالى- نفسه، وأسماء الله ﷻ اتصفت بالحسنى؛ لأنها تضمنت صفات الكمال لله ﷻ ولأنها حسنى حقًّا، في الأسماع وفي القلوب، وملؤها الحسن والجمال والكمال، وهي ليست أعلامًا محضة، ولكنها دالة على صفات الله ﷻ التي اشتق منها جميعًا له ﷻ الأسماء.

فأسماء الله ﷻ تدل على صفات الله -تبارك وتعالى- وذلك نحو اسم الله ﷻ العليم، فاسم الله العليم يدل على أن لله ﷻ علمًا محيطًا عامًّا لجميع ما خلق سبحانَهُ، فلا يخرج عن علمه مثقالُ الذرة، واسم الرحيم يدل على أن لله ﷻ رحمةً عظيمةً مطلقةً تسع كل شيء، واسم الله القدير يدل على أن له قدرةً عامةً مطلقةً في الكون لا يعجزها شيء وما إلى ذلك.

هذا هو معنى الأسماء يعني: أن أسماء الله -تبارك وتعالى- تدل على ذات الله ﷻ وهي كلها حسنى وليست أعلامًا محضة، ولكنها تدل على صفاتٍ ثابتةٍ لرب العالمين ﷻ جل في علاه- وكما ذكرت اسم الله العليم يدل على صفة العلم يدل على صفة العلم، واسم الله القدير يدل على صفة القدرة، واسم الله العزيز يدل على العزة، وغير ذلك من سائر ما اتصف به رب العباد سبحانه.

ونقصد بتوحيد الأسماء أن الله ﷻ وإن كثرت أسماؤه الحسنى؛ فهي لا تدل بحالٍ من الأحوال على تعدد المُسمى وعلى كثرته؛ إذ لا يُشترط ذلك حتى في دنيا

الناس اليوم، فنجد أحيانًا لبعض المخلوقات أسماء كثيرة كأن يُسمى إنسان مثلًا باسم المصلي كشهرة، أو يلقب بلقب، أو يُكنى بكنية، أو غير ذلك، فهذا لا يدل على تعدد في الشخص الذي كثرت أسماؤه، أو ذُكر له أكثر من لقب، وغير ذلك ولله ﷻ المثل الأعلى، فالله -تبارك وتعالى- تعددت أسماؤه وتوحدت ذاته سبحانه، فهو بأسمائه وصفاته إله واحد فليس الأمر، كما زعم المشركون قديمًا، أو النصارى حديثًا بقولهم: يزعم المسلمون أن لهم ربًّا واحدًا، وهم يعبدون آلهة متعددة.

فقد ورد أن سبب نزول الآية: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ [الأعراف: ١٨٠] أنها نزلت في رجلٍ من المسلمين كان يقول في صلاته: يا رحمن يا رحيم، فقال رجل من المشركين من مشركي مكة: أليس يزعم محمدٌ وأصحابه أنهم يعبدون ربًّا واحدًا، فما بال هذا يدعو ربين اثنين، فأنزل الله -تبارك وتعالى-: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وهو رد على المشركين أيضًا، ومعناه: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله ﷻ المانعين من تسميته يا رحمن: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، أي: لا فرق بين دعائكم له باسم الله أو اسم الرحمن، فإنه ذو الأسماء الحُسنى كما قال رب العالمين جل في علاه ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢].

وقد ورد في ابن كثير -رحمه الله- عن ابن عباس } قال: قال رسول الله ﷺ بمكة ذات يوم في دعائه: ((يا الله، يا رحمن)) فقال المشركون انظروا إلى هذا الصابئ ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو إلهين فأنزل الله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠].

هذا. ولا يُكتفى بأن تكون الأسماء الحسنى هي التسعة والتسعون اسمًا فحسب، بل إن لرب العالمين -جل في علاه- من الأسماء الحسنى ما لا يعلمه إلا هو كما في الحديث: ((اللهم إني عبدك ابن عبدك بن أمتك ناصيتي بيدك ماضٍ فيّ حكمك، عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرتَ به في علم الغيب عندك)).

فقد جاء في هذا الحديث: أن رب العالمين سبحانه استأثر ببعض أسمائه في علم الغيب عنده، يعني: أنه لا يعلمها إلا هو -جل في علاه- وقد قال نبينا ﷺ: ((إن لله تسعةً وتسعين اسمًا مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر))، وفي معنى: "أحصاها" أي: عدها وحفظها، وفهم معانيها، ودعا الله -تبارك وتعالى- بها دعاء عبادة، ودعاء مسألة مع تخير الاسم المناسب للمسألة، فيجرد الدعاء لله وحده، وبهذا يتحقق توحيد الله ﷻ ومن حقق التوحيد دخل الجنة.

وكما زعم ذلك المشركون قديمًا زعمته المسيحية الحديثة، إذ قالوا: يعيب علينا المسلمون أننا نعبد أقانيم ثلاثة باسم الأب، والابن، والروح القدس في الوقت الذي يعبدون هم كذلك ثلاثة في قولهم: بسم الله الرحمن الرحيم، بل إنهم لا يكتفون بهذا إذ يذكرون من الأسماء ما يصل إلى المائة أو يزيد عليها أحيانًا، وهذا الذي قاله عبدة الصليب ألقاه الشيطان إليهم كما ألقاه إلى أسلافهم من المشركين ليضل بها الذين آمنوا، وليضحك به على ضعاف الإيمانالجهلة من المسلمين ذلك أنه في أبسط الردود يُقال: إنكم تقولون باسم الأب والابن والروح القدس، ونحن لم نقل بسم الله والرحمن والرحيم، تلك الواو التي تقتضي العطف والمغايرة، كذلك في قولكم: بسم الأب، والابن، والروح القدس،

هناك مغايرة بين هذه الثلاثة، ولا يمكن أن تكون واحدًا كما زعمتم، إذ كيف تكون الثلاثة واحدًا أو الواحد ثلاثة.

أما في أسماء الله تعالى: فلا مغايرة بينها، ولا تدل على تعددٍ أو كثرة، وإنما تدل على صفاتِ الله عز وجل بطريقةِ الأسماء فهي منبثقة من صفاته التي منها الرحمة والملك، والهيمنة والعزة، والخلق والعلم، والحكمة، والنفع والضر.. إلى آخر ما اتصف به رب العلمين سبحانه، فأين هذا من ذلك؟ أو أين النور من الظلام؟ وما موقع الثرى من الثريا؟

وإننا إذ نذكر هذه الأسماء لرب العباد سبحانه ونعبده بها سبحانه أو ندعوه بها فإنما نحن نذكر شيئًا أو أشياء أخبرنا بها، وحدثنا عن نفسه سبحانه في قرآنه المحفوظ، فهي أسماء توقيفية، لا نزيد عليها، ولا ننقص منها.

وما استأثر رب العالمين سبحانه وتعالى بعلمه فيه لا نبحث عنه، ولا نجتهد فيه؛ إذ هو مما أخفاه رب العالمين سبحانه وتعالى عنا، ولم يكلفنا به، وما ورد من صفات الله عز وجل في سياق الآيات كصفة الخداع في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢]، أو المكر في قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤] أو الكيد كما في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦] أو الاستهزاء كما في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ [البقرة: ١٥].

وما جاء من مثل ذلك، إن هذه الصفات وأمثالها لا تُشتق منها أسماء لرب العالمين سبحانه فلا يُقال مثلًا من أسمائه الخادع، أو الماكر، أو الكايد، أو المستهزئ، أو الغاضب أو هكذا، لأن الأسماء -كما علمنا- توقيفية ومما يُعلم أن أسماء الله -تبارك وتعالى- قديمة بقدم ذاته، فهي أزلية بأزلية الله تعالى الذي

تسمّى بها، وليست مخلوقة، ولو كانت مخلوقة لفنيت كما يفنى كل مخلوق، فقد كان الله ﷻ خالقًا قبل أن يخلق، ورازقًا قبل أن يرزقَ ما زال بصفاتِهِ قديمًا قبل خلقِهِ لم يزدد بكونهم شيئًا لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزليًّا كذلك لا يزال عليها أبديًّا، فليس بعد الخلق رب العالمين سبحانه ليس بعد الخلق استفاد اسم الخالق، ولا بإحداثِهِ البرية استفاد اسم الباري، له معنى الربوبية ولا مربوب.

ومعنى الخالق ولا مخلوق فهو سبحانه وتعالى لا إله إلا هو وحده لا شريك له، ولا شيء مثله، ولا شيء يعجزه، ولا إله غيره، هو سبحانه وتعالى قديم بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء، لا يفنى ولا يغيب، ولا يكون إلا ما يريد، لا تبلغه الأوهام، ولا تدركه الأفهام، ولا يشبهه الأنام، هو سبحانه وتعالى حيٌّ لا يموت، قيوم لا ينام، خالق بلا حاجة، رازق بلا مؤنة، مميت بلا مخافة، باعث سبحانه وتعالى بلا مشقة، فله سبحانه وتعالى من الأسماء الحسنى ما يليق بجلاله وكماله سبحانه.

وأود أن أؤكد أن إثبات الأسماء لله ﷻ وهي كثيرة، وقلت: بأنها ليست أعلامًا محضة، وإنما تدل على صفات لرب العالمين سبحانه، هذه الأسماء التي تثبت لرب العالمين سبحانه، وهي أيضًا تدل على صفاتِهِ سبحانه، لا تدل على تركيب، أو تجزئة، أو تعدد، كما ذهب بعض الناس نتيجة بعض الشبهات لذلك.

فقد قال البعض: إننا إذا أطلقنا الأسماء على الله ﷻ وقلنا: بأنها تدل على صفاتِ لله -تبارك وتعالى- فهذا يفيدُ تعددِ القدماء، ونحن نقول لهم: ولرب العالمين المثل الأعلى، هذا الإنسان يتصف بالسمع والبصر والكلام وغير ذلك، ومع هذا لا يدل ذلك على كثرة فيه.

ما المراد بتوحيد الصفات:

إن الله -تبارك وتعالى- وصف نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ بصفات عليا، وتعبد المؤمنين بها، وبوصفه بها سبحانه وتعالى وتوسلنا إليه يقربنا إليه -جل في علاه- وبالتالي يجب علينا أن نؤمن بما ورد من صفات الله عز وجل وأن نطلقها عليه كما أراد سبحانه وتعالى منها أن نطلقه عليها، لأنه هو الذي أعلمنا بهذه الصفات وهو الذي أخبرنا بها سبحانه وتعالى جل في علاه، ومن شبه تلك الأسماء والصفات بأسماء وصفات المحدثين فقد كفر، وأشرك برب العالمين كذلك من نفى عنه ما وصف به نفسه أو سماه بغير ما أطلقه هو على نفسه، أو وصف ربه بما لم يثبت عن الله عز وجل فالعبد بهذا يكون مخالفًا لشريعة الإسلام.

ويجب علينا أن لا نتردد في إثبات ما أثبته رب العالمين سبحانه وتعالى لنفسه، وما أخبرنا ربنا عنه به في كتابه، كذلك نجد لو نظرنا في السنة النبوية المطهرة سنجد أن النبي ﷺ قد أطلق صفات على رب العالمين سبحانه وتعالى جل في علاه، كما سمى ربه سبحانه وتعالى بأسماء وأطلقها على الله عز وجل ونحن يجب علينا أن نتأسى بنبينا ﷺ.

منهج السلف الصالح في الأسماء والصفات، وأنواع الصفات

أ- منهج أهل السنة في الأسماء:

أبدأ بأسماء رب العالمين سبحانه وتعالى جل في علاه- وأبين منهج أهل السنة والجماعة في إثباتهم لصفات رب العالمين سبحانه فأقول:

أهل السنة والجماعة يثبتون أسماء الله -تبارك وتعالى- ويرون أنه يجب على كل موحد أن يثبت ما أثبته الله -تبارك وتعالى- لنفسه من الأسماء الحسنى وما أثبته

له رسوله ﷺ وأسماءه تعالى تُطلق عليه حقيقة لا مجازًا وقد نقل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله -تبارك وتعالى- باتفاق أهل السنة والجماعة على إثبات ما ورد من أسماء حسنى لرب العالمين سبحانه وذلك لأن هذه الأسماء لم يطلقها أحد على رب العباد جل في علاه، وإنما الذي أطلقها هو الله ﷻ ﷻ فنحن لم نطلق على الله ﷻ هذه الأسماء، وإنما أطلقها عليه رب العباد سبحانه، أطلقها على نفسه أو وردت من طريق صحيح عن النبي ﷺ وأهل السنة والجماعة لا يخرجون في هذا الباب، ولا في غيره عن الوارد عن الله، أو عن رسوله ﷺ ويقولون به ويجتمعون عليه.

ولذلك نجد أن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله -تبارك وتعالى- نقل اتفاق أهل السنة والجماعة على إثبات لرب العباد، فقال: كما جاء في كتابه أو رسالته "التدمرية" قال: "وقد اتفق جميع أهل الإثبات على أن الله حي حقيقة عليم حقيقة قدير حقيقة سميع حقيقة بصير حقيقة".

إذًا الذي أود أن أبينه أولًا في منهج أهل السنة في الأسماء أننا نثبتها لرب العالمين سبحانه على وجه الحقيقة، وقد وصف الله تعالى أسماءه بأنها حسنى كما في قوله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، والمراد بهذا الوصف أي أنها بالغة الغاية في الحسن والكمال والجلال، وكما أن أهل السنة والجماعة يثبتون أسماء الله ﷻ على ما يليق بجلاله وكماله فإنهم أيضًا ينفون عنه مماثلة المخلوقين كما في قول الله ﷻ ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴾ [مريم: ٦٥].

فالله ﷻ نفى عن نفسه أن يكون له شبيه أو نظير أو مثيل، وأهل السنة والجماعة يذهبون إلى ما ذكره ربنا ﷻ عن نفسه، وفي القرآن الكريم وفي سورة الشورى يقول سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]، وأما

إذا وردَ تسمية المخلوق مثلًا بأنه العزيز أو الرحيم أو نحو ذلك من الأسماء فأود أن أبين أن اتفاق الاسمين لا يعني تماثلهما، فالاشتراك بين اسمين من الأسماء لا يدل على أن ما أُطلق عليهما شيء واحد.

وقد بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تبارك وتعالى- فقال: "واتفاقهما في اسمٍ عامٍ لا يقتضي تماثلهما في مسمى ذلك الاسم عند الإضافة والتقييد والتخصيص، ولهذا سمى الله نفسه بأسماء وسمى صفاته بأسماء فكانت تلك الأسماء مختصة به إذا أضيفت إليه لا يشركه فيها غيره، وسمى ﷻ بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم، مضافة إليهم، توافق تلك الأسماء إذا قُطعت عن الإضافة والتخصيص، ولا يلزم من اتفاق الاسمين تماثل مسماهما، واتحاده عند الإطلاق والتجريد عن الإضافة والتخصيص باتفاقهما، ولا تماثل المسمى عند الإضافة والتخصيص فضلًا عن أن يتحد مسماهما عند الإضافة والتخصيص".

ومعنى هذا الكلام الذي ذكره شيخ الإسلام رحمه الله أننا يمكن أن نجد شيئين نطلق عليهما صفة واحدة ومع ذلك فكلاهما يتفاوت عند الآخر، ويُعرف هذا عند الإضافة، فإذا مثلًا قلنا وأضفنا قوة إلى الأسد لا شك أن الإنسان قد يوصف بشيء من القوة إلا أن قوة الأسد تختلف عن قوة الإنسان، والله ﷻ قد بين أو ذكر أمثلة في كتابه توضح لنا أن الاشتراك الواقع في الأسماء والصفات بين أكثر من شيء لا يدل على أن الاشتراك يقع بينهما في كل شيء، وبيان ذلك كالتالي:

سمى الله ﷻ نفسه حيًا، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وسمى بعض عباده حيًّا، فقال تعالى: ﴿ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ ﴾ [يونس: ٣١]، وليس الحي مثل الحي؛ لأن قوله هنا الحي في الآية الأولى اسم لله تعالى مختص به مضاف إليه.

أما الحي في الآية الثانية: فهو اسم للمخلوق الحي مختص به مضاف إليه، وأما اشتراك الاسم عند إطلاقه وعدم إضافته فقد ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: "ولكن ليس للمطلق مسمى موجود في الخارج، ولكن العقل يفهم من المطلق -يعني من الاسم المطلق- دون أن يكون مقيدًا بإضافة، قد يفهم العقل من المطلق قدرًا مشتركًا بين المسميين وعند الاختصاص أو الإضافة مثلًا يُقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق، والمخلوق عن الخالق، فإذا قلنا: بأن الإنسان إذا كان موجودًا حي والله ﷻ يتصف بصفة الحياة فلا يعني ذلك أن حياة المخلوق كالخالق، كذلك أيضًا الإنسان قد يكون عنده شيء من العلم، والله ﷻ سمى نفسه بالعليم واتصف بصفة العلم فإطلاق العلم على بعض المخلوقين لا يدل على تماثل أو تشابه بين الله وبين خلقه.

ومما يجدر التنبيه عليه أن الإيمان بأسماء الله الحسنى يتضمن كثيرًا من الأمور ولعلني أذكر نبذًا يسيرة منها كما يلي:

أولًا: أن أسماء الله تعالى أعلام باعتبار دلالتها على الذات، وهي مترادفة بهذا الاعتبار لأن مسماها واحد وهو الله تعالى، وأوصاف باعتبار دلالتها على المعاني وهي متباينة بهذا الاعتبار بأن كل اسم يدل على معنًا خاص.

ثانيًا: الإيمان بأسماء الله كما وردت في النصوص من جهة الإطلاق والتقييد فمثلًا اسم الله -تبارك وتعالى- العزيز يُسمى الله به مطلقًا دون تقييد ويُشتق منه صفة لله ﷻ كذلك بإطلاق، وكذا يكون الإطلاق في الإخبار عنه بذلك، فيقال عنه: إنه ذو عزة قاهرة، وباشتقاق الفعل منه فيقال يعز من يشاء، وقد يكون بعض أسماءه لا تأتي إلا مضافة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢]، وهذا لا يُسمى الله تعالى به إلا مقيدًا مضافًا.

وكذا اشتقاق الصفة أو الفعل، وكذا الإخبار عنه لا يكون إلا مقيدًا مضافًا، وأنا أؤكد أننا لا نصف الله ﷻ بصفة المكر أو الخداع ولا نشتق له صفة لقوله مثلًا: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ لأن هذا جاء من باب المشاكلة، إلى جانب أنه مقيد، يعني أنه وقع في مقابلة خداع المنافقين، وهو في هذه الحالة يكون حسنًا في هذا الموطن فلا يُقال على رب العالمين ﷻ مطلقًا، ولا يوصف به رب العباد سبحانه.

ثالثًا: الإيمان بما يتعلق بأسماء الله تعالى من الآثار سواء كانت هذه الآثار أثارًا كونية تتعلق بالموجودات أو آثارًا وجدانية تتعلق بالقلب ولا يفوتني هنا أن أبين أن أسماء الله -تبارك وتعالى- لا تُعرف إلا عن طريق النقل الصحيح، ولا مدخل للعقل فيها بحال من الأحوال، حيث إنها من قبيل الخبر عن الله تعالى، والخبر لا يمكن إدراكه بالعقل، ولهذا فإن أسماء الله تعالى كلها توقيفية، أسماؤه ﷻ توقيفية، ولا يجوز تسمية الله تعالى بما لم يسم به نفسه، والحقيقة أن تسمية الله تعالى بما لم يسمي به نفسه.

والحقيقة: أن تسمية الله تعالى بما لم يسمِّ به نفسه هو مثل إنكار ما سمى الله تعالى به نفسه، لأن التسمية تكون لمن له حق فيها، وتعدي ذلك يعني أن يسمي الإنسان ربه بأسماء أو أن يصفه بصفات دون أن تكون مأثورة عن رب العزة والجلال، أو عن النبي ﷺ هو في الحقيقة من القول على الله بغير علم، وفيه التعدي على مقام رب العالمين -جلا في علاه.

وهنا ينبغي توضيح أن من منهج أهل السنة والجماعة أن أسماء الله تعالى مأخوذة من القرآن الكريم، والقرآن الكريم هو كلام الله تعالى غير مخلوق، وبناءً على ذلك فإن أسماء الله تعالى لا تكون مخلوقة تبعًا لكلامه تعالى وقد ذكر السلف -رحمهم الله- أن من زعم أن أسماء الله تعالى مخلوقة فهو جهمي.

وقد بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله -تبارك وتعالى- فقال: "والذي كان معروفًا عند أئمة أهل السنة والجماعة كالإمام أحمد وغيره الإنكار على الجهمية الذين يقولون أسماء الله مخلوقة، فيقولون الاسم غير المسمى وأسماء الله غيره، وما كان غيره فهو مخلوق، وهؤلاء هم الذين ذمهم السلف وغلظوا فيهم القول بأن أسماء الله ﷻ من كلامه وكلام الله -تبارك وتعالى- غير مخلوق، بل هو المتكلمُ بِهِ سبحانه وتعالى جل في علاه- وهو المُسمي لنفسه بما فيه من الأسماء".

وهذا كلام نفيس ودقيق للغاية فأهل السنة والجماعة حقًّا كانوا ينكرون على الجهمية موقفهم من أسماء رب العالمين سبحانه وتعالى وصفاته، وكانوا يغلظون القول فيهم؛ لأنهم استخدموا عقولهم، وردوا النصوص الثابتة عن الله ﷻ وعن رسوله ﷺ وأولوها على غير وجهها وردوها ردًّا صريحًا واضحًا، وهذا يتنافى مع التسليم لما جاء عن الله ولما جاء عن رسول الله ﷺ.

وبعد أن بينت منهج أهل السنة والجماعة في الأسماء الحسنى أحب أن أنبه إلى أن إثبات الأسماء الحسنى لله ﷻ مع كثرتها لا يعارض التوحيد وهذا أمر أؤكد عليه حتى لا تكون هناك شبهة لدى طالب العلم، لدى هذا الطالب الذي يتعلم ويدرس عقيدة أهل السنة والجماعة، فكثرة الأسماء لا تعارض توحيد رب العالمين وأنه إله واحد جل في علاه، لأن هذه الأسماء المتعددة هي أسماء لمسمىً واحد وهو الله تعالى ولا يلزم من إثبات الأسماء تعدد الآلهة بعدد هذه الأسماء، كما يظنه نفاة الأسماء الحسنى من غلاة الجهمية فإن كثيرًا من الناس بل والدواب يكون له أسماء متعددة مع أن مسماه واحد، فالأسد مثلًا له بضع وسبعون اسمًا مع أن مسماه وحقيقته واحدة.

ومن المعلوم عند العقلاء أن كثرة الأسماء تدل على عظمة المُسمى، فإذا كان هذا في المخلوق فالخالق سبحانه وتعالى أولى وأحرى، وقد قرأ الصحابة { القرآن، وفيه من

الأسماء الكثيرة المتعددة لرب العالمين -جل في علاه- ولم يخطر ببال أحد منهم أن هذا يستلزم تعدد الآلهة، ومن ظن أن تعدد الأسماء يستلزم التركيب وهو ممتنع حق الله تعالى فظنه فاسد؛ لأن التركيب بهذا المعنى لا مانع منه، وقد جاء به القرآن، بل إن كل من تكلم في الله ﷻ قد وصفه وسماه بأوصاف متعددة حتى الفلاسفة الذين هم مصدر هؤلاء في منع التركيب يقولون عنه: إنه عاشق ومعشوق، وقد يقولون هو لذة ولذيذ وملتذ وغير ذلك من التعبيرات الفاسدة، ونحن لا نوافقهم على هذه العبارات، ولا نقول بأن كثرة الأسماء تستلزم التركيب أو التبعيض أو غير ذلك فإن هذا كلام فاسد ولو كان يلزم شيء من ذلك في إثبات أسماء الله الحسنى وصفاته العلى ما أثبتها الله ﷻ لنفسه ولا أثبت منها شيئًا نبيه ﷺ.

وكذلك المعتزلة هؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم هم أهل العدل والتوحيد لا يمانعون من وصفه بالصفات السلبية المتعددة، ما دام أنه لا يتضمن معنًا ثبوتيًا، وقد ذكر القاضي عبد الجبار في شرحه للأصول الخمسة ذكر مجموعة من الصفات السلبية، ولا يمانع من إطلاقها على الله تعالى وغير هؤلاء من باب أولى.

والحقيقة أن قضية تعدد أسماء الله تعالى وأنها من التوحيد واضحة غاية الوضوح بينة لولا ما ذكره هؤلاء وشغب به هؤلاء عليها وقولهم معلوم الفساد بالضرورة.

ب- منهج أهل السنة والجماعة في الصفات:

كما بينت في النقطة السابقة بوضوح منهج أهل السنة والجماعة في أسماء الله -تبارك وتعالى- وتناولت أيضًا الذين يقولون بأن كثرة هذه الأسماء يلزم منها التركيب والتعدد والتجزئة ورددت عليهم في ذلك أود أن أبين هنا منهجهم رحمهم الله -تبارك وتعالى- في صفات الله ﷻ:

يرى أهل السنة والجماعة أن المصدر الأساسي لتلقي عقيدة صفات الله تعالى هو القرآن والسنة، ولقد كانوا رحمهم الله أكمل الناس اتباعًا لنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فإننا عندما نطابق بين عقيدتهم في صفات الله تعالى وبين القرآن والسنة نجد اتفاقًا تامًّا وانسجامًا واضحًا بينهما، بل إن العقل السليم الصحيح لا يعارض ذلك بحال من الأحوال، وكيف يعارضه وما ثبت عن الله وارد عنه ﷻ؟

ولذلك فإن أهل السنة والجماعة يثبتون ما أثبته الله تعالى لنفسه، وما أثبته له رسوله ﷺ من صفات الكمال وينفون عنه سبحانه ما نفاه تعالى عن نفسه، وما نفاه عنه رسوله ﷺ من صفات النقصان، وهم في ذلك يقفون عند النصوص الواردة، وقد قرر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تبارك وتعالى- منهج أهل السنة والجماعة في الصفات بقوله "فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات إثباتًا بلا تشبيه، وتنزيهًا بلا تعطيل"، ثم بين رحمه الله أن الإثبات والنفي وُجد في آية واحدة في كتاب الله ﷻ وهي قوله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١]، وقد قال رحمه الله في بيان ذلك قال الله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾، ففي قوله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ رد للتشبيه والتمثيل، وفي قوله وهو السميع البصير رد للإلحاد والتعطيل.

وإذا تأملنا منهج أهل السنة في الصفات نجد أنه مبني على قاعدتين مهمتين الأولى قاعدة الإثبات، والثانية قاعدة النفي، وقد أشار إلى ذلك ابن تيمية -رحمه الله- فقال: "إن الله سبحانه موصوف بالإثبات والنفي، فالإثبات كإخباره أنه بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير، وأنه سميع بصير، ونحو ذلك، والنفي كقوله سبحانه: ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]".

وقد ذكر شيخ الإسلام -رحمه الله- أن الله ﷻ بعث رسله بإثبات مفصل، ونفي مجمل، فإنه إذا كثرت صفاته الثبوتية مع تنوع دلالاتها ظهر كماله وجلاله بها؛ فالمدح والكمال إنما يكون بالصفات الثبوتية، لا بالصفات العدمية السلبية إلا إذا تضمنت ثبوتًا فإن مجرد النفي لا يتضمن مدحًا ولا كمالًا.

وقد بين ابن تيمية -رحمه الله تبارك وتعالى- ذلك فقال: وينبغي أن يُعلم أن النفي ليس فيه مدح، ولا كمال إلا إذا تضمن إثباتًا، وإلا فمجرد النفي ليس فيه مدح ولا كمال؛ لأن النفي المحض عدم محض، والعدم المحض ليس بشيء، وما ليس بشيء هو كما قيل ليس بشيء، فضلًا عن أن يكون مدحًا أو كمالًا؛ ولأن النفي المحض يوصف به المعدوم والممتنع، والمعدوم والممتنع لا يوصف بمدح ولا كمالًا، ولهذا فإننا نجد أن عامة ما نفاه الله تعالى عن نفسه متضمنًا لإثبات كمال الضد، فقوله تعالى مثلًا: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فنجد هذه الآية نجد أن الله -تبارك وتعالى- فيها نفى عن نفسه السِنة والنوم، ونفي السِنة والنوم هنا يتضمن كمال الحياة والقيومية لرب العباد جل في علاه، وكقوله سبحانه ﴿ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [سبأ: ٣] فإن نفي العزوب مستلزمٌ لعلمه بكل شيء في السماوات والأرض، ولعل من الأمور المهمة في منهج أهلِ السنةِ في الصفات أنهم لا يسألون عن صفات الله تعالى بكيف، فإن صفات الله ﷻ وإن كان لها كيف في نفس الأمر إلا أن العباد لا يعلمونه، بل هو مما لا يعلمه إلا الله -جل في علاه- فالكيف، وحقيقة الصفة على ما هي عليها أمر استأثر الله بعلمه.

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تبارك وتعالى- ذلك بقوله: "إن العلم بكيفية الصفات ليس بحاصل لنا؛ لأن العلم بكيفية الصفة فرع عن العلم

بكيفية الموصوف، فإذا كان الموصوف سبحانه لا تُعلم كيفيته امتنع أن تُعلم أيضًا كيفية الصفة".

وعندما يثبت أهل السنة والجماعة الصفات لله فإنه لا يلزمهم التمثيل بصفات المخلوقين، وكذلك إذا نفوا عنه مماثلة المخلوقين فإنه لا يلزمهم نفي الصفات الثبوتية عنه؛ حيث إن أهل السنة يثبتون لله تعالى صفات الكمال والجلال مع نفي مماثلة المخلوقات، وهذا الجمع بين الإثبات والنفي هو الذي أبعدهم عن ورطةِ التعطيلِ والتمثيل، وأهل السنة والجماعة وسط بين نفاة الصفات الذين فهموا أن النفي يلزم منه عدم إثبات الصفات، وبين المشبهة الذين فهموا من الإثبات أنه يلزم منه مشابهة المخلوقين، فإذا قال نفاة الصفات: إن الله تعالى نفى عن نفسه مشابهة المخلوقات، قلنا لهم: إن الله تعالى قد أثبت لنفسه الصفات كما أنه نفى عن نفسه مشابهة المخلوقات، ولا بد من تصديقه في الأمرين جميعًا، وهكذا يُقال للمشبهة إذا ذكروا إثبات الصفات أن نقول لهم، وكذلك هو سبحانه الذي أثبتها نفى عن نفسه مشابهة المخلوقات.

ومما ينبغي أن أنبه عليه في هذا المقام هو أن النفاة والمشبهة يحتجون بحجة واحدة، وهي أن ما ورد في إثبات الصفات لا يُعرف معناه إلا ما وُجد في المخلوقات، ثم غلبوا جانب النفي لذلك.

النفاة غلبوا جانب النفي لهذا، والمشبهة غلبوا جانب الإثبات فصار كل فريق في طرف، والحق: هو أن ما ورد من الصفات الثبوتية كالعلم والإرادة والقدرة واليد والنزول، وغير ذلك من الصفات لا يتميز معناه إلا إذا أضيف، أما عند الإطلاق فلا يتعين له معنًى محددًا، وقد سبق أن ذكرت أن القدر المشترك بين الأسماء إذا أطلق لا يختصُّ بأحدٍ دون الآخر إلا إذا أُضيف وكذلك الأمر في الصفات.

وقد أوضح ذلك أيضًا ابن تيمية أيضًا -رحمه الله- فقال: "والقدر المشترك مطلق كلي لا يختص بأحدهما دون الآخر، فلم يقع بينهما اشتراك لا فيما يختص بالممكن المحدث، ولا فيما يختص بالواجب القديم".

ومما ينبغي أن يُعرف في هذا القدر المشترك هو أنه كلي لا يوجد في الخارج إلا معينًا مقيدًا، فإذا قلنا مثلًا علم وقدرة ويد ونزول وعين ونحو ذلك، فإنه يُفهم منها معنًى عامًّا لا يتحدد إلا إذا أضيف، وهذا المعنى المفهوم من الصفات السابقة لا يلزم منه محذور أصلًا؛ بل إن إثبات هذا هو من لوازم الوجود؛ إذ إن كل موجودين لا بد بينهما من شيء يُطلق عليهما، ولكن هذا عند الإضافة يختلف عن هذا بلا شك، وهذا أمر واضح عند أهل السنة والجماعة بينه ابن تيمية -رحمه الله تعالى- عندما ذكر أن إثبات القدر المشترك لا يتضمن محذورًا بحال فقال: "ولازم هذا القدر المشترك ليس ممتنعًا عن الرب تعالى فإن ذلك لا يقتضي حدوثًا ولا إمكانًا، ولا نقصًا، ولا شيئًا مما ينافي صفات الربوبية.

ومما سبق نعلم أن أهل التعطيل وأهل التمثيل لم يفهموا حقيقة القدر المشترك بين صفات الله تعالى وصفات المخلوقين، فقد ظن أهل التعطيل أن القدر المشترك حاصل في الصفات الثبوتية وأنه يستلزم التمثيل وقد نفى الله تعالى مماثلة صفاته لصفات المخلوقين، فبنوا على هذا نفي الصفات عن الله تعالى، وكذلك ظن أهل التمثيل أن إثبات القدر المشترك يستلزم التمثيل، وأثبت الله تعالى الصفات، فبنوا على هذا دعوى أن صفات الله تعالى مماثلة لصفات المخلوقين.

ولا شك أن هذا خطأ؛ فالحق ليس مع هؤلاء، وليس مع هؤلاء فأهل السنة والجماعة يثبتون لله ﷻ الصفات الواردة عن الله، ولا يكيفون شيئًا من ذلك، ولا يردون شيئًا من ذلك، وقد اعتمدوا في هذا على ما جاءهم عن الله في كتابه وما ورد عن النبي ﷺ.

فأهل السنة والجماعة يدورون مع النص الشرعي حيث دار، فلا يثبتون إلا بعلم ولا ينفون إلا بعلم وهذا هو الحق الذي يجب اتباعه في هذا الباب وخلاصة القول في أسماء الله وصفاته أنها تُثبت على ما ورد لله ﷻ وعلى ما يليق به سبحانه مع التأكيد على أنه -جل في علاه- لا يشبه أحدًا منه خلقه ولا يشبهه أحد من خلقه، فهو سبحانه لا كفء له ولا شبيه ولا نظير ولا مثيل جل في علاه.

ج- أنواع الصفات:

ذكر أهل السنة والجماعة أنواعًا للصفات الإلهية، وهذه الأنواع مأخوذة من الكتاب والسنة؛ حيث إن المعاني التي تضمنتها الصفات على أنواع متعددة، واختلاف أنواع الصفات هو باختلاف متعلق الأنواع، وينبغي أن نشير إلى أن هذه الأنواع هي للصفات الثبوتية، ولذلك أنا سأقتصر على أنواع الصفات أو على ذكر أنواع الصفات باعتبار تعلقها بالرب -جل وعلا- فأقول:

إن الصفات باعتبار تعلقها بالله ﷻ على نوعين:

النوع الأول: صفات ذاتية: وهي الصفات التي لا تنفك عن الرب -جل وعلا- بحال من الأحوال، فالصفات الذاتية لا تنفك عن الله ﷻ وهي تعتبر من لوازم ذاته، وتصور انفصالها عنه هو فرض لتصور العدم له، ولعلنا نلاحظ في هذه الصفات أنها من مكونات الذات، فلا تتعلق بالإرادة ولا بالمشيئة، ويُمثل بهذه الصفات بالعلم والحياة واليدين والسمع والبصر والقدرة والإرادة ونحو ذلك.

النوع الثاني: صفات فعلية: وهي الصفات التي تتعلق بالإرادة والمشيئة، بمعنى إن شاء الله ﷻ فعلها وإن شاء لم يفعلها، وهذه الصفات الفعلية ذاتية من جهة

اتصاف الرب ﷻ بها أزلًا وأبدًا فلم تحدث له ﷻ صفة بعد أن لم يكن متصفًا بها، بل هي صفاته سبحانه لم يزل متصفًا بها ماضيًا ومستقبلًا.

والصفات الفعلية بعضها متعدٍ إلى مفعول، كالخلق والرزق والإحياء والإماتة، وبعضها لازم لا يتعدى إلى مفعول كالضحك، والغضب، والاستواء والإتيان والمجيء، ونحو ذلك، ولهذا فإن الصفات الفعلية نوعان؛ لازم ومتعدٍّ -كما سبق أن ذكرت.

إذًا أخلص من هذا إلى أن الصفات باعتبار تعلقها بالله ﷻ إما أن تكون صفات ذاتية يعني ملازمة للذات أزلًا وأبدًا، أو صفات فعلية تتعلق بإرادة ومشيئة الله ﷻ إن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها، فالغضب مثلًا من صفات الأفعال؛ لأنه يحدث وقت ما يريد رب العالمين ﷻ جل في علاه.

وموضوع الأسماء والصفات يجب أن نسلم لله فيه كما ورد، وأنا أعرف أن طالب العلم قد درس مستويات متعددة في التوحيد، وأصبح عنده فكرة عامة عن هذا النوع من أنواع التوحيد.

العلو، والاستواء، والمعية

عناصر الدرس

العنصر الأول : الأدلة على إثبات صفة الاستواء والعلو لله تعالى ٣٤١

العنصر الثاني : معية الله لخلقه، وبيان أنها لا تناقض علوه عليهم ٣٥٠

الأدلة على إثبات صفة الاستواء والعلو لله تعالى

أود أولًا أن نثبت هذه الصفة الجليلة لرب البرية ﷻ جل في علاه- ثم أتحدث عن المعية بعد ذلك، فأقول: إن هذه الصفة وردت في كتاب الله ﷻ في عديد من الآيات القرآنية؛ أعني صفة العلو، أما التعبير عنها بصيغة استوى فقد ورد ذكره في سبع آيات من القرآن الكريم سأذكرها هنا على ترتيب السور؛ وذلك لأهمية هذه الصفة وإثباتها لله هذا أولًا، وثانيًا لنبين للجميع أننا عندما ندين الله بعقيدة إنما نعتمد في ذلك على كتاب الله ثم على ما سأذكره بعض من صحيح سنة رسول الله ﷺ ثم سأذكر أيضًا بعض أقوال أهل العلم المؤيدة لذلك.

فأبدأ هنا أولاً بذكر السور التي وردت فيها، وقد جاء فيها أن الله استوى على العرش:

أما الآية الأولى: فقد وردت في سورة الأعراف في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

الآية الثانية: في سورة يونس في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ [يونس: ٣].

أما الآية الثالثة: فهي آية سورة الرعد: وهي قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الرعد: ٢].

الآية الرابعة: وردت في سورة طه في قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ١-٥].

الآية الخامسة: وردت في سورة الفرقان في قول الله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٨، ٥٩].

أما الآية السادسة: فقد جاءت في سورة السجدة في قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ [السجدة ٤، ٥].

أما الموضع السابع والأخير الذي وردت فيه صيغة استوى: فقد جاء في سورة الحديد في قول الحق -تبارك وتعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤].

فهذه الآيات الكريمات وما في معناها أتت بعدة نصوص، وكذلك وردت بعض الأحاديث التي سيأتي ذكر بعضها -إن شاء الله- كلُّ هَذَا يدل على استواء الله -تبارك وتعالى- وعلوه على خلقه كما يليق به، والآيات السبع السابقة تنص على أن الله تعالى استوى على عرشه بعد أن خلق السماوات والأرض استواءً يليق بجلاله وكماله، ولا نعلم منه إلى المعنى العام المفهوم من الوضع.

إذًا هنا أمران، أو صفتان، صفة الاستواء على العرش، وهي صفة فعلية خبرية كما دلت عليها الآيات السابقة، صفة العلو وهي صفةٌ ذاتيةٌ لازمةٌ للذات، بمعنى: أنه تعالى لم يزل في علوه، وهي في الوقتِ نفسِهِ عقلية وسمعية، أي: فهي ثابتةٌ بالعقل والفطرة والسمع، بل السمعُ جاء مؤكدًا بما آمن به العباد

بفطرهم، وبعقولهم من أن الله يُدعى من فوق وتُرفع إليه أكف الضراعة، وقلوب العبادِ مشدودةٌ إلى فوق، ولو في حال وضعهم جباههم على الأرض ساجدين لربهم الأعلى الذي يراهم من فوقهم، ويجيب دعوتهم، وهم ساجدون له سبحانه.

وهذا الاعتقاد ضروري لا يستطيع أي إنسان دفعه عن نفسه، ومن الحكم اللطيفة أن شرع الله لعباده أن يقولوا في سجودهم "سبحان ربي الأعلى"، شرع لهم ذلك على لسان نبيه ﷺ وفي هدي رسوله ﷺ إشارةٌ إلى علوهِ الدائم، حتى لا يُفهم من سجود العبد على الأرض أن معبوده في أسفلَ منه، حاشاه، بل كلما يزداد العبد خضوعًا وتذللًا لمعبوده العلي العظيم؛ ازداد منه قربًا معنويًّا، ومعية خاصة، تخص خواص عباده المؤمنين، وفي هذا يقول الرسول ﷺ كما في (صحيح مسلم) وغيره ((أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد؛ فأكثروا الدعاء)).

ومن الآيات التي تدل على علو الله على خلقه علاوة على الآيات السبع التي أشرت إليها سابقًا، وهي تنصُّ عَلَى استواءِ اللهِ على عرشه، كما يليق به، من الآيات الدالة على علو الله على خلقِهِ ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل: ٥٠]، وقد جاءت الفوقية في هذه الآية مقرونة بحرف من، وهي معينة للفوقية بالذات، وهو معنىً معروف عند أهل اللغة.

ومن الآيات أيضًا قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج: ٤]، وهي تدل على أن الله في أعلى؛ لأن الملائكة تعرج، يعني: تصعد.

ومن الأدلة أيضًا ما جاء في قول الله تعالى في شأن عيسى # : ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ [النساء: ١٥٨]، ومنه قوله: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران: ٥٥].

ومن ذلك أيضًا ما جاء في قول الله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، ومن أصرح وأوضح الأدلة أيضًا: قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦]، ومن في السماء هو الله، وليس في هنا بمعنى الظرفية، وإنما هي بمعنى على، فمعنى الآية: أأمنتم من على السماء، وفي تأتي بمعنى على في القرآن أيضًا في مواضع أخرى كما ذكر الله ﷻ أن فرعون قال لقومه: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾ [طه: ٧١]، ومن المعلوم بداهة أن التصليب لا يكون في جذوع النخل، وإنما يكون على الجذوع.

وبعد هذا أقول: إن هناك آيات كثيرة أخرى تدل على ذلك دلالة واضحة؛ أعني تدل على علو الله على خلقه، وأنه سبحانه وتعالى مستوٍ على عرشه.

وبعد ذكرٍ لبعض الآيات في الاستواء والعلو أضيف إليها هنا بعض الأحاديث الواردة في هذا المعنى، وسأقتصر إن شاء الله -تبارك وتعالى- على الصحيح فحسب؛ لأنه هو الذي يُعتمد عليه في مسائل الاعتقاد، وفيه كفاية إن شاء الله لمن أراد الحق وأراد أن يهتدي إليه.

من الأحاديث -وهي كثيرة- الدالة على علو الله على خلقه ما جاء في قول النبي ﷺ ((إن الله لما قضى الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتي سبقت غضبي)) وفي رواية غلبت غضبي، وفي الصحيح أيضًا ما جاء عن أم المؤمنين زينب بنت جحش > وهي تعتز وتفتخر على أمهات المؤمنين زوجات النبي -رضي الله عنهن- إذ كانت تقول لهن: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات.

ويستدل بقول أم المؤمنين زينب < هذا أنها قالت ذلك؛ اعتقادًا منها بأن الله فوق خلقه، وهو اعتقاد كل صاحب فطرة سليمة، وقالت هذا القول لزوجات النبي ﷺ وهن يسمعن، ولم يعترض أحد من السامعين على ذلك.

وهذا يدل أيضًا على فقه السلف -رحمهم الله- وعلى رأسهم الصحابة بصورة عامة، يدل على فقههم في هذا الباب، وأنهم كانوا يفهمون معاني النصوص على ظواهرها مع التنزيه بمعناها الصحيح، والمعنى أو أقصد أنهم يثبتون إثباتًا لا يتضمن تشبيهًا أبدًا.

أيضًا من الأحاديث الدالة على استواء الله وعلوه على خلقه ما جاء في قول النبي ﷺ عند تفسيره لقول الله تعالى ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، فسَّرَ النبيُّ ﷺ هذه الأسماء الثابتة لله بقوله: ((أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء))، وقد قال أهل العلم المراد بالظهور هنا العلو ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧] أي يعلوه، وقالوا فهذه الأسماء الأربعة متقابلة، اسمان منها لأزلية الرب ﷻ وأبديته واسمان لعلوه ﷻ وقربه.

وهو سبحانه قريب في علوه كما يليق به وعليٌ في قربه، ومن الأحاديث أيضًا قوله ﷺ: ((يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فيصعد الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم..)) إلى آخر ما ورد في الحديث من ذلك، وقوله ﷺ أيضًا: ((إن الله يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفرًا))، ولا شك أن العبد يرفع يديه إلى السماء معتقدًا أن الله ﷻ في أعلى عليين.

ومن هنا نفسر إشارةَ النبي ﷺ بأصبعه في حجة الوداع، وهو أعلم البشر برب العالمين سبحانه، وفي هذا اليوم العظيم في يومِ عرفة يرفع النبي ﷺ أصبعه الكريمة إلى السماء يرفعها إلى من هو فوقها، وفوق كل شيء قائلاً: ((اللهم اشهد)) ونحن نشهد أنه ﷺ بلغ البلاغ المبين وأدى الأمانة ونصح الأمة وعرفهم بربهم الأعلى ﷺ.

وقد خاطب النبي ﷺ أصحابه في هذه الخطبة قائلاً: ((إنكم مسئولون عني، فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد بأنك بلغت وأديت ونصحت))، وهذه شهادة عظيمة، وإذا كان كذلك، وإذا رفع النبي ﷺ أصبعه إلى السماء، وقال: ((اللهم اشهد)) إذا فعل ذلك دل على هذا على خطأ قول من قال: لا تجوز الإشارة الحسية إلى السماء، بل ربما قال البعض: إن اعتقد الإنسان أن الله فوق عرشه عالٍ على خلقه فهو كافر أو فاسق.

وما أشد خطأ قول الذين يزعمون أن الذي يشير بأصبعه إلى السماء عند قراءة قوله تعالى ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، أو عند قوله ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]، يقولون بأن الذي يفعل ذلك مخطئ، وربما نسب هؤلاء هذه الأقوال الباطلة إلى بعض الأئمة وهي نسبة باطلة.

وحديث جابر في حجة الوداع فيه التصريح بأن النبي ﷺ أشار إلى السماء إشارة حسية، وهو يقول لربه سبحانه الذي يشير إليه اللهم اشهد ولا شك أن هذا فعل يرد هذا الزعم الذي يزعمه البعض بأنه لا يجوز أن نرفع أيدينا أو أصابعنا أو أن نقول بأن الله في السماء.

ومن الأدلة أيضًا ما جاء في حديث الإسراء والمعراج وفيه عدة نقاط تدل على علو الله على خلقه واستواءه على عرشه كما يليق بجلاله، ومن ذلك، أو مما يدل

عليه هذا الحديث أن مجرد العروج إلى فوق السماء السابعة بل إلى حيث سمع صريف الأقلام، أقلام الملائكة الذين يكتبون ما يكتبون بأمر الله وإلى حيث سمع كلام الله وهو سبحانه يخاطبه بشأن الصلاة هذا يدل على علو الله تعالى وأنه فوق السماء.

وأيضًا يدل ويشير حديث الإسراء والمعراج على هذا من جانب آخر؛ لأنه قد ورد فيه أن النبي ﷺ كان يتردد بين موسى وبين ربه سبحانه في طلب تخفيف الصلاة عن أمته، وموسى كان في السماوات فكان النبي ﷺ ينطلق من عند موسى صاعدًا إلى ربه، وقد جاء في الحديث ثم رجع إلى المكان الذي كان فيه أي حيث كلمه ربه وفرض عليه الصلاة.

كما أن سؤال الجارية بلفظ أين الله؟ النبي ﷺ سأل جارية بهذا اللفظ كما في الحديث الذي أخرجه مسلم في قصة معروفة لجارية معاوية بن الحكم السُلمي < ، والحديث طويل وفيه أن هذه الجارية كانت ترعى غنمًا لمعاوية > فعاد الذئب فأخذ منها شاة فغضب معاوية لذلك فصكها على وجهها صكه ثم شعر بالندم فأراد أن يعتقها، أراد أن يعتقها، فلما جاء إلى النبي ﷺ وذكر له ما حصل أمره النبي ﷺ أن يأتي بها إليه ففعل، فلما جاءت قال لها ﷺ: ((أين الله؟ قالت: في السماء، قال لها: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله ﷺ فقال له النبي ﷺ اعتقها فإنها مؤمنة)).

اعتقها فإنها مؤمنة، لماذا؟ لأن النبي ﷺ حكم بإيمانها لما أجابته جوابًا صحيحًا وبعد أن عقد لها هذا الاختبار الذي أراد من وراءه أن يعرف صدق إيمانها، وقد سألها سؤالين أين الله؟ فقالت في السماء، والسؤال الثاني من أنا؟ فأجابت بقولها أنت رسول الله ﷺ وكانت النتيجة اعتقها فإنها مؤمنة، أي باقية على إيمانها

الفطري الذي لم تلوثه الآراء الفاسدة فليحذر الذين يحرمون استخدام هذه اللفظة في حق الله جهلاً منهم بأن الرسول ﷺ استخدمها، فلو سؤل إنسان أين الله؟ فالجواب الصحيح أن يقول في السماء، ولو سؤل كيف الله؟ فالجواب لا يُعلم كيف هو إلا ﷻ جل في علاه؛ لأن الله ﷻ نعلم عنه ما علمنا هو إياه عن نفسه أو علمنا إياه نبينا ﷺ غير أننا لا نحيط به علمًا ومن ذلك معرفة ما هو عليه ﷻ في ذات الأمر، أعني كنه الصفة وحقيقتها وما هي عليه.

ومن الأحاديث الصريحة الصحيحة الواضحة المؤيدة لعلو الله على خلقه وأنه مستوي على عرشه وأن عرشه فوق سماواته كما جاءت الآيات بذلك ما جاء في قوله ﷺ ((الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)).

ومنه أيضًا ((ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء يأتيني خبر السماء صباحًا ومساءًا)) وهذا حديث متفق عليه.

بعد ذكره للآيات والأحاديث الدالة على استواء الله على عرشه وعلوه على خلقه كما يليق بجلاله أذكر أيضًا بعض الآثار الواردة عن التابعين وبعض تابعي التابعين في مسألة العلو.

فعن كعب الأحبار < قال قال الله ﷻ في التوراة ((أنا الله فوق عبادي وعرشي فوق جميع خلقي وأنا على عرشي أدبر أمر عبادي لا يخفى علي شيء في السماء ولا في الأرض)).

وعن مسروقٍ أنه كان إذا حدث عن عائشة قال حدثتني الصديقة بنت الصديق حبيبة حبيب الله المبرأة من فوق سبع سماوات، وجاء عن مقاتل بن حيان عن الضحاك في قول الله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ

رَابِعُهُمْ ﴾ [المجادلة: ٧] قال مقاتل: هو على عرشه وعلمه بهم، هو على عرشه وعلمه معهم، وفي لفظ هو فوق العرش وعلمه معهم، وفي لفظ هو فوق العرش وعلمه معهم أينما كانوا.

وعن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي حبيب عن أبيه عن جده قال: شهد خالد بن عبد الله القصري وخبطهم بواسط فقال: يا أيها الناس ضحوا تقبل الله منكم، فإني مضحٍ بكعب بن درهم فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليمًا ﷻ عما يقول الظالمون علواً كبيرا ثم نزل فذبحه، وهذه القصة مشهورة ذكرها غير واحد من أهل العلم.

كما روى أبو عبد الله الحاكم عن الأوزاعي قال: كنا والتابعون متوافرون نقول إن الله ﷻ فوق عرشه ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته، كما روى عبد الله بن أحمد بن حنبل في الرد على الجهمية، قال: حدثني أبي، ثم ذكر سنده عن عبد الله بن نافع قال: قال مالك بن أنس: الله في السماء، وعلمه في كل مكان لا يخلو منه شيء.

وقال الوليد بن مسلم سألت الأوزاعي والليث بن سعد ومالكًا والثوري عن هذه الأحاديث التي فيها الرؤيا وغير ذلك فقالوا أمضها بلا كيف، وفي لفظ أمروها كما جاءت بلا كيف، ومعنى قولهم أمروها كما جاءت رد على المعطلة، وقوله بلا كيف رد على المشبهة.

وبعد الذي ذكرت، بعد أن ذكرت أنواع الأدلة الثلاثة الدالة على الاستواء والعلو والفوقية ذكرت آيات من الكتاب المبين ذكرت أحاديث صحيحة عن النبي الأمين، ذكرت بعض آثار وكلام أهل العلم من التابعين وتابعيهم بعد ذلك أقول إن هذه النصوص أفادت أمرين مهمين بلا شك، الأول أن النصوص المذكورة لم

تُنسخ وهي محكمة باقية كما جاءت وقد دلت على علو الله على خلقه، الثاني أن السلف { كانوا يفهمون النصوص الواردة في كتاب الله عز وجل ويسلموا لها ويأخذوها على ظاهرها ولا يؤولوا شيئًا منها.

وخلاصة القول في هذا أن صفة العلو أو الفوقية صفة كمال ثابتة بوابل من أدلة الكتاب والسنة ودرج على إثبات ظاهرها جميع الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان وليس فيها نقص ولا تستلزم نقصًا ولا توجب محذورًا ولا تخالف كتابًا ولا سنة بل توافقهما كما رأيت، وقد عُقد عليها إجماع المسلمين الأولين كما علمت وهم القوم الذين يُحتج بإجماعهم لأنهم خير هذه الأمة، لما ثبت عن النبي ﷺ ((خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)).

معية الله لخلقه، وبيان أنها لا تناقض علوه عليهم

المعنى الصحيح للمعية:

وردت آيات في القرآن الكريم تدل على معية الله لخلقه، ومن ذلك ما جاء في قوله سبحانه: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد: ٤]، ولهذا لا بد أن نبين المراد بهذه المعية، وإذا أردت أن أبين مرادها فأقول هل ظاهر قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ هل ظاهر هذه الآية وحقيقتها أن الله تعالى مع خلقه معية تقتضي أن يكون مختلطًا بهم أو حالًا في أمكنتهم؟ أو يُقال إن الله في هذه الآية، أن الله تعالى مع خلقه معية تقتضي أن يكون محيطًا بهم علمًا وقدرة وسمعًا وبصرًا وتدبيرًا وسلطانًا وغير ذلك من معالم ربوبيته مع علوه على عرشه فوق جميع خلقه.

ولا ريب أن القول الأول لا يقتضيه السياق ولا يدل عليه بوجه من الوجوه؛ وذلك لأن المعية هنا أضيفت إلى الله ﷻ وهو ﷻ أعظم وأجل من أن يحيط به شيء من مخلوقاته، ولأن المعية في اللغة العربية التي نزل بها القرآن لا تستلزم الاختلاط أو المصاحبة في المكان، وإنما تدل على مطلق مصاحبة، ثم تُفسر بعد ذلك في كل موضع بحسبه.

وتفسير معية الله تعالى لخلقه بما يقتضي الحلول والاختلاط باطل من وجوه:

الوجه الأول: أنه مخالف لإجماع السلف فما فسرها أحد منهم بذلك، بل كانوا جميعًا مجمعين على إنكاره.

الوجه الثاني: إنه منافٍ لعلو الله تعالى الثابت بالكتاب والسنة والعقل والفطرة وإجماع السلف، وما كان منافيًا لما ثبت بدليل كان باطلاً بما ثبت به ذلك المنافي وعلى هذا فيكون تفسير معية الله تعالى لخلقه بالحلول والاختلاط يكون باطلاً بالكتاب والسنة والعقل والفطرة وإجماع السلف.

الوجه الثالث: أنه مستلزم للوازم باطلة لا تليق بالله ﷻ ولا يمكن لمن عرف ربه سبحانه وقدره حق قدره وعرف مدلول المعية في اللغة العربية التي نزل بها القرآن أن يقول إن حقيقة معية الله لخلقه تقتضي أن يكون مختلطًا بهم أو حالاً في أمكنتهم، فضلاً عن أن تستلزم ذلك، ولا يقول ذلك إلا جاهلٌ باللغة، جاهلٌ بعظمة الرب -جل وعلا-، فإذا تبين بطلان هذا القول تعين أن يكون الحق هو القول الثاني، وهو أن الله تعالى مع خلقه معية تقتضي أن يكون محيطًا بهم علمًا وقدرة وسمعًا وبصرًا وتدبيرًا وسلطانًا، وغير ذلك مما تقتضيه ربوبيته مع علوه على عرشه فوق جميع خلقه.

وهذا بحمد الله -تبارك وتعالى- واضح، وهو ظاهر الآيات التي وردت في المعية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ أو قوله: ﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

وقد بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله -تبارك وتعالى- فقال كما في "مجموع الفتاوى" ثم هذه المعية تختلف أحكامها بحسب الموارد فلما قال: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] كما في سورة الحديد، دل ظاهر الخطاب على أن حكم هذه المعية ومقتضاها: أنه مطلع عليكم، شهيد عليكم ومهيمن عالم بكم، وهذا معنى قول السلف إنه معهم بعلمه وهذا ظاهر الخطاب وحقيقته، وكذلك الأمر في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ .. إلى قوله سبحانه: ﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

ولما قال النبي ﷺ لصاحبه في الغار ((لا تحزن إن الله معنا)) كان هذا أيضًا حقًا على ظاهره ودلت الحال على أن حكم هذه المعية هنا معية الاضطلاع والنصر والتأييد.

ثم قال رحمه الله فلفظ المعية قد استُعمل في الكتاب والسنة في مواضع يقتضي في كل موضع أمورًا لا يقتضيها في الموضع الآخر، فإما أن تختلف دلالتها بحسب المواضع أو تدل على قدر مشترك بين جميع مواردها وإن امتاز كل موضع بخاصية فعلى التقديرين ليس مقتضاها أن تكون ذات ﷻ مختلطة بالخلق حتى يُقال قد صُرفت عن ظاهرها، ويدل على أنه ليس مقتضاها أن تكون ذات الرب ﷻ مختلطة بالخلق أن الله تعالى ذكرها في آية سورة المجادلة بين ذكر عموم علمه في أول الآية وآخرها فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن

نَجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المجادلة: ٧].

فيكون ظاهر هذه الآية أن مقتضى هذه المعية علمه سبحانه بعباده، وأنه لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، لا أنه سبحانه مختلط بهم، ولا على أنع معهم في الأرض، أما الآية التي وردت في سورة الحديد فقد ذكرها الله تعالى مسبوقة بذكر استواءه على عرشه وعموم علمه متلوة الآية، متلوة هذه الآية ببيان أنه بصير بما يعمل العباد فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد: ٤].

فيكون ظاهر الآية: أن مقتضى هذه المعية علمه بعباده وبصره بأعمالهم مع علوه عليهم واستواءه سبحانه على عرشه لا أنه سبحانه مختلط بهم ولا أنه معهم في الأرض، وإلا لكان آخر الآية مناقضًا لأولها الدالة على علوه واستواءه على عرشه، وكتاب ربنا يتنزه عن ذلك، فإذا تبين لنا ذلك علمنا أن مقتضى كونه تعالى مع عباده أنه يعلم أحوالهم ويسمع أقوالهم ويرى أفعالهم ويدبر شؤونهم فيحيي ويميت ويغني ويفقر ويؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء إلى غير ذلك مما تقتضيه ربوبيته وكمال سلطانه سبحانه وهو ﷻ لا يحجبه عن خلقه شيء، ومن كان هذا شأنه فهو مع خلقه حقيقة ولو كان فوقهم على عرشه حقيقة.

المعية لا تناقض العلو والفوقية:

بعد أن ذكرت استواء الله على عرشه وبينت المعنى الصحيح للمعية أود في عجالة هنا أن أبين أن هذه المعية بالمعنى الذي ذكرته لا تناقض علو الله -تبارك وتعالى-؛

لأن هذا العلو الثابت لله ﷻ ثابت بأدلة من القرآن والسنة وما كان كذلك فلا يتناقض مع المعية الثابتة أيضًا بالقرآن والسنة، ودفع هذا التناقض بذكر الوجوه التالية:

الأول: أن الله تعالى جمع بينهما؛ أعني بين المعية والعلو والفوقية لنفسه في كتابه المبين المنزه عن التناقض ولو كانا متناقضين لم يجمع القرآن بينهما، لو كان عناك تناقض بين العلو والفوقية والمعية ما جمع الله ﷻ بينهما في آية واحدة، وكل شيء في كتاب الله تعالى تظن فيه التعارض فيما يبدو لك أيها الإنسان فأعد النظر فيه مرة بعد أخرى حتى يتبين لك؛ لأن كلام الله منزه عن التناقض، قال -تبارك وتعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

أما الوجه الثاني: إن اجتماع المعية والعلو ممكن في حق المخلوق فإنه يُقال مازلنا نسير والقمر معنا، ولا يُعد ذلك تناقضًا.

ومن المعلوم أن السائرين في الأرض والقمر في السماء فإذا كان هذا ممكنًا في حق المخلوق فما بالك بالخالق المحيط بكل شيء وفي هذا يقول الشيخ محمد خليل الهراس -رحمه الله تبارك وتعالى- في شرحه القيم المبدع لـ(لعقيدة الواسطية) يقول: بل القمر آية من آيات الله تعالى من أصغر مخلوقاته وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان، وقال أيضًا في هذا الكتاب.

وضرب لذلك مثلاً بالقمر الذي هو موضوع في السماء وهو مع المسافر ومع غيره أينما كان فإذا جاز هذا في القمر، وهو من أصغر مخلوقات الله تعالى أفلا يجوز بالنسبة إلى اللطيف الخبير الذي أحاط بعباده علمًا وقدرة، والذي هو شهيد مطلع عليهم، يسمعهم، ويراهم، ويعلم سرهم ونجواهم، بل العالم كله سماواته،

وأرضه من العرش إلى الفرش بين يديه كأنه بندقة في يد أحدنا، أفلا يجوز لمن هذا شأنه أن يُقال: إنه مع خلقه مع كونه عاليًا عليهم بائنًا منهم فوق عرشه.

الوجه الثالث: أن اجتماع العلو والمعية لو فُرض أنه ممتنع في حق المخلوق لم يلزم أن يكون ممتنعًا في حق الخالق فإن الله لا يماثله شيء من خلقه كما قال تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في (العقيدة الواسطية) وما ذُكر في الكتاب والسنة من قربه ومعيته لا ينافي ما ذُكر من علوه وفوقيته فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته وهو عليٌ في دنوه قريب في علوه.

وخلاصة القول في هذا الموضوع: أن معية الله تعالى لخلقه ثابتة بالكتاب والسنة وإجماع أهل السنة من السلف وأنها حق على حقيقتها كما يليق بالله تعالى من غير أن تُشبه معية المخلوق للمخلوق كما أن هذه المعية تقتضي إحاطة الله تعالى بالخلق علمًا وقدرةً وسمعًا وبصرًا وسلطانًا وتدبيرًا وغير ذلك من معاني ربوبيته إن كانت المعية عامة، وتقتضي مع ذلك نصرًا، وتأييدًا، وتوثيقًا، وتسديدًا إن كانت خاصة، كما أنها لا تقتضي أن يكون الله تعالى مختلطًا بالخلق، أو حالًا في أمكنتهم، ولا تدل على ذلك بوجه من الوجوه.

وبالتالي أسبح ربي وأقدسه بأن أقول بأنه فوق عرشه بائن من خلقه، ومع كل ذلك فعلمه بهم محيط، وهذا من كمال وجلال رب العالمين -سبحانه جل في علاه.

الرد على من أنكر الأسماء والصفات

عناصر الدرس

العنصر الأول : الرد على المشبهة الممثلة ٣٥٩
العنصر الثاني : الرد على المعطلة ٣٦٤
العنصر الثالث : الرد على المؤولة ٣٦٩

الـــرد علـــى المـــشبهة الممثلـــة

هـؤلاء قـوم أثبتـوا الأسمـاء لله ﷻ والـصفات، ولكـنهم وقعـوا في مخالفـات عقديـة خطيرة، عندما شبهوا ربهم بخلقه -سبحانه- أو مثلوا صفات رب العـالمين بـصفات المخلوقين، ولا شك أن هـذا ضـلال كمـا سيظهر لنـا؛ لأن الله ﷻ نفـى عـن نفسه الكيف والنظير والشبيه، فقال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ [الشورى: ١١].

وهذا التمثيل وقع منهم على نوعين:

الأول: تمثيل المخلوق بالخالق، ومعناه إثبات شيء للمخلوق مما يختص به الخـالق ﷻ من الأفعال أو الحقوق أو الصفات.

أما النوع الثاني: فهو تمثيل الخالق بـالمخلوق، فـالأول: تمثيـل المخلـوق للخـالق، والثاني عكسه تمثيل الخالق بالمخلوق، ومعناه: أن يثبت لله في ذاته أو صفاته مثل ما أثبت للمخلوق من ذلك.

ومن الصنف الأول الذين شبهوا أو مثلوا المخلوق بالخالق:

- **السبئية**، اللذين شبهوا عليًّا بذات الله، ومعلـوم أن الـسبئية هـؤلاء هـم اللـذين أسسوا، ووضعوا مذهب الرافضة، وينتسبون إلى رجـل معـروف يقـال لـه: عبـد الله بن سبأ الحميري من أهل اليمن، كان يهوديًّا فـأعلن إسـلامه؛ ليفـسد في هـذه الأمة، هذه الطائفة السبئية ممـن شـبهوا المخلـوق بالخـالق؛ لأنـه وقـع منهـم تـشبيه لأمير المؤمنين علي > لذات رب البرية.

ومن هؤلاء أيضًا البيانية: وهم أتباع بيان بن سمعان، وقد زعم هذا الرجل أن معبوده إنسان من نور على صورة الإنسان في أعضائه، وأنه يفنى كله إلا وجهه ﷻ جل في علاه، ولا شك أن هذا ضلال وانحراف، وبيان هذا -وللأسف الشديد- زعم أنه نبي وأنه المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وهذا مما يدفع العاقل إلى أن يضحك على عقول هؤلاء.

ولم يكتف بأن زعم لنفسه النبوة فحسب، بل ادعى الألوهية أيضًا وكان يقول بحلول اللاهوت في الناسوت، أيضًا من الفرق أو الطوائف الذين شبهوا المخلوق بالخالق المغيرية، وهم أتباع المغيرة بن سعد العجلي، الذي زعم أن معبوده ذو أعضاء وأن أعضاءه على صورة حروف الهجاء، وهذا ضلال وانحراف ولولا أن هذه معتقدات وجدت عند هؤلاء ما ساغ لعاقل أن يذكرها.

ولكننا نتحدث عنها؛ لأن بعض الناس ذهب إليها وقال بها، والقصد من وراء ذلك أن نحذر من هذه الطوائف، وألا يقع مسلم مؤمن صحيح الاعتقاد في ما وقع فيه هؤلاء، اللذين افتروا الكذب على رب العباد ﷻ جل في علاه.

ومن اللذين شبهوا المخلوق بالخالق أيضًا إلى جانب السبئية والبيانية والمغيرية المنصورية، وهؤلاء أتباع أبي منصور العجلي، وهذه الطائفة شبهوا أنفسهم بربهم -سبحانه- وكان زعيمهم أبو منصور العجلي يزعم أنه صعد إلى السماء، ومسح الرب تعالى بيده على رأسه، وقال له: يا بني اذهب فبلغ عني فسارت فرقته إلى اليوم على ما يحكى، إذا حلفت قالت: لا والكلمة ويعنون بذلك ما ذكرت آنفًا أن الله -تبارك وتعالى- قال له: اذهب فبلغ عني.

وهؤلاء وصل أيضًا انحرافهم وضلالهم شيئًا عظيمًا عندما زعموا ذلك في رب البرية -سبحانه- وممن شبهوا المخلوق بالخالق أو مثلوا المخلوق بالخالق الخطابية، وهم أصحاب أبي الخطاب بن أبي زينب، وهم فرق متعددة وهؤلاء وللأسف الشديد قد ذهبوا إلى ألوهية الأئمة، ومنهم أيضًا الحلولية، والحلولية فرق أيضًا

متعددة وكان ظهورهم بسبب إفساد هذا الدين، وإفساد التوحيد وهم في حقيقة أمرهم يرجعون إلى غلاة الروافض.

وهؤلاء الحلولية ذهبوا وزعموا أن الله -تبارك وتعالى- حل في أشخاص الأئمة، ومن هنا عبدوا الأئمة لذلك، وأيضًا من هؤلاء المقنعية وزعيمهم معروف بالمقنع، وقد ادعوا فيه الألوهية وأنه يتصور في كل زمان بصورة مخصوصة، فقد يتصور في صورة نوح وإبراهيم ومحمد -عليهم الصلاة والسلام-، وطائفة المقنعية هؤلاء كانوا يستبيحون المحرمات، ويسقطون عن أنفسهم الصلوات والصيام وسائر العبادات، وغير ذلك من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة.

وهؤلاء جميعًا في الحقيقة وقعوا في خطأ شنيع بالغ، عندما مثلوا المخلوق ﷻ بالخالق؛ ولذلك استحقت كل فرقة من هؤلاء أن لا يكون لها من الإسلام نصيب، وهذه الفرق قال فيهم الإمام عبد القاهر البغدادي -رحمه الله تبارك وتعالى- قال في كتابه (الفرق بين الفرق): إنهم خارجون عن دين الإسلام وإن انتسبوا إليه في الظاهر، هكذا ذكر عنهم -رحمه الله تبارك وتعالى-.

ولا شك أن من ذهب إلى أن ربه ذو أعضاء، وأنهم كهيئته أو أنه حل في مخلوقاته وأن المخلوقات التي حل فيها رب العباد تعبد؛ لأن الله حل فيها كل هذا ضلال وانحراف وقع من هؤلاء الممثلة المشبهة.

النوع الثاني من الممثلة:

أذكر بعد ذلك أيضًا النوع الثاني من الممثلة، وهم اللذين مثلوا صفات الخالق بالمخلوق:

وهؤلاء شبهوا صفات الله ﷻ بصفات المخلوقين، وهؤلاء أيضًا طوائف منهم: الزرارية والزرارية: أتباع زرارة بن أعين وقد كان على مذهب القطعية، اللذين كانوا يقولون: بإمامة عبد الله بن جعفر، ثم انتقل عنه فكان يقول: بمذهب

الموسوية، وكان يقول: إن الله تعالى لم يكن عالمًا ولا قادرًا ثم خلق لنفسه علمًا وحياةً وقدرة، وهذا الرجل هو من الشيعة.

كذلك أيضًا من اللذين مثلوا صفات الخالق بالمخلوق المعتزلة أقول هذا؛ لأنهم شبهوا كلام الله ﷻ بكلام خلقه والروافض اللذين قالوا: بأن الله -تبارك وتعالى- لا يعلم الشيء حتى يكون، فأوجبوا حدوث علمه كما يجب حدوث علم العالم من البشر، وقول كلا الفريقين -أعني من شبه الخالق بالمخلوق أو المخلوق بالخالق- باطل بالنقل والعقل، اللذين قد دلا دلالة واضحة على مباينة الخالق للمخلوق في جميع الأفعال والأقوال، والأسماء والصفات.

فصفات الخالق سبحانه وتعالى على ما يليق بجلالة وكماله، كما أن صفات المخلوقين تناسب عقلهم تناسب عجزهم وضعفهم، والله ﷻ في كتابه قد فرق بينه وبين خلقه، وأشار إلى أنه لا مثل له البتة، كما قال -سبحانه- منزهًا نفسه عن التشبيه والتمثيل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

وسورة الإخلاص من السور التي توضح ذلك وتبينه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، فليس معه أحد ولا يشبهه أحد ولا يماثله أحد من خلقه سبحانه وتعالى، وكيف يكون كذلك والله ﷻ هو الخالق وغيره مخلوق؟ وهل يمكن أن يكون المخلوق كالخالق، أو أن يتشبه المخلوق بالخالق، أو أن يتمثل الخالق بالمخلوق؟

قال رب العالمين سبحانه: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، والعقل أيضًا يدل على بطلان التمثيل والتشبيه، إذ كيف يماثل العقل بين الناقص وبين الكامل هذا لا شك أنه مستحيل، أن يقول العقل أو يقوم في العقل بأن الضعيف كالقوي، أو أن الفقير كالغني هذا محال.

فالعقل إذًا يوافق النقل في ذلك، فكل موجود في خارج الذهن لا بد أن يكون متصفًا بصفة، وهذه الصفة إما أن تكون صفة كمال أو صفة نقص، وصفة النقص ممتنعة في حق الإله المعبود، واللائق به ﷻ هو صفات الجلال والكمال، ومن جهة أخرى، فإن المشاهدة والحس تدل على ثبوت صفات كمالية للمخلوق، والله -تبارك وتعالى- هو الذي خلق المخلوق وخلق صفات المخلوق، وهو الذي وهب المخلوق ما هو عليه من صفات كريمة، أو جليلة أو غير ذلك.

فكيف يكون هذا الكامل الذي أعطى ووهب ﷻ للمخلوق شيئًا من الكمال، أن يكون مشابهًا لربه ﷻ ومولاه والمخلوق ناقص؟ والله -تبارك وتعالى- هو الذي يتصف بصفات الجلال والكمال، ومن ثم فلا يشبه الخالق المخلوق أو الكامل الناقص، وبذلك يتضح براءة أهل السنة والجماعة من تلقيبهم بالمشبهة؛ لأن المؤولة وسأشير إليهم بعد قليل إن شاء الله -تبارك وتعالى- أو كل من نفى شيئًا من الصفات لله ﷯ اتهم من أثبتها بأنه مشبه.

وأهل السنة والجماعة يثبتون الأسماء والصفات على ما أراد رب العباد -سبحانه- دون تمثيل أو تشبيه، وأما من لقبهم بأنهم مشبهه، فهذا قد وقع في الحقيقة في انحراف كثير، وهذا الاتهام هو من باب الكذب والافتراء، وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: وأما الحنبلية المحضة فليس فيهم من ذلك ما في غيرهم، كما قال أيضًا -رحمه الله-: وفي الحنبلية أيضًا مبتدعة، وإن كانت البدعة في غيرهم أكثر، وبدعهم غالبًا في زيادة الإثبات في حق الله، وفي زيادة الإنكار على مخالفيهم بالتكفير.

وبهذا يبرئ الإمام ابن تيمية -رحمه الله- الحنابلة، وأقول: الحنابلة بصورة خاصة؛ لأنهم هم اللذين سلموا في هذا الباب وسلموا للنصوص الواردة في هذا الباب، ومن هنا قال عنهم المخالف: بأنهم مشبهة والأمر ليس كذلك، فإن وقع بعض غلاتهم في زيادة نوع من أنواع الإثبات، إلا أن هذا لا يصح ولم يصح عن جميعهم بحال من الأحوال.

الـــــرد علـــــى المعطلـــــة

إن التعطيل عن أهل الأهواء والبدع ينقسم إلى قسمين:

تعطيل كلي محض:

وهو ما عليه نفاة الصفات من الفلاسفة والقرامطة والجهمية، وهؤلاء يسمون بأهل التخييل، يقول فيهم شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تبارك وتعالى-: وهذا الأصل الباطل الذي أصله نفاة الصفات الجهمية المحضة من المعتزلة وغيرهم، هو الذين فارقوا به جميع المثبتة للصفات.

أما القسم الثاني من أقسام التعطيل: فهو التعطيل الجزئي، وهو ما تعلق بنوع معين من الصفات، وإن كان الأصل لديهم الإثبات في الجملة، كالكلابية والأشعرية والماتريدية، وفيهم يقول ابن تيمية -رحمه الله-: والجهمية والمعتزلة مشتركون في نفي الصفات، وابن كلاب ومن تبعه كالأشعري، ومن تبعهم أثبتوا الصفات لكن لم يثبتوا الصفات الاختيارية.

فلذلك وبناءً على هذا أصبحت مراتب التعطيل كالآتي بعد أن ذكرت أقسامه نخرج من هذه الأقسام إلى مراتب التعطيل وهي كما يلي:

أولًا: نفي النقيضين: وهو مذهب غلاة الفلاسفة والقرامطة والباطنية الخارجون عن الدين الإسلامي، حيث يقولون: لا يوصف الباري -تبارك وتعالى- بالنفي ولا بالإثبات، ويسلبون عنه النقيضين، فيقولون: لا موجود ولا معدوم ولا حي ولا ميت ولا عالم ولا جاهل؛ لأنهم يزعمون إذا وصفوه بالإثبات شبهوه بالموجودات، وإذا وصفوه بالنفي شبهوه بالمعدومات، فسلبوا النقيضين فوقعوا في شر مما فروا منه.

فإنهم بهذا قد شبهوه بالمبتدعات إذ سلب النقيضين كليهما من الممتنعات، وقد علم بالاضطرار أن الموجود لا بد له من موجد واجب بذاته غني عن ما سواه، قديم أزلي لا يجوز عليه الحدوث، ولا العدم فوصفوه بما يمتنع وجوده، فضلًا عن الوجوب أو الوجود أو العدم، يقول ابن تيمية -رحمه الله-: حقيقة قول الفلاسفة في الصفات إن الرسل كذبت فيما أخبرت به عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؛ لأجل ما رأوه من مصلحة الجمهور في الدنيا.

أما المرتبة الثانية من مراتب التعطيل: فهم نفاة الأسماء والصفات، فإن فرقة أو فرقًا وقعت في نفي الأسماء والصفات، واعتبروا الله ﷻ هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق، وهو مذهب الجهمية المحضة والفلاسفة الدهرية، وهم الغلاة حيث وصفوا الله -تبارك وتعالى- بالسلوب في الجملة، أي: يجعلون الصفات الثابتة لله ﷻ من قبيل السلوب والإضافات دون صفات الإثبات، وجعلوه هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق.

جعلوا الله -تبارك وتعالى- هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق، فجعلوا العلم عين العالم، يقول الإمام أحمد -يرحمه الله- عند كلامه عن جهم بن صفوان: وزعم أن من وصف الله بشيء مما وصف به نفسه في كتابه، أو حدث عنه رسوله ﷺ كان كافرًا، وكان من المشبهة فأضل بكلامه بشرًا كثيرًا، فإذا سألهم الناس عن قول الله -تعالى- ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

يقولون: ليس كمثله شيء من الأشياء، وهو تحت الأرضين السبع، كما هو على العرش ولا يخلو منه مكان، ولا يكون في مكان دون مكان، ولم يتكلم ولا يتكلم ولا ينظر إليه أحد في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يوصف ولا يعرف بصفته ولا بفعل، ولا له غاية ولا منتهى؛ والسبب في قولهم هذا أنهم يزعمون أنهم إذا سمو الله ﷻ بهذه الأسماء، فهي مما يسمى به غيره، والله -تبارك وتعالى- منزه عن مشابهة غيره.

والصحيح في ذلك أن أقول: إن الاتفاق بين الاسم العام، أو إن الاتفاق في الاسم العام بين الخالق والمخلوق لا يقتضي المماثلة عن الإضافة ولا التخصيص، ولا وجود لهذا الاتفاق في الخارج، وإنما قد يوجد في الذهن -يعني قد يفرض الذهن شيئًا من ذلك-، أما أن يكون لهذا حقيقة في الخارج، فهذا لا يوجد أبدًا؛ لأنه مستحيل أن يكون هناك مشابهة أو مماثلة بين الخالق وبين المخلوق.

أما المرتبة الثالثة من مراتب التعطيل: فهي إثبات أسماء معطلة من الصفات، وهذا هو مذهب المعتزلة والمقتصدين من الفلاسفة، اللذين أثبتوا لله الأسماء دون ما تضمنته من الصفات، ومنهم من جعل العليم والقدير والسميع والبصير كالأعلام المحضة المترادفات، ومنهم من قال: إنه سبحانه وتعالى عليم بلا علم، قدير بلا قدرة سميع بصير بلا سمع وبصر، فأثبتوا الاسم دون ما تضمنه من الصفات.

والقاضي عبد الجبار وهو من أئمة المعتزلة يوضح ذلك ويبينه عن جماعته وفرقته، فيقول: أما ما يستحقه من الصفات، فهو الصفة التي بها يخالف مخالفة ويوافق موافقة، ولو كان له موافق تعالى عن ذلك، وكونه قادرًا عالمًا حيًّا سميعًا بصيرًا مدركًا للمدركات، موجودًا مريدًا كارهًا، فأما كيفية استحقاقه لهذه الصفات، فاعلم أن تلك الصفة التي يقع بها الخلاف والوفاق يستحقها لذاته، إذًا هو لا يثبت صفات زائدة على الذات لرب الأرض والسماء.

وبناءً عليه أقول: إن المعتزلة فعلت ذلك، ونفت الصفات عن الله ﷻ وأثبتت أسماء معطلة من الصفات؛ لأنهم زعموا أن هذه الصفات من قبيل العَرَض، والعرض لو بقي لم يمكن عدمه؛ لأن عدمه إما أن يكون بإحداث ضد، أو بفوات شرط أو اختيار فاعل، وكل ذلك ممتنع، والتزمت المعتزلة لأجل ذلك التزمت نفي الصفات عن الله مطلقًا؛ لأن الدال عندهم على حدوث هذه الأشياء هو قيام الصفات بها، والدليل يجب طرده فالتزموا حدوثه كل موصوف بصفة قائمة به.

وقولهم هذا مخالف للنقل والعقل، كما هو معلوم ولذلك صدق فيهم قول الإمام الطحاوي -رحمه الله-، وهو يبين مذهبهم الباطل في قوله يقول: إن هؤلاء بنوا أصل دينهم عن الجسم والعرض الذي هو الموصوف والصفة، واحتجوا بالصفات التي هي الأعراض على حدوث الموصوف، الذي هو الجسم وتكلموا بالتوحيد أو في التوحيد على هذا الأصل، فنفوا عن الله كل صفة تشبيهًا بالصفات الموجودة في الموصوفات، التي هي الأجسام؛ ولذلك أقول: هؤلاء زعموا ذلك بالعقل، ولكنهم خالفوا العقل أيضًا؛ لأن العقل يدل على إثبات صفات الجلال والكمال لله، هذه هي مراتب التعطيل الكلي ذكرتها الآن.

أما التعطيل الجزئي: فأقصد به قومًا أثبتوا الصفات في الجملة، ثم بعد ذلك نفوا بعض الصفات عن الله -تبارك وتعالى-، وهي ما تعرف بالصفات الاختيارية أو بصفات الأفعال، وهؤلاء فرق أشير إليهم بصورة سريعة كالتالي:

أعني الفرق التي عطلت تعطيلًا جزئيًّا وأعني بذلك أنهم أثبتوا بعض الصفات، ونفوا البعض الآخر، من هؤلاء الكُلَّابية هؤلاء يثبتون الأسماء والصفات في الجملة، ويعتقدون بما تدل عليه، ولكنهم لا يفرقون بين صفات الذات وصفات الفعل؛ ولذلك أثبتوا الصفات الذاتية، ونفوا الصفات الفعلية عن الله -تبارك وتعالى-، وأولوها؛ لأنهم زعموا أيضًا أنها من الأعراض التي لا تقوم إلا بالأجسام، وبالتالي نفوها عن رب العباد سبحانه وتعالى جل في علاه.

والأشاعرة قد تأثروا بالكلابية في ذلك غير أن لهم تقسيم آخر للصفات، فهم قسموا الصفات الإلهية إلى صفات نفسية راجعة إلى الذات، أي إلى وجود الله تعالى وإلى صفات سلبية، واختاروا لهذه الصفات خمسة أقسام: هي وحدانية الله تعالى، والبقاء، والقدم، ومخالفته عز وجل للحوادث، وقيامه عز وجل بنفسه وسموها سلبية؛ لأن كل صفة منها تسلب في إثباتها كل ما يضادها، أو كل ما لا يليق بالله -تبارك وتعالى-.

كما أنهم يقسمون الصفات كذلك إلى سبعة أقسام، ويسمونها صفات المعاني وهي الصفات الذاتية، التي لا تنفك عن الذات بحال من الأحوال، وهي: الحياة والعلم والقدرة والإرادة والكلام والسمع والبصر، ويؤولون بعد ذلك سائر الصفات الثابتة لله عز وجل، وهي ما تعرف بالصفات الخبرية، وكذلك أيضًا بصفات الأفعال والماتريدية المنتسبين إلى أبي منصور الماتريدي -رحم الله تبارك وتعالى- الجميع، قد شارك أيضًا الكلابية والأشاعرة فيما ذهبوا إليه من ذلك.

ولا شك أن الصفات كلها يجب أن تكون من باب واحد، وأن نؤمن بها جميعا وألا نفرق بين شيء ثبت لله ﷻ في كتابه، أو سنة رسوله ﷺ وبين غيره، وبالتالي فالتعطيل الجزئي الذي هو عند بعض الفرق الإسلامية أيضًا، وإن كان تعطيلًا يختلف عن التعطيل الكلي، أو التعطيل المحض بمراتبه الفاسدة، إلا أنهم وقعوا أيضًا في خطأ عندما نفوا بعض الصفات الثابتة لرب البرية ﷻ جل في علاه.

الـــرد علـــى المؤولـــة

التأويل يطلق ويراد به عدة معان:

الأول: يراد به التفسير فتقول: أولت كلام فلان يعني فسرته وبينته، وهذا معنًى صحيح من معاني التأويل، وهذا ما ذكره الإمام ابن جرير -رحمه الله تبارك وتعالى- في (تفسيره)، أو ما جعله عنوانًا لكتابه في التفسير؛ لأنه قال: (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، فقول الإمام ابن جرير -رحمه الله-: (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) يعني: عن تفسير آي القرآن، وهذا معنى صحيح.

الإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله تبارك وتعالى- ألف رسالة، أو كتيبًا صغيرًا عنونه بقوله: (الرد على الجهمية والزنادقة فيما شكوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله)، فقوله -رحمه الله-: وتأولوه على غير تأويله، يعني فسروه على غير تفسيره، إذًا المعنى الأول من معاني التأويل التفسير، وهذا معنًى صحيح لا غبار عليه.

المعنى الثاني من معاني التأويل: الحقيقة التي يئول إليها الكلام، أو التي يرجع إليها الكلام، كما قال تعالى مثلًا في كتابه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ

﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]، فتأويل ما في القرآن من أخبار المعاد هو ما أخبر الله تعالى به فيه، مما يكون من القيامة والحساب والجزاء والجنة والنار، ونحو ذلك، وهو الحقيقة التي ستكون في يوم القيامة.

فالتأويل في هذه الآية معناه: الحقيقة التي يرجع إليها الكلام، وذلك عندما يشاهد الإنسان حقيقة ما أخبر به، كما جاء مثلًا في هذه الآية، وهذا أيضًا معنًى صحيح من معاني التأويل.

أما المعني الثالث والأخير من معاني التأويل: فهو صرف اللفظ الظاهر إلى لفظ آخر بدليل أو لدليل يدل عليه، تأتي إليك عبارة فتصرفها عن ظاهرها المراد لوجود دليل يدل عليه، وهذا في الحقيقة أو هذا النوع من التأويل صحيح، فصرف الكلام عن ظاهره لدليل صحيح يدل عليه كلام صحيح، ولكن المعطلة أو المؤولة استخدموا ذلك وأولوا النصوص الواردة في الصفات دون دليل يدل عليها، يعني أنهم صرفوها عن ظاهرها دون دليل يدل عليها.

وقد تزرع المؤولة بهذا النوع من التأويل، وأولوا الصفات أو بعض الصفات الواردة والثابتة لرب البرية ﷻ جل في علاه- بحجة هذا التأويل، أو رجوعًا إلى هذا المعنى الثالث: هو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادل منه لدليل يدل عليه، وهذا التأويل الذي وقع فيه المؤولة في بعض الصفات ليس تأويلًا صحيحًا.

ولذلك يقول في هذا شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: هذه التأويلات الموجودة اليوم بأيدي الناس، كأكثر التأويلات التي ذكرها أبو بكر بن فورك -رحمه الله- في كتاب (التأويلات)، وذكرها أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي في كتابه الذي سماه (تأسيس التقديس)، ويوجد كثير منها في كلام خلق كثير غير هؤلاء، مثل: أبي علي الجُبَّائي وعبد الجبار بن أحمد الهمزاني وأبي الحسين

البصري وأبي الوفاء بن عقيل وأبي حامد الغزالي، وغيرهم هي بعينها تأويلات بشر المريسي التي ذكرها في كتابه، وإن كان يوجد في كلام بعض هؤلاء رد التأويل وإبطاله أيضًا، ولهم كلام حسن في أشياء.

وهذا الكلام في الحقيقة من ابن تيمية -رحمه الله- فيه من الإنصاف ما فيه، فهو وإن ذكر أن هؤلاء أولوا بعض الصفات إلا أنهم أيضًا ردوا التأويل أو بعض التأويل في صفات أخرى، ولهم كلام حسن أيضًا، ومن هذا النص الذي ذكرته عن ابن تيمية -رحمه الله- يتبين لنا أن من وقع في التأويل المذموم على ضربين:

الأول: من اتخذه منهجًا ثابتًا وقاعدةً مطردةً، يعامل بها النصوص كبشر المريسي والنفاة نفيًا مطلقًا.

الثاني: من اطرد قوله في ذلك ولم يسر على قاعدة مطردة، بل وقع له تأويل، ورد أيضًا بعض التأويلات وهذا حال كثير من مثبتة الصفات، كالكلابية والأشاعرة وغيرهم، ولكنهم جميعًا يتفقون كل في ما رده في تبرير تأويلاتهم بعلة عليلة، تحمل علامات بطلانها في ثناياها، فيقولون: إن النصوص الواردة في الصفات لم يقصد بها الرسول ﷺ أن يعتقد الناس الباطل، ولكن قصد بها معاني ولم يبين لهم تلك المعاني، ولا دلهم عليها، ولكن أراد أن ينظروا فيعرفوا الحق بعقولهم، ثم يجتهدوا في صرف تلك النصوص عن مدلولها.

ومقصوده امتحانهم وتكليفهم وإتعاب أذهانهم وعقولهم في أن يصرفوا كلامه عن مدلوله ومقتضاه، وعلى أن يعرفوا الحق من غير جهته، وهذا قول المتكلمة والجهمية والمعتزلة، ومن دخل معهم في شيء من ذلك والجواب عن هذه الشبهة التي ذكروها ووقعوا فيها من وجوه كثيرة أبرزها كما يلي:

أولًا: أن هذا المسلك قائم على أن أسماء الله وصفاته مجاز لا حقيقة، أعني مسلك التأويل وهذا كلام باطل؛ لأنه لو كانت أسماء الله -تبارك وتعالى- وصفاته مجازًا لصح نفيها عند الإطلاق، ولجاز لنا أن نقول: إن الله ليس بحي ولا عليم ولا قدير ولا سميع ولا بصير، ولا استوى على العرش ونحو ذلك.

ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام، أنه لا يجوز إطلاق النفي على ما أثبته الله -تبارك وتعالى- لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات العلا، بل هذا جحد للخالق وتمثيل له بالمعدومات، وهم مقرون أن علامة المجاز صحة نفيه عند الإطلاق، وبالتالي نقول لهم: إنه لا يجوز لنا أن ندخل المجاز في آيات الصفات، ولا أن نصرفها عن ظاهرها.

الرد الثاني عليهم: إن المعاني التي ادعاها أهل التأويل المذموم معان مجازية باعترافهم، وليست هي المعاني التي دلت عليها ظواهر الألفاظ، فصرفها عن ظاهرها اللائق بجلال الله -سبحانه- وصرفها أيضًا عن حقيقتها المفهومة منها إلى باطن يخالف الظاهر، أو إلى مجاز ينافي الحقيقة لابد فيه من أربعة أشياء:

أحدها: أن ذلك اللفظ مستعمل بالمعنى المجازي؛ لأن الكتاب والسنة وكلام السلف جاء باللسان العربي، ولا يجوز أن يراد بشيء منه خلاف لسان العرب، أو خلاف الألسنة كلها فلابد أن يكون ذلك المعنى المجازي مما يراد به اللفظ، وإلا فيمكن لكل مبطل أن يفسر أي لفظ بأي معنًى سنح له، وإن لم يكن له أصل في اللغة.

الثاني: أن يكون معه دليل يوجب صرف اللفظ عن حقيقته إلى مجازه، وإلا فإذا كان يستعمل في معنًى بطريق الحقيقة، وفي معنًى بطريق المجاز لم يجز حمله على المجازي بغير دليل يوجب الصرف بإجماع العقلاء، ثم إن ادعى وجوب صرفه

على الحقيقة، فلا بد له من دليل قاطع عقلي أو سمعي يوجب الصرف، وإن ادعى ظهور صرفه على الحقيقة فلا بد من دليل مرجح للحمل على المجاوز.

الثالث: أنه لا بد من أن يسلم ذلك الدليل الصارف عن معارض، وإلا فإذا قام دليل قرآني أو إيماني يبين أن الحقيقة مراده امتنع تركها، ثم إن كان هذا الدليل نصًّا قاطعًا لم يلتفت إلى نقيضه، وإن كان ظاهرًا فلابد من الترجيح.

الرابع: الذي أرد به على هؤلاء في المعنى الثاني، عندما ذهبوا أن صرف الصفات عن ظاهرها اللائق بجلال الله بلون من ألوان التأويل صحيح، عندئذ أقول لهم: إن الرسول ﷺ إذا تكلم بكلام وأراد به خلاف ظاهره وضد حقيقته، فلابد أن يبين للأمة كلها ﷺ أنه لم يرد حقيقته، وأنه أراد مجازه ﷺ، سواء عينه أو لم يعينه لاسيما في الخطاب العلمي الذي أريد منهم فيه الاعتقاد والعلم، دون عمل الجوارح.

فإنه ﷻ جعل القرآن نورًا وهدًى، وبيانًا للناس وشفاءً لما في الصدور، وأرسل الرسل ليبين للناس ما نزل إليهم؛ وليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه؛ ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، ثم الأمة أو هذا الرسول الأمي العربي ﷺ بعث بأفصح اللغات وأبين الألسنة والعبارات.

والصحابة الذين أخذوا عنه كانوا أعمق الناس علمًا، وأنصح الناس للأمة، وأبين الناس لسانًا فلا يجوز أن يتكلم هو وهؤلاء بكلام يريدون به خلاف ظاهره، إلا وقد نصب دليلًا يمنع من حمله على ظاهره، وهذا الدليل إما أن يكون عقليًّا ظاهرًا، كقوله تعالى: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، فإن كل أحد يعلم بعقله أن المراد: أوتيت من جنس ما يؤتاه مثلها.

وكذلك قوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر: ٦٢] يعلم المستمع الذي يستمع إلى هذه الآية أن الخالق لا يدخل في هذا العموم، وهذا بالعقل أو أن يقيم من أراد كلامًا وأراد به عدم، أو ألا يحمل على ظاهره وأن يؤول، لابد أن يأتي أيضًا بدليل سمعي يدل على أنه لا يريد هذا الظاهر، وإلا كان كلامه من باب الألغاز، وكان يريد بهذا أن يوقع المستمع في الحيرة والضلال.

ولا شك أن هذا لا يمكن أن يكون بحال من الأحوال؛ لأن النبي ﷺ عندما بلغ أمته الكتاب والسنة وضحه لهم غاية الوضوح ﷺ، فكان يفهم كلامه لغيره وكان يعيده مرات كثيرة ﷺ؛ لأنه يعلم أنه يخاطب الذكي والبليد كما أنه يخاطب الفقيه وغير الفقيه.

وقد أوجب الله ﷻ على الجميع أن يتدبروا ذلك الخطاب الذي بلغه رسول الله ﷺ وأن يتفكروا فيه وأن يعتقدوا بموجبه، فمحال إذًا مع ذلك أن تكون ظواهر نصوص الصفات المعروفة معناها على ضوء ما تفهمه العرب من لغتها، أن تكون هذه الظواهر مستحيلة على رب البرية سبحانه وتعالى جل في علاه.

وختامًا لهذا المسلك الذي وقع فيه هؤلاء أقول: إن المؤولة وقعوا في التناقض والاضطراب، والتفريق بين المتماثلات لماذا؟ لأنهم أثبتوا بعض الصفات لله ﷻ، ثم نجدهم من جانب آخر أنهم أولوا أيضًا الصفات الخبرية، أو صفات الأفعال، وليس معهم دليل في التفريق بين المتماثلات بحال من الأحوال، بل إن هؤلاء المؤولة في الحقيقة فتحوا للملاحدة بابًا أنكروا من خلاله نصوص المعاد.

فهؤلاء الملاحدة الباطنية أولوا النصوص الواردة في اليوم الآخر وما يكون فيه بحجة أن هذه النصوص مصروفة عن ظاهرها، وأنها عبارة عن كلمات قالها الرسول ﷺ للجمهور؛ حتى يدفعهم إلى الإيمان به وحتى تستقيم أمورهم، وإذا

جئنا إلى هؤلاء الملاحدة الذين عطلوا نصوص الصفات وصرفوها عن ظاهرها، وقلنا لهم: لم فعلتم ذلك؟ أجابوا بأن أيضًا بعضكم أول أو نفى الصفات الثابتة لرب البرية ﷻ جل في علاه-.

ولذلك أقول لهؤلاء المؤولة في نهاية هذا اللقاء باختصار شديد: القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر، فإذا أثبت لله علمًا وحياةً وإرادة وسمعًا وبصرًا وقدرةً وكلامًا، وقلت: بأن هذه الصفات تليق بالله ﷻ وتليق بجلاله وكماله، ولا يماثل فيها المخلوق، فقل في بقية الصفات الأخرى الثابتة لله ﷻ كصفة الاستواء أو النزول أو غير ذلك من صفات الأفعال، أو الصفات الخبرية كصفة اليدين مثلًا وغير ذلك.

قل: بأنها ثابتة لله -تبارك وتعالى- وهو ﷻ لا يماثل فيها المخلوقين بحال من الأحوال؛ لأن الصفات كما ذكرت كلها من باب واحد، ولا فرق بين ما أثبته المثبت من هذه الصفات، وبين ما نفاه النافي، بل إن القول في أحدهما كالقول في البعض الآخر، وهذه قاعدة عظيمة يجب أن يفهما كل مسلم؛ لأنها تتعلق بذات رب البرية ﷻ جل في علاه-.

وأود أن أقول أيضًا كلمة أخرى في هذا المقام:

وهي: أن الله ﷻ أعلم بنفسه وبما هو عليه ﷻ من خلقه، وهو الذي أخبرنا عن نفسه بهذه الصفات، فهل يجوز لعقل أن يتدخل في ذلك وينفي أو يؤول هذه الصفات عن الله -تبارك وتعالى-؟ لا شك أن هذا انحراف في الفكر والتصور، ولا شك أيضًا أن هذا يضعف الإيمان في القلب؛ لأن العبد إذا لم يؤمن بصفات الجلال والكمال لله ما عرف ربه ﷻ ومولاه.

وأنا أقول لكل من مثل أو عطل أو أول، أقول له قول الحق -تبارك وتعالى- : ﴿ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، الله هو الذي أخبرنا بذلك فيجب أن نثبت خبر رب العالمين ﷻ جل في علاه- ، وبهذا يتبين لنا أن مذهب الممثلة المشبهة باطل، وأن مذهب المعطلة سواء كان التعطيل كليًّا أو تعطيلًا جزئيًّا أيضًا باطل.

كذلك صرف نصوص الصفات الواردة لرب البرية بحجة التأويل، يعني صرفها عن ظاهرها اللائق بها، والقول: بأنها مجاز تؤول هذا أيضًا لا دليل عليه، فأين الصارف لهذه الصفة عن ظاهرها، ثم إذا جاء المؤول بمعنًى من أدراه أن هذا المعنى صحيح في حق رب البرية -جل في علاه- ، وبهذا يجب علينا أن نثبت الصفات لله، كما أراد.

أسماء الله كلها حسنى وصفاته كاملة عليا

عناصر الدرس

العنصر الأول : أسماء الله وصفاته كلها كاملة عليا، والأدلة على ذلك ٣٧٩
العنصر الثاني : أمثلة من أسماء الله وصفاته الدالة على إثبات الكمال لله -تبارك وتعالى- ٣٨٩

أسماء الله وصفاته كلها كاملة عليا، والأدلة على ذلك

أسماء الله ﷻ هذه حقيقة كلها صفات جلال وكمال، ولا بد أن أثبت ذلك من خلال النقاط التالية:

أ- أهل السنة يثبتون الكمال لله في أسمائه وصفاته:

لأنه لا بد لي أن أبين ذلك، فأهل السنة والجماعة الذين ساروا على منهج الصحابة والتابعين يعتقدون اعتقادًا جازمًا بأن الصفات، التي وصف الله -تبارك وتعالى- بها نفسه أو وصفه بها رسوله ﷺ وكذلك الأسماء التي ثبتت له -سبحانه- لا نقص فيها بوجه من الوجوه، وهي أحسن الأسماء وأكمل الصفات.

ولقد قرر الله -تبارك وتعالى- في كتابه ذلك، فقال -سبحانه-: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠] وقال -تبارك وتعالى-: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] وقال -جل من قائل-: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [طه: ٨]، كما أنه -سبحانه- ختم بعض الأسماء، التي ذكرها في سورة الحشر بأنها حسنى، فقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٤].

هذه آيات دلت على أن أسماء الله وصفاته كذلك كلها حسنى وكاملة وعليا، وهي أحسن وأفضل الأسماء بإطلاق، وفي ذلك يقول ابن تيمية -رحمه الله تعالى-: الكمال ثابت لله بل الثابت له -سبحانه- هو أقصى ما يمكن من الأكملية بحيث لا يكون وجود كمال لا نقص فيه، إلا وهو ثابت للرب -تبارك وتعالى- يستحقه بنفسه المقدسة.

ويقول الإمام ابن القيم -رحمه الله- : صفات الله كلها صفات كمال محض، فهو موصوف من الصفات بأكملها، وله من الكمال أكمله، وهكذا أسمائه الدالة على صفاته -سبحانه- هي أحسن الأسماء وأكملها، فليس في الأسماء أحسن من أسماء رب العباد، ولا يقوم غيرها مقامها، ولا يؤدي معناها.

والحسنى: جمع الأحسن لا جمع الحسن، وتحت هذا سر نفيس؛ وذلك أن الحسنى من صفات الألفاظ والأحسن من صفات المعاني، فكل لفظ له معنيان: حسن وأحسن، فالمراد الأحسن منهما حتى يصح جمعه على حسنى، ولا يفسر بالحسن منهما إلا الأحسن لهذا الوجه، إذا تقرر هذا الأصل فكيف يقصد بعض المنتسبين إلى هذا الدين إلى الأسماء، التي سمى ربنا بها نفسه، والصفات التي امتدح بها سبحانه وتعالى نفسه؟ فيزعمون أنه يجب أن تنفى عن الله -تبارك وتعالى- أو تأول؛ لأنها تستلزم التشبيه، وأن كمال الباري لا يمكن أن يتحقق إلا بنفيها أو تأويلها.

أقول هذا بعد أن ذكرت أنها صفات كاملة، وأن أسماء الله عز وجل حسنى، فكيف بعد ذلك ننفي أو نئول هذا الأمر العظيم الذي أثبته رب العالمين سبحانه وتعالى لنفسه.

ب- الأدلة على اتصاف الباري بصفات الكمال سبحانه وتعالى:

وسأذكر تحت هذه الفقرة بعض الأدلة سأسوقها لتأكيد إثبات هذه الصفات لله، وأن رب العالمين -جل في علاه- يتسمى بما سمى نفسه بأسماء، ويتصف بما وصف نفسه بصفات.

الأدلة على اتصاف الله ﷻ بصفات الكمال كثيرة:

١- دليل الفطرة:

إن الإقرار بكمال الله في أسمائه وصفاته أمر فطرت عليه النفوس البشرية، ولو خلا الذين ينفون عن الله صفاته وأسمائه، أو بعضًا منها عن الشبهات والتخلصات التي أمرضت منهم القلوب، وأفسدت العقول والنفوس لوجدوا أنفسهم يقرون بصفات الكمال من غير تردد ولا شكوك، ولكنها المبادئ الفاسدة تفسد الفطرة الإنسانية وتدسيها.

ومن نظر في حال الذين ينفون عن الله صفاته وأسمائه، يجدهم يغالبون أنفسهم وفطرتهم ويقهرونها، ويجاهدون في طمس معالم الحق فيها، فهي تدعوهم بالسليقة إلى إثبات علو الله ومحبته ورضاه، وغير ذلك من صفات الكمال، ولكنهم يدفعون الحق إعمالًا لما تبنوه من نظريات فاسدة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تبارك وتعالى- في الجهمية، الذين يقولون في الله الأقوال المتناقضة: هؤلاء يكرهون فطرهم وعقولهم على قبول المحال المتناقض، فيقولون: هو في العالم وليس هو فيه أو هو العالم وليس هو إياه.

ويقول شارح (الطحاوية) -رحمه الله تبارك وتعالى-: أودع الله في الفطرة الإنسانية التي لم تتنجس بالجحود والتعطيل، ولا بالتشبيه والتمثيل أنه -سبحانه- كامل في أسمائه وصفاته، وأنه الموصوف بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ، وما خفي عن الخلق من كماله أعظم وأعظم مما يعرفونه منه.

وقد ردد شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في مؤلفاته قصة الشيخ أبي جعفر الهمداني، مع الأستاذ أبي المعالي الجويني في استدلال الهمداني على أبي المعالي

بالفطرة على إثبات صفة العلو لله -تبارك وتعالى- يقول في ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية: ومن هذا الباب ما ذكره محمد بن طاهر المقدسي في حكايته المعروفة، أن الشيخ أبا جعفر الهمداني حضر مرة والأستاذ أبو المعالي الجويني يذكر على المنبر: كان الله ولا عرش ونفى الاستواء على ما عرف من قوله، وإن كان في آخر عمره -رحمه الله- رجع عن هذه العقيدة، ومات على دين أمة وعجائز نيسابور -رحمه الله- وقد رجع في ذلك وكتب في هذا.

فالإمام أبو المعالي الجويني -رحمه الله- رجع إلى معتقد السلف، ولكنه كان يقول قبل ذلك، الشاهد أن أبا جعفر الهمداني سمعه وهو يقول هذا الكلام، فقال له الشيخ أبو جعفر: يا أستاذ دعنا من ذكر العرش يعني؛ لأن ذلك إنما جاء في السمع، أخبرنا عن هذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا، ما قال عارف قط: يا الله إلا وجد من قلبه معنًى يطلب العلو لا يلتفت يمنة ولا يسرة، فكيف ندفع هذه الضرورة عن قلوبنا؟

فصرخ أبو المعالي ووضع يده على رأسه، وقال: حيرني الهمداني -أو كما قال- ونزل، فهذا الشيخ تكلم بلسان جميع بني آدم، فالإقرار بعلو الله على الخلق أمر فطري ضروري، نجده في قلوبنا نحن وجميع من يدعو الله، فكيف ندفع هذه الضرورة عن أنفسنا؟

والجارية التي قال لها الرسول ﷺ: ((أين الله؟ قالت: في السماء قال: اعتقها فإنها مؤمنة)) هذه الجارية جارية أعجمية، ولكن انظر إلى فقهها وعلمها، وكيف أنها ذكرت أمرًا قام في فطرتها فربما لم تكن جلست تحت معلم يعلمها ذلك، وإن تعلمت هذا فقد وافقت عليه وقبلته؛ لأنه يناسب فطرتها التي هي عليها، فهي أخبرت إذًا بالفطرة والنبي ﷺ أقرها على ذلك، وشهد لها بالإيمان هذا هو الدليل الأول الذي يدل على اتصاف الباري بصفات الكمال.

٢- اتصاف الإله المعبود بصفات الكمال:

وهو دليل صحة ألوهيته وربوبيته ﷻ جل في علاه- ، وسلب صفات الكمال عن الله دليل بطلان الألوهية والربوبية، هذا هو الدليل الثاني أقول فيه: إن الإله الرب المعبود لابد أن يكون كاملًا، وأن نقص هذا المعبود دليل على بطلان ألوهيته وربوبيته، ومن هنا ذم القرآن الكريم آلهة الكفار وعابها؛ لأنها لا تتصف بصفات الجلال والكمال.

فالله ﷻ في كتابه قد عاب أصنام الكفار وآلهتهم؛ لأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تتكلم ولا تهدي ولا تنفع ولا تضر، وتأمل شيئًا مما جاء من ذلك في كتاب الله - تبارك وتعالى- ، قال الله ﷻ في حكايته عن خليله إبراهيم في محاجاته لأبيه أن خليل الرحمن قال لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٤٢].

فتأمل كيف جعل خليل الرحمن إبراهيم # أن هذه الآلهة لا تتصف بهذه الصفات، وكونها لا تتصف بصفة السمع أو البصر أو النفع، أو دفع الضر أو غير ذلك يدل على بطلانها، وأنها لا تستحق أن تعبد؛ لأنها فاقدة لصفات الجلال والكمال، وقد قال الخليل أيضًا لقومه طاعنًا في ألوهية أصنامهم وواصفًا إياها بالعجز والضعف، كما ذكر القرآن الكريم ذلك في عنه في قوله: ﴿هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢، ٧٣].

وقال لهم بعد أن حطم أصنامهم: ﴿أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧]، وقال الحق -تبارك وتعالى- مبينًا وجه بطلان ألوهية العجل، الذي عبده بنو إسرائيل: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ

﴿عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

فجعل الحق -تبارك وتعالى- نفي السمع وإجابة الدعاء، وعدم النفع والضر وعدم الكلام والهداية جعله دليلًا على بطلان الألوهية، ومن هنا يعلم لنا جناية نفاة الصفات الذين عطلوا الرب -تبارك وتعالى- عن صفاته أو أولوا صفاته -سبحانه- وزعموا أن التوحيد يقتضي نفي الصفات.

إن هؤلاء خالفوا أدلة العقول الصحيحة، كما خالفوا النصوص الصريحة الدالة على أن الإله الحق المعبود لا بد أن يتصف بصفات الكمال والجلال، وكلما كثرت صفات الكمال كان الحمد والتعظيم للرب أكمل وأعظم، ولهذا فإن العباد لا يستطيعون أن يحصوا الثناء على الحق -تبارك وتعالى- لكمال أسمائه وصفاته وكثرتها.

٣- الله -تبارك وتعالى- أرشد عقول البشر، ونبهها إلى الأدلة العقلية التي تدلها على ربها، وترشدها إليه:

وهي أدلة سهلة قريبة المأخذ تقوم على أصول صحيحة لا يخالطها باطل، كما هو الحال في كثير من أدلة المتكلمين.

ففي أدلة المتكلمين من التناقض والباطل ما يضعف الإيمان ويشكك في الحق، وقد أرشد الله -تبارك وتعالى- إلى الدليل الذي يدل العقول على كمال الله ﷻ وكمال أسمائه وصفاته ﷻ جل في علاه-، وذلك في قوله سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

ويقول سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم: ٢٧]، ويقول سبحانه: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ [الملك: ١٤].

ومثل السوء الذي جعله الله لأعدائه هو المثل المتضمن للنقائص والعيوب، وسلب كمال أعدائه المشركين وأوثانهم، سلب كمالهم وبيان نقصانهم وعجزهم، هذا هو مثل السوء الذي جعله الله ﷻ لأعدائه، أما المثل الأعلى الذي يستحقه الباري -تبارك وتعالى-، فهو المتضمن لإثبات الكمال كله لله -تبارك وتعالى-، ولذا أقول: إن الذي يسلب عن الله صفات كماله، فإنه يجعل لله ﷻ مثل السوء، وينفي عنه ما وصف به نفسه من المثل الأعلى وهو الكمال المطلق المتضمن للأمور الوجودية والمعاني الثبوتية، التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل، كان بها أكمل وأعلى من غيره.

ولما كانت صفات الرب -تبارك وتعالى- أكثر وأكمل، كان له المثل الأعلى وكان أحق به من كل ما سواه، بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى المطلق اثنان؛ لأنهما إن تكافآ من كل وجه لم يكن أحدهما أعلى من الآخر، وإن لم يتكافأ فالموصوف به أحدهما وحده، فيستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير، وقد قرر ذلك شارح (الطحاوية) -رحمه الله- في استحقاق البارى للمثل الأعلى، وقد دل قول الله -تبارك وتعالى- على ذلك، فالله ﷻ يقول عن نفسه: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النحل: ٦٠].

وهذا يشير ويدل على أن العقول يجب عليها أن تستعمل في حق الباري -تبارك وتعالى- قياس الأولى، وهذا يقضي بأن كل كمال في نفسه ثبت للمخلوق، وليس فيه نقص بوجه من الوجوه، فإن الخالق -تبارك وتعالى- أولى به من

المخلوق، وكل نقص تنزه عنه المخلوق، وليس فيه نقص بوجه من الوجوه، فالخالق أولى لأن يتقدس ويتنزه عنه -سبحانه-.

فالعلم والحكمة والقدرة والقوة والسمع والبصر صفات يمدح بها العباد، والله -تبارك وتعالى- هو الذي وهبها إياهم، وخلقها فيهم وإذًا نقول: بأن الخالق أولى بالاتصاف بها سبحانه؛ لأن واهب الكمال أولى به من غيره، كما أن الجهل والموت والعمى والصمم صفات يتنزه العباد عنها، والباري -تبارك وتعالى- أولى بالتنزه والتقدس عنها.

وقد ورد في النصوص التصريح بأن الله -تبارك وتعالى- أرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين، وأسرع الحاسبين وأحسن الخالقين، وأنه الأكبر والأعز والأعلم والأقوى -سبحانه-، كما ورد في القرآن الكريم أن الرب -تبارك وتعالى- خير الفاصلين، وخير الرازقين وخير الوارثين وخير الناصرين وخير الراحمين وخير الفاتحين وخير الغافرين، والله خير وأبقى، وكل هذه النصوص تدل دلالة واضحة على المنهج القرآني، الذي يرشد العقول على استعمال قياس الأولى في حقه -تبارك وتعالى.

ولذلك أقول: إن كل كمال ثبت للمخلوق فالخالق أولى به، ويمكن أن يجري قياس الأولى بطريق آخر، فيقال: كل كمال في المخلوق هو منحة من الخالق، فكيف يهب ﷻ الكمال وهو يملكه؟ يهبه لمن لا يملكه ولا يتصف به وقد قيل: فاقد الشيء لا يعطيه، لقد سلك الفلاسفة وعلماء الكلام في استدلالهم على كمال الله بقياس التمثيل، الذي يستوي فيه الأصل والفرع، وقياس الشمول الذي تستوي أفراده.

ومن هنا مثلوا الباري بغيره وأدخلوه هو وغيره تحت قضايا كلية تستوي أفرادها، وهذا المنهج أدخل الخلل عليهم، وقادهم إلى الاضطراب والشك والحيرة، بسبب ضعف الأدلة التي اعتمدوها، بخلاف المنهج المنهج القرآني الذي دل على أن الباري يستعمل في حقه قياس الأولى على النحو الذي بيناه، فقياس الأولى هو الذي يجب أن يقال في حق رب البرية ﷻ جل في علاه-، وقد بينته فيما مضى.

جـ- تفسير أهل العلم للمثل الأعلى:

والذي يتأمل في عبارات أهل العلم في تفسيرهم للمثل الأعلى الوارد في النص، يجدها تدور على أربعة معان:

الأول: ثبوت الصفات العليا لله رب العالمين ﷻ جل في علاه-، التي هي الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بحال من الأحوال، وهذا لا يتوقف على علم العباد بها، فالكمال المطلق كله لله -تبارك وتعالى- علمه العباد أم جهلوه.

الثاني: المثل الأعلى هو ما في قلوب العباد، أو هو ما في قلوب الذين يعبدون الله ويذكرونه من تعظيم الله وتقديسه ومحبته وخشيته، والخوف منه ورجائه والاعتماد عليه، والتوكل عليه وهو الذي في قلوبهم تجاه ربهم، لا يشركه في ذلك غيره أصلًا ولا ينافي هذا ما في قلوب بعض خلقه من الشرك والكفر، فإن هؤلاء يغالبون الفطرة ويدنسونها.

وعندما ينزاح الركام عن الفطرة يتبين ما في جوهر الإنسان من تعظيم الله وتمجيده وتقديسه، وأن المكانة التي للرب في قلب العبد لا يدانيها مكانة أحد.

الثالث: المثل الأعلى هو إثبات صفات الكمال للواحد الأحد، وتنزيهها من العيوب والنقائص والتمثيل.

الرابع: المثل الأعلى عبادة الرب -تبارك وتعالى- بواسطة العلم والمعرفة القائمة في نفوس عابديه وذاكريه، ومن هذه العبادات القلبية الإخلاص والتوكل، ومحبة الله والإنابة إليه، هذه أربعة عبارات أو معاني فسر بها أهل العلم المثل الأعلى، الذي يجب أن نثبته لرب العالمين سبحانه وتعالى.

وتتمة لذلك وبناءً على قولي: إن الله -تبارك وتعالى- يتصف بصفات الكمال وحده أقول: من كمال أسماء الله وصفاته أنه سبحانه وتعالى يتصف بها أزلًا وأبدًا، فلا يجوز أن يتصور العبد أن الله وصف بصفة بعد أن لم يكن متصفًا بها، أو أن بعض صفاته تزول عنه -سبحانه-؛ لأن اتصاف الباري بصفاته كمال وفقدها نقص، ولا يمكن أن يحصل لرب العالمين الكمال بعد اتصافه بالنقص، كما لا يجوز أن يتصف بالكمال ثم يزول عنه.

يقول الطحاوي -رحمه الله تبارك وتعالى- مقررًا هذا المعنى: ما زال بصفاته قديمًا قبل خلقه لم يزدد بكونهم شيئًا لم يكن قبلهم من صفته، وكما كان بصفاته أزليًّا، كذلك لا يزال عليها أبديًّا، ويقول شارح (الطحاوية) مبينًا وموضحًا كلام الإمام الطحاوي السابق: لم يزل الله سبحانه وتعالى متصفًا بصفات الكمال، صفات الذات وصفات الفعل، ولا يجوز أن يعتقد أن الله وصف بصفة بعد أن لم يكن متصفًا بها؛ لأن صفاته -سبحانه- صفات كمال وفقدها صفة نقص، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمال بعد أن كان متصفًا بضده.

واتصاف الباري بصفات الكمال أبدًا وأزلًا يدلنا على أن أفعال الرب -تبارك وتعالى- صادرة عن أسمائه وصفاته، كما أن أسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم، فالرب -تبارك وتعالى- أفعاله عن كماله، والمخلوق كماله عن فعاله، فاشتقت له الأسماء بعد أن كمل بالفعل، فالرب لم يزل كاملًا فحصلت أفعاله عن كماله؛ لأنه كامل بذاته وصفاته، فأفعاله صادرة عن كماله، كمل سبحانه وتعالى ففعل

والمخلوق فعل فكمل الكمال اللائق بهذا المخلوق، وكمال المخلوق ناقص وضعيف.

ومن جلال الله ﷻ وعظمته -سبحانه- وأن له المثل الأعلى أننا يجب أن نحذر من إطلاق الأسماء المذمومة على الحق -تبارك وتعالى- لأن هذا يتنافى مع قولنا: بأن أسماء الله حسنى وبأن صفات الله -تبارك وتعالى- كاملة عليا، فالأفعال والأسماء المذمومة لا يجوز إطلاقها على الحق -تبارك وتعالى- بحال لا على سبيل المقابلة والجزاء، ولا في غيرها فلا يقال: إن الله فقير وعاجز أو خائن.

ومن هنا يعلم خطأ قول من قال من الذين لا يعلمون: خان الله من يخونه، وظلم الله من ظلمه والله يجور عليك، فإن الله ﷻ لا يخون ولا يظلم ولا يجور مطلقًا، فهو منزه ﷻ عن ذلك؛ ولذلك قال الله في الذين يريدون خيانة الرسول ﷺ: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧١]، ولم يقل فيهم كما قال في المخادعين: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]؛ لأن الخيانة صفة ذم بكل حال بخلاف الخداع، فإنه في حال المقابلة والمجازاة صفة مدح، كما وردت في هذه الآية.

أمثلة من أسماء الله وصفاته الدالة على إثبات الكمال لله - تبارك وتعالى

بعد أن بينت فيما ذكرت أن أسماء الله الحسنى وأن صفاته كاملة عليا، وذكرت المثل الأعلى وتفسير أهل العلم فيه، أود هنا أن أطبق بعض التطبيقات على شيء يسير من أسماء الله -تبارك وتعالى- الحسنى، وأبين لأبنائي أن هذه الأسماء حقًّا، كما ذكرنا أسماء تليق برب العالمين ﷻ جل في علاه-.

من أسماء الله -تبارك وتعالى- الحسنى "الأول":

فمن المعلوم أن وجود رب العالمين ﷻ جل في علاه- أزلي، فهو ممتد في القدم بحيث لا يتصور قبل رب العالمين وجود قط، وما دام كل وجود قد نشأ عن الله، فالله -تبارك وتعالى- أسبق منه، ونحن لا نعرف عن الأول شيئًا إذ عهدنا بالوجود قد حدث بعد ميلادنا.

عن أبي بن كعب > أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: انسب لنا ربك، فنزل قول الحق: -تبارك وتعالى-: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص١ : ٤]، فهو سبحانه الواحد الأحد الصمد القائم بذاته، وقام كل شيء به سبحانه لم يلد ولم يولد؛ لأنه ليس شيء يولد إلا وسيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث.

وإن الله -تبارك وتعالى- لا يمكن أن يموت ولا يموت، ولا يورث، ولم يكن له كفوًا أحد، لم يكن له شبيه ولا مثيل ولا نظير، و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ﷻ جل في علاه-.

إن هؤلاء المشركين نظروا إلى الألوهية بعقولهم القاصرة، وقاسوا وجودها المطلق على وجودنا المحدود، فتوهموا أن لله أولًا، وليس الأمر كما يتوهمون؛ لأننا نعلم ونوقن ونعتقد كما قال ربنا ﷻ عن نفسه بأنه هو الأول، الذي لا شيء قبله ﷻ، وقد فسر نبينا ﷺ الأول بذلك، وقد تمر بالخاطر هواجس يتساءل الإنسان من خلالها عن من الذي خلق كذا؟ أو من الذي خلق كذا من الكون؟ أو من الذي خلق الله؟

وهذا السؤال يتنافى مع قولنا ومعتقدنا بأن الله هو الأول، وهذه الهواجس يجب على الإنسان أن يبعدها عن نفسه إن خطرت على عقله أو قلبه، فالله ﷻ هو الأول الذي لم يسبق بعدم ﷻ جل في علاه-، ولم يكن شيء قبله، فإذا جاء خاطر أو هاجس عند إنسان، أو جاء الشيطان ليوسوس وليقول للإنسان: من خلق كذا من خلق كذا فمن خلق الرب؟ عليه في هذه الحالة أن ينتهي، وألا يستمر.

فعن أبي هريرة >: ((أن ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ: سألوه قائلين: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال: أوجدتموه؟ قالوا: نعم قال: ذلك صريح الإيمان)) وفي رواية أخرى: ((الحمد لله الذي رد كيده -أي الشيطان- إلى الوسوسة)).

إن تاريخ الإنسان والعالم والحياة كل وجد بعد عدم لا يدرى مداه، وربما استطاع الإنسان إدراك أعراض يسيرة في بيئته المحدودة أعراض تمس يومها الحاضر، أو أمسها القريب أو غدها الموشك، وقد يكون من هذه الأعراض المدركة جملة من المعارف النافعة، ثم تقف بعد ذلك بصيرته، فلا تستطيع حراكًا ولا إدراكًا، فإذا كانت تلك حدود قدرته العقلية في عالم الشهادة، فلا جرم أن يكون في عالم الغيب أعجز، وعن فهمه أقصر.

ونحن لم نؤت من العلم إلا قليلًا، فعلينا أن نسلم وأن نوقن بأن رب العالمين ﷻ هو الأول، ونؤمن بقدم الذات الإلهية، كما أخبر ربنا ﷻ بذلك عن نفسه في كتابه.

أيضًا من أسماء الله الحسنى "الآخر":

والله ﷻ أثبت ذلك لنفسه، فقال كما جاء في كتابه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣]، والله ﷻ باقٍ أبدًا -سبحانه- هو الدائم الذي تصير كل الأشياء إليه،

قال ﷻ في ذلك: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨]، وقال سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨].

والوجود الخالد المتأبي على الفناء قد يمنح للأخيار من عباده الخلود في جنات النعيم، وهذا الفضل الممنوح لا يعني أن بشرًا أصبح حقيقًا بوصف البقاء أو الباقي والآخر، فالأمر كما قلنا وسبق التكرار: إن وجود الله ﷻ واجب له من ذاته لا ينفك عنه أبدًا، أما ما عداه فهو صفر إن لم تدركه نعمة الوجود المفاضي عليه من الخالق -جل في علاه- وأكرر قول رب العالمين: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

فهو الأول الذي ليس قبله شيء ولم يسبق بعدم -سبحانه-، وهو الآخر فليس بعده شيء، وهو الظاهر فليس فوقه شيء، وهو الباطن فليس دونه شيء ﷻ -جل في علاه-.

كذلك أيضًا من الصفات العظيمة الثابتة لرب العالمين ﷻ، وأضربها كنموذج أو كمثال على أن صفات الله أيضًا عليا: القدرة:

والله ﷻ يتسمى باسم القدير؛ ولذلك أقول: إن العالم وما فيه من سكون وحركة أثر لقدرة رب العالمين ﷻ جل في علاه-، والله سبحانه يتصف بصفة القدرة المطلقة، التي لا تقف عند حد، ولا يمكن أن يحيط بها مخلوق، وبقدرة رب العالمين كان كل ما في هذا الكون.

وقد أشار القرآن الكريم إلى شيء من ذلك، فمن هذا ما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى-: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾

لماذا؟ قال: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، فالذي خلق السماوات والأرض وما بينهما، والذي أرسل الرسل وأنزل الكتب هو القدير الذي يتصف بالقدرة، ولا شك أن هذه الأشياء كانت بقدرة رب العالمين سبحانه وتعالى جل في علاه-.

ومن مظاهر قدرة الله عز وجل في كونه أن له مطلق التصرف في الكون، يفعل ما يشاء ويحكم بما يشاء، ويغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، وقد أشارت بعض الآيات القرآنية إلى ذلك، ومنها قول الحق -تبارك وتعالى- ، كما في أواخر سورة البقرة: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

ومن الأمثلة والدلالة على ذلك، ما جاء في قوله -سبحانه- في سورة آل عمران: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران: ٢٦]، بل إن مظاهر القدرة ظاهرة بادية في خلق الإنسان، فالمخلوق يمر بفترات مختلفة وبمراحل متعددة، فينشأ ضعيفًا ثم إذا شاء الله له أن يبقى؛ فيصبح قويًّا نوعًا ما، ثم بعد ذلك إن بقي بعض القوة رجع إلى ضعف مرة أخرى من جديد.

وهذا التغير والتحول والانتقال من حال إلى حال، أمارة عالية على عموم قدرة رب العالمين -سبحانه- ، وقد أشار الله -تبارك وتعالى- إلى ذلك في قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٖ ضَعْفٗا وَشَيْبَةٗۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤] سبحانه وتعالى جل في علاه-.

وما على الإنسان إلا أن ينظر في هذه المخلوقات العظيمة، ويتساءل من الذي أوجدها، وكيف خرجت؟ من الذي خلقها؟ لا شك أنه سيقول: هو رب

العالمين -سبحانه- ووجود هذا الكون بهذا الخلق الملفت للنظر، هذا الخلق العجيب يدل دلالة واضحة على قدرة رب العالمين ﷻ، فالعبد إذا رأى البذرة التي تضعف الأرض أو يضعها الزارع في الأرض إذا رآها وهي تشق التربة وتنمو رويدًا رويدًا؛ لتستوي على سوقها له أن يتساءل من الذي فعل ذلك؟ إنه رب العالمين، وما كانت كذلك إلا بقدرة رب العالمين ﷻ جل في علاه-.

وأنت أيها العبد إذا رأيت الأمواج ترطم الشطئان رائحةً غادية لا تهدأ حتى تثور، فلتعلم ولتوقن أن ذلك بقدرة رب العالمين ﷻ جل في علاه-، ويجب أن تعلم أن هذه القدرة مطلقة كما أشرت، وأن الله -تبارك وتعالى-؛ لأنه يتصف بالقدرة، فهو لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، كما قال -سبحانه-: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤] ﷻ جل في علاه-.

والقدرة في مجالها الواسع لا يعيبها شيء البتة، وآثارها التي نشهدها تدل دلالة واضحة على طاقة لا تقف عند حدود، وليس معنى ذلك بداهة أن تخرج القدرة على منطقها، فيقال مثلًا: إنها لا تستطيع قلب الحقائق أو يقال: إن الله قادر على أن يخلق إلهًا مثله، كما قالته النصارى، أو كما قال بعض من يطلق عليهم بأنهم مفكرين: إن الله لا يستطيع إخراجه من ملكه، هذا كلام في الحقيقة لا يقال في حق رب العالمين ﷻ جل في علاه-.

ومن الصفات أيضًا الكاملة الثابتة لرب العالمين ﷻ، وهي صفة تدل على كمال الله وجلاله: إثبات صفة العلو لله ﷻ:

فالله يتصف بصفة العلو، كما أخبرنا بذلك في كتابه، وعلو الله على خلقه من كماله ﷻ وجلاله، وقد دل القرآن والعقل على ثبوت هذه الصفة لله، وأنها كمال تليق بجلال الله ﷻ جل في علاه-.

ولذلك امتدح رب العالمين نفسه بذلك، فقال: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، فهو الأعلى -سبحانه-، وذكر عن ملائكته أنهم يخافونه سبحانه وتعالى من فوقهم يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون، وقال -سبحانه-: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

والإنسان بعقله لو نظر وقال: بأن الله خالق وقد خلق مخلوقات، وهنا أسأل العقلاء: هل يليق أن يكون الله عز وجل حالًّا في خلقه؟ -تعالى الله تبارك وتعالى عن ذلك-، طيب ما الكمال إذًا لله في هذا؟ أن يكون فوق خلقه سبحانه وتعالى جل في علاه-، ولذلك تمدح الله عز وجل نفسه في آيات كثيرة من كتابه بأنه استوى على عرشه.

أخبر في سبع آيات في كتابه أنه استوى على عرشه، كقوله مثلًا: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] وهذا الاستواء الذي نثبته استواء يليق بجلال الله وكماله، لا نعرف حقيقته ولا كيفيته، ولكننا نقول: بأنه يدل على علو الله على خلقه، وعلى كماله سبحانه وتعالى جل في علاه-، ومن كماله أنه مستو على عرشه، ولا يغيب عنه شيء في أطراف مملكته سبحانه وتعالى جل في علاه-.

قال -جل من قائل عليمًا-: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦]، وفي هنا بمعنى علا، ومن هنا أقول: بأن الله عز وجل يمدح نفسه سبحانه وتعالى بذلك.

أيضًا من الصفات الجليلة الثابتة لرب العالمين، وهي صفة كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه: الإرادة التي تميزت بها الأشياء:

فالله عز وجل يتصف بصفة الإرادة، وهذه الإرادة كانت بها المخلوقات -سبحان الله عز وجل، فخلق هذا طويلًا وخلق هذا قصيرًا ونوع بين المخلوقات وأبرز سبحانه وتعالى كل شيء

في حينه، وتوزيع الخلق كما أراد رب العالمين -سبحانه- يدل على صفة الإرادة الثابتة لرب العالمين -سبحانه-.

والله ﷻ قد أثبتها لنفسه في كتابه، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، وقال -سبحانه-: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨] والحديث يطول عن كلام كثير لأسماء حسنى وصفات عليا، أثبتها الله -تبارك وتعالى- لنفسه، ولكني أكتفي بما ذكرت كدلالة وأمارة على ثبوت الكمال لرب العالمين، وأن أسماء الله ﷻ كلها حسنى وأن صفاته سبحانه وتعالى كلها عليا.

ولذلك وجب علينا أن نثبت الصفات لله؛ لأن الله أثبتها لنفسه وهي صفات كمال تليق بجلال الله -تبارك وتعالى- وعظمته.

أسأل الله -تبارك وتعالى- أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأن يوفق أبناءنا الطلاب إلى ما يحبه ويرضاه، وأن يجعلهم من العلماء العاملين المتمسكين بكتاب الله وهدي رسول الله ﷺ.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم.

قائمة المراجع العامة

١. (**شرح العقيدة الطحاوية**)

ابن أبي العز الحنفي ، دار ابن رجب ، ٢٠٠٢م

٢. (**حقيقة الإيمان**)

عمر بن عبد العزيز قريش ، دار الهدى ، ٢٠٠٧م

٣. (**عقيدة المؤمن**)

أبو بكر جابر الجزائري ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٧٨م

٤. (**معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد**)

حافظ بن أحمد حكمي ، دار الكتب العلمية ، ٢٠٠٤م

٥. (**فتح المجيد شرح كتاب التوحيد**)

عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ ، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٩٩م

٦. (**نواقض الإيمان القولية والعملية**)

عبد العزيز بن محمد بن علي العبد اللطيف ، دار الوطن ، ١٤١٤هـ

٧. (**الثمرات الزكية في العقائد السلفية**)

أحمد فريد ، مكتبة التوعية الإسلامية ، ١٩٨٩م

٨. (**عقيدة المسلم**)

محمد الغزالي ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٧٦م

٩. (**العقائد الإسلامية**)

سيد سابق ، دار الفتح للإعلام العربي ، ١٩٩٢م

١٠.(**شبهات التكفير**)

عمر بن عبد العزيز ، التوعية الإسلامية ، ٢٠٠١م

١١. (**الإيمان : أركانه – حقيقته – نوا قضه**)

محمد نعيم ياسين ، مكتبة الفلاح ، ١٩٨٨م

١٢. (**الإيمان**)

أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، المكتب الإسلامي ، ١٩٨١م

١٣. (**أصول الاعتقاد عند الإمام البغوي**)

عبد الله شاكر محمد الجنيدي ، بلبيس ، دار التقوى للنشر والتوزيع ، ١٩٩٥م

١٤. (**الصلاة وحكم تاركها**)

ابن قيم الجوزية ، دار الحديث ، ١٩٩١م

١٥. (**قاعدة جليلة في التوسُّل والوسيلة**)

أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، مكتبة دار البيان ، ١٩٨٥م

جميع الحقوق محفوظة لجامعة المدينة العالمية 2009